المدخل
إلى الثقافة الإسلامية

تأليف

الدكتور محمد رشاد سالم



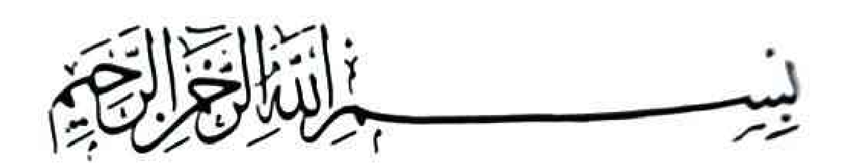
هدية من حضرة الأخ الدكتور عبد الله بن سرور الجودي

وصلني يوم ١٠/رمضان/١٤٤٥هـ - ٢٠/٣/٢٠٢٤م

سرمد حاتم شكر السامرائي

المدخل

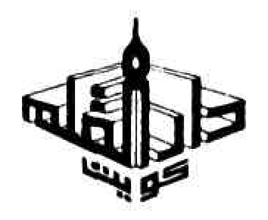
إلى الثقافة الإسلامية


بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل
إلى الثقافة الإسلامية

تأليف

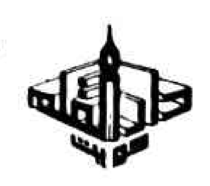
الدكتور محمد رشاد سالم



الطبعة التاسعة

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م

منقحة



دار القلم للنشر والتوزيع

الكويت - شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول - شقة ٨

هاتف: ٢٤٥٧٤٠٧١ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقياً: توزيعكو

ص.ب: ٢٠١٤٦ الصفاة 13062 الكويت

محتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

في عام ١٣٩١ ـ ١٣٩٢ أُعرت من جامعة عين شمس بالقاهرة إلى جامعة الرياض لتدريس مادة الثقافة الإسلامية، وقد قمت بتدريسها مدة ثلاث سنوات كان ثمرتها هذا الكتاب الذي يصلح ـ فيما أرجو ـ لكي يكون مدخلاً لأي دراسة للثقافة الإسلامية.

وقد كان من توفيق الله تبارك وتعالى أن عُمِّم تدريس مادة «الثقافة الإسلامية» في جميع السنوات الدراسية بكليات جامعة الرياض وجامعة الملك عبد العزيز بجدة، وأسأله عز وجل أن يلهم المسؤولين في سائر البلاد الإسلامية أن يحتذوا حذو المسؤولين عن التعليم في المملكة العربية السعودية. وأن تصبح مادة «الثقافة الإسلامية» مادة رئيسية في جميع سِنِيْ الدراسة في جامعاتنا في البلاد الإسلامية.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أشكر أخي في الله الاستاذ عبد الرحمن الباني الذي أمدني بكثير من المراجع التي استعنت بها في إنجاز هذا الكتاب، كما أشكره على كثير من توجيهاته وملاحظاته القيّمة.

وبعد، فإنني أرجو الله تبارك وتعالى أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن يكون من العلم النافع للناس، المقبول بقبول حسن عند الله، اللهم آمين.

محمد رشاد سالم

مقدمة

الثقافة هي بإيجاز أن يعرف المرء شيئاً عن كل شيء، أو أن يلم إلماماً يسيراً بأكثر ضروب المعرفة، ولكنها تطلق إصطلاحاً ويقصد بها بوجه خاص المعرفة المتصلة بالعلوم الإنسانية التي ترقى بالإنسان وتوسع دائرة معارفه وتميزه بالنظرة الشاملة، بحيث ينعكس هذا كله على شخصيته وسلوكه، مما يجعل منه رجلاً واسع الأفق مهذباً يحسن التأتي للأمور ويجيد التصرف في شؤون حياته، يعرف حقوقه ويحرص على أداء واجباته.

وينبغي ملاحظة أن العلم التجريبي التكنولوجي ليس هو الثقافة، فقد نجد عالماً وصل إلى أعلى درجات العلم في الكيمياء، أو الفيزياء أو الرياضيات ولكنه جاهل بكل العلوم الإنسانية من أدب ولغة وتاريخ وإجتماع وسياسة وإقتصاد وتشريع إلى غير ذلك، كما أن معارفه محدودة تماماً، فهذا لا يمكن أن يعد مثقفاً.

وإذا كانت الثقافة بشكل عام من الأمور التي يتجمل بها الإنسان ويستكمل بها مقومات شخصيته، فإن الثقافة بعامة والثقافة الإسلامية بخاصة هي من الأمور التي لا يمكن الاستغناء عنها، ومن الضرورات الحتمية لكل شاب عربي مسلم في هذه الأيام، التي يواجه فيها العرب والمسلمون تحدياً حضارياً، وصراعاً سياسياً وفكرياً، بحيث لا يمكنهم البقاء والصمود دون التسلح بها.

وهذه الثقافة العربية الإسلامية، ضرورية وحتمية لكل المسلمين اليوم

لأسباب ثلاثة ترتبط بفطرتهم وغرائزهم الإنسانية قبل أن ترتبط بكونهم مسلمين يؤمنون بهذا الدين، ويعملون بأوامره، ويجتنبون نواهيه.

أمّا السبب الأول فهو أنه من الأمور الفطرية الطبيعية أن يكون كل إنسان «منتمياً» إلى أسرة أو جماعة أو وطن، وبهذا يكون لهذا الفرد شخصيته وعصبيته وجنسيته. ولو نظرنا إلى حالة فرد منبوذ: لقيط أو إبن غير شرعي أو غير ذلك - في مجتمع لا يرضىٰ به - لوجدناه يعيش في جحيم من الضياع والقلق واهتزاز القيم والمبادىء. وما يصدق على هذا الفرد «اللامنتمي» يصدق على الأمة التي لا شخصية لها، أو التي هي ضائعة حائرة تعيش في صراع بين المبادىء، والقيم، والأفكار والمثل.

والأمة الإسلامية؛ وقد غزتها الحضارة الغربية المسيحية، تعيش الآن مرحلة من أشد مراحل الصراع والقلق، فنحن نجد من بين أبنائها من سحقه هذا الغزو الحضاري، فانقاد له كل الإنقياد، وطالب بأن نتبع تلك الحضارة إتباعاً أعمى، وأن نأخذ منها خيرها وشرها، حلوها ومرها، بل نجد منهم من يتطرف فيأخذ من تلك الحضارة أسوأ ما فيها، من مبادىء تقوم أحياناً على الألحاد وإنكار الأديان، والعنف والتدمير، والتسلط والاستبداد والقسوة.

وعلى النقيض من أولئك؛ نجد نفراً من رجالها لا يشعرون بما أصاب الأمة الإسلامية من غزو فكري غيَّر وبدَّل فيها الكثير، مما يقتضي تطوراً في أساليب الدعوة والعمل، فهم جامدون عند صور وطرائق إنتهى إليها المتأخرون من رجال المذاهب الفقهية، فلا هم عادوا إلى المنابع الأولى أو إلى الكتاب والسنة وطريق السلف الصالح، ولا هم يجتهدون ويجددون بما يقابل ما استُحدِث وجدَّ في أيامنا هذه، ولذلك أصبح بينهم وبين أكثر المسلمين فجوة واسعة، وهوة سحيقة.

ولا ريب أن وجود ثقافة إسلامية مشتركة يلتقي عليها المسلمون، ويشب عليها الشباب المسلم، هو من أهم الأمور وألزمها إذا أردنا لأمتنا النجاة من حالة الضياع والتمزق الفكري الذي نحيا فيه، والخلاص من البقاء بدون شخصية وفكر موحد.

والسبب الفطري الثاني الذي يحتم على المسلمين أن تكون لهم ثقافتهم الإسلامية المشتركة الراشدة متصل بغريزة الدفاع عن النفس.

ذلك أن الأمة الإسلامية تتعرض في عصرنا هذا لحرب ضارية، يشنها عليها الغرب الصليبي، وتدفعه وتعينه على ذلك الصهيونية العالمية. هذه الحرب ـ التي يمكن أن نشبهها بحرب الاستئصال والإبادة التي تعرّض لها الهنود الحمر في أمريكا ـ تبدو آثارها فيما يتعرض له المسلمون اليوم في كل مكان: في فلسطين خاصة، وفي البلاد العربية عامة، وفي أفريقيا، وفي الباكستان، وفي الفلبين، وفي أماكن أخرى كثيرة.

والغرب الصليبي وهو يحس بشمس حضارته وقد مالت إلى الأفول، يريد أن يقضي على كل وليد يمكن أن يرث سلطانه، كدأب فرعون مع أبناء بني إسرائيل، فهو يخشى تارة يقظة المارد الأصفر في آسيا، وهو يتوجس إرهاصات النهضة في الأمة الإسلامية.

والصهيونية العالمية تتطلع لوراثة الحضارة الصليبية، وهي تراها تسير الآن سريعاً في طريق الإنهيار والإنحطاط والتفسخ، والشباب الصهيوني يندفع بروح التعصب، نحو إقامة دولة إسرائيل، التي يريدها من الفرات إلى النيل أولاً، ثم يريد لها بعد ذلك أن تسيطر على العالم، وتملك ثرواته وموارده.

والمنطقة التي تمتد فيها رقعة العالم الإسلامي، هي أغنى مناطق العالم وأزخرها بالثروات الطبيعية، كما أنها تضم أهم المناطق الإستراتيجية، فلا عجب أن أصبحت مطمع الطامعين ومحط أنظار المتطلعين.

ومواجهة هذه الأخطار الداهمة لن يكون بمجرد الاستزادة من العلوم التجريبية التكنولوجية ولن يكون بإنشاء الصناعات، وتقوية الجيوش فقط، بل لا بد حتماً أن يسبق ذلك ويصحبه تكوين الرجل العربي المسلم الذي يعلم ويعمل، ويبني وينشيء ويصنع، ويحارب ويقاتل.

وتكوين الرجال مهمة أصعب بكثير كثير من إنشاء المصانع والمباني. والثقافة ـ والثقافة الإسلامية بوجه خاص ـ هي أهم وسيلة يمكن بها تكوين

الجيل المسلم الذي يتصدى لهذه الأخطار أولاً، ثم يتقدم بعد ذلك لبعث الحضارة الإسلامية، التي حملت إلى الإنسانية عبر القرون الممتدة الحق والخير والفضيلة، والتسامح والرخاء، والأمن والطمأنينة، والرفاهية والسعادة.

والسبب الثالث الذي يستوجب إتجاه كل شاب عربي مسلم إلى الثقافة الإسلامية هو ما تقضي به فطرة الإنسان، من ميل غريزي إلى وطنه، ومن وفاء وولاء لحضارته وتراثه ودينه.

ولسنا ندعو إلى عصبية عمياء، أو أن ينتصر الإنسان لقومه وإخوانه وأهله في الحق والباطل، وفي الخير والشر، ولكن ندعو المسلمين إلى الاستمساك بدينهم القيم والارتباط بأخلاقهم وحضارتهم العظيمة، وألاّ يندفعوا - لما يرونه من ضعف طارىء مؤقت أو تأخر عارض يصيب كل الحضارات - إلى تقليد أعدائهم الأقوياء في كل شيء وإلى إتباع خصومهم في الفكر والعمل.

وإذا كانت الرجولة والهمة تقضي بألا يمد الإنسان يده سائلاً الناس، ومستجدياً الآخرين إلاّ إذا تأكد من أنه لا يملك في بيته ما يسد رمقه، فإن المروءة تقضي بألا يتنكر المرء لأهله وعشيرته، لشدة ألمت بهم، أو مصيبة نزلت بساحتهم، والعقل يقضي ألا يجري العاقل وراء معدن براق زائف وفي خزائنه الذهب الخالص، ولكن علاه الغبار وغطته الأتربة.

وإذا كان الأمر كذلك فإنه من سقوط الهمة، ومن ضعف المروءة، ومن نقصان العقل أن نسارع إلى الأخذ من الثقافات، شرقيها وغربيها، قبل أن ندرس ثقافتنا الإسلامية، ونتعرف عليها ونجتهد في فحصها وإمتحانها.

فهذه الأسباب الثلاثة مجتمعة - وغيرها كثير - ترتبط بالفطرة والبديهة، وتتصل بالعقل السليم، وكلها تستلزم أن تكون لنا ثقافة مميزة لشخصيتنا، وجامعة لشملنا، ومرتبطة بتراثنا وحضارتنا، وهي الثقافة العربية الإسلامية.

ونحن إذ نجمع بين الصفتين فنقول إنها عربية وإسلامية، نود أن نلفت النظر إلى تطرف بعض المسلمين في نظرتهم إلى هذا الموضوع، وهم في ذلك بين طرفي نقيض.

البعض منهم يذهب إلى أن العرب امتازوا بعبقرية خلاَّقة، وأن جنسهم أرقى الأجناس، وأن لهم رسالة خالدة كانت ستؤدي حتماً إلى حضارة إنسانية شاملة، وأن الإسلام إنما هو نتاج طبيعي لهذه العبقرية العربية.

وهم بهذا يتغافلون عن الرسالة الإلهيّة التي أُنزلت على سيد الخلق، رسولنا، محمد ﷺ، وهي التي أخرجت العرب والناس من الظلمات إلى النور، ومن الشرك إلى التوحيد.

وأما الطرف المناقض لهذا الرأي؛ فهم أولئك الذين يذهبون - رغبة منهم في بيان فضل الإسلام - إلى أن العرب كانوا قبل الإسلام قبائل متفرقة، يعيشون حياة أقرب إلى البهائم، أخلاقهم أحط الأخلاق: يقتل بعضهم بعضاً، يزنون ويشربون الخمر، يعيشون في جهل وجهالة، ولا يعرفون شيئاً عن العلوم والحضارات الإنسانية، حتى جاء الإسلام فجعل منهم العلماء المتحضرين أصحاب أعظم رسالة أنزلها الله سبحانه على البشر.

وهنا نقول أن الله سبحانه أنزل كتابه على خير خلقه محمد ﷺ، وأنه اختاره من خير الأمم وخير القبائل، كما أختار من اللغات لغات العرب فأنزل وحيه بها.

وقد عرض شيخ الإسلام ابن تيمية لهذا الموضوع في أكثر من موضع، وذكر أن سنة الله في الرسل، أن يختارهم ويصطفيهم من الناس، كما في قوله تعالى: **﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾** (الحج: ٧٥) وقوله: **﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾** (الأنعام: ١٢٤).

وفي الحديث الذي رواه مسلم وأحمد والترمذي عن واثلة بن الأصقع عن النبي ﷺ قال: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل: واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**».

وفي رواية لأحمد والترمذي: «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة**» - **الحديث**. قال الترمذي. هذا حديث صحيح.

وروى الترمذي وأحمد عن المطَّلب بن أبي وداعة قال: قال العباس رضي الله عنه: «بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس. قال: فصعد المنبر فقال: من أنا؟ قالوا: أنت رسول الله. فقال: أنا محمد بن عبدالله بن عبد المطلب. إن الله خلق الخلق فجعلني من خير خلقه، وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً».

يقول ابن تيمية: «الذي عليه أهل السنة والجماعة: إعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم: عبرانيهم وسريانيهم، رومهم وفرسهم وغيرهم، وأن قريشاً أفضل العرب، وأن بني هاشم أفضل قريش، وأن رسول الله ﷺ أفضل بني هاشم، فهو أفضل الخلق نفساً وأفضلهم نسباً».

وليس فضل العرب، ثم قريش، ثم بني هاشم، بمجرد كون النبي ﷺ منهم، وإن كان هذا من الفضل، بل هم في أنفسهم أفضل».

ويتكلم ابن تيمية عن سبب فضل العرب فيقول: «وسبب هذا الفضل ـ والله أعلم ـ ما اختصوا به في عقولهم وألسنتهم، وأخلاقهم وأعمالهم».

وذلك أن الفضل: «إما بالعلم النافع ، وإما بالعمل الصالح. والعلم له مبدأ، وهو قوة العقل، الذي هو الحفظ والفهم، وتمام: وهو قوة المنطق الذي هو البيان والعبارة. والعرب هم أفهم من غيرهم وأحفظ، وأقدر على البيان والعبارة، ولسانهم أتم الألسنة بياناً وتمييزاً للمعاني، جمعاً وفرقاً».

وبعد أن يشرح ابن تيمية هذه النقطة يقول: «وأما العمل: فإن مبناه على الأخلاق. وهي الغرائز المخلوقة في النفس، وغرائزهم أطوع للخير من غيرهم، فهم أقرب للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة، لكن كانوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير معطَّلة عن فعله، ليس عندهم علم منزل من السماء، ولا شريعة موروثة عن نبي، ولا هم أيضاً مشتغلون ببعض العلوم العقلية المحضة كالطب والحساب ونحوهما. إنما علمهم ما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب، وما حفظوه من أنسابهم وأيامهم،

وما احتاجوا إليه في دنياهم من الأنواء والنجوم، أو من الحروب».

ثم يـذكـر ابن تيميـة أنـه لما بعث الله محمـداً ﷺ بـالهدىٰ ودين الحق، عارضه العرب في بادىء الأمـر وتمسكوا بعـاداتهم الجاهليـة وما كـانوا عليـه من شرك، حتى تبين لهم الحق، واستنارت قلوبهم بهـدي الله «فأخـذوا هذا الهـدي العظيم بتلك الفطرة الجيدة، فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة، والكمال الذي أنـزله الله إليهم»، ويشبِّـه ابن تيمية ذلـك بالأرض الخصبـة الجيدة التي أهملت حتى نبتت فيها الأشواك وعاشت فيها الـوحوش والبهـائم، فلما طهرت وحـرثت وزرعت جاء حصادها عظيماً لا مثيل له.

فـإذا كان العـرب هم أفضل البشر، وكـانت اللغة العـربيـة هي أفضـل اللغـات. كانت محبـة العرب ومحبـة لغتهم التي نزل بهـا كتـاب الله من الأمـور الـواجبة عـلى كـل مسلم، وهي عـلى العـرب أوجب. لا عن طـريق العصبيـة والتفـاخر والتبـاهي بالأنسـاب، بل بحكم الفـطرة والأخلاق الفـاضلة، ، وكل ذلك يوجبه الولاء والوفاء للوطن والأهل والعشيرة. ويتصل بما يجب على المسلم من صلة الرحم وبر ذوي القربى وحسن الجوار.

وقد كان النبي ﷺ شديد البر بأهله وذوي قرباه. محباً لوطنه. وكان يقول لمكة: ما أطيبك من بلد. ولم يفارقها إلا مضطراً، وكان شديد الحنين إليها.

ومع ذلك كله فـإن حب العرب لا يجـوز أن يؤدي إلى عصبية مقيتـة. أو محـاباة للعـرب، أو استعلاءعلـى غـير العـرب وظلم لهم. لأن حب العـرب لا يتعـارض مع القـاعدة العـامة التي تجعـل المؤمنين أخـوة لا فضل لأحـدهم على الآخر إلا بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ (الحجرات: ١٣).

وخـطب النبي ﷺ بمنى فقال: «يـا أيها النـاس، ألا إن ربكم عـز وجـل واحـد، ألا وإن أباكم واحـد، ألا لا فضل لعـربي عـلى عجمي، ألا لا فضـل لأسود على أحمر إلا بالتقوى».

ومع أن جنس العرب في الجملة أفضل من غيرهم إلا أن الأفـراد من غير العـرب قد يفضلون العـرب بتقـواهم ودينهم، كـما أن آل النبي ﷺ أفضـل في جملتهم من غيرهم، إلا أنه من كان أتقى لله منهم فهو يفضلهم. ولذلك يـذكر ابن تيميـة أن عمر بن الخـطاب رضي الله عنه لما وضـع ديـوان العـطاء «كتب الناس على قدر أنسابهم، فبدأ بأقـربهم نسباً إلى رسـول الله ﷺ ، فلما انقضت العرب ذكر العجم».

على أن العروبـة لم تعد مقصـورة على أهـل جزيـرة العرب، بـل كل من تكلّم العربية وتشبَّه بالعرب فهو عربي، وفي ذلك يقـول ابن تيمية: «ومن تشبَّـه من العجم بالعرب لحق بهم، ولهذا كان الـذين تناولـوا العلم والإيمان من أبنـاء فارس إنما حصل لهم ذلك بمتابعتهم للدين الحنيف بلوازمه من العربية وغـيرها، ومن نقص من العرب إنما نقص بتخليهم عن هذا».

ويذكر ابن تيمية أن كون الرجل من الـطائفة الفـاضلة لا يجوز أن يكـون سبباً في تفاخره وبغيه على الآخرين «لأن فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص كما قدمنا ، فرب حبشي أفضل عند الله من جمهور قريش » . ثم يقول : « وما ذكرنا من حكم اللسان العربي وأخلاق العرب يثبت لمن كان كذلـك، وإن كان أصله فارسياً، وينتفي عمن لم يكن كذلك وإن كان أصله هاشمياً».

والنتيجـة التي نريـد أن نخلص إليهـا هي أن كـل مسلم ينبغي عليـه أن يكـون محباً للعـرب والعروبـة، متمسكاً بـأخـلاق العـرب وصفـاتهم الحميـدة، حريصاً على تعلم لغة العـرب، حتى يفهم كتاب الله وسنـة نبيه ﷺ ،ثم يفهم علوم الإسلام التي كتبت بالعربية، ودوَّنها المسلمون بلغة العرب خلال القـرون الماضية. وإذا كان فهم القرآن وتدبره من الأمور الواجبـة على كـل مسلم، وإن كـانت وسيلة ذلك هي معـرفة العـربيـة ، فـإن تعلم لغـة العـرب وعلومهم من أوجب الأمور، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وعلى ذلك فإن الثقافة الإسلامية هي كذلك ثقافـة عربيـة، ولكنها عـربية بحسب المعنى الـذي فصّلنا شرحـه فيما سبق، لا بمعنى أنها ثقـافة عـربية متصلة

بـدعوة إقليمية قـائمـة عـلى العصبيـة والعـرق، ومنفصلة عن الـدين والـتراث الإسلامي.

ويتحـدث بعض الناس عن ضرورة «الانفتـاح» عـلى الثقـافـة العـالميـة، ويـذكرون أن الحضـارة العربيـة الإسلاميـة بدأت منـذ الصدر الأول لـلإسـلام بسياسة قـائمة عـلى «الانفتاح» عـلى الحضارات العـالمية المختلفـة، سواء كـانت الحضارة الفارسية أو الحضارة الـرومانيـة اليونـانية، وعن هـذا الطريق أضـافت الكثـير إلى الفكـر الإسـلامي العـربي، وأفـادت المسلمـين بـألـوان من العلوم والمعارف.

ونود أن نفرّق بين «الانفتاح» بمعنى الأخـذ من الحضارات من غـير تمييز، وبـين إقتباس مـا هو نـافع ومفيـد، وعلى الـرغم من أن «إنفتاح» المسلمـين على الثقـافـات العـالميـة قـد أفـادهم في جـوانب من العلم والمعـرفـة، إلا أن ذلـك «الانفتاح» أضرّ بهم عندما أقبلوا في العصر العباسي على علوم الجدل والكـلام، وأخذوا بمناهج الصوفية المنحرفة الشاذة، ثم ترجموا الفسلفات المنحرفـة بما فيهـا من آراء ضالة، ومذاهب متأثرة بآراء الصابئة والمشركين. وقد أدى كل ذلك إلى تفرّق المسلمين ووقوعهم في الشبهات والأهواء.

ونحن إذا بدأنا بتعلم ديننـا ومعرفـة شريعتنا، أصبـح لدينـا النور الـذي نكشف به أنواع الثقافة التي تعرض لنا، فنأخذ منها ما ينفع وندع منها ما يضر، وهذا إنما يتحقق عن طريق الثقافة الإسلامية، وهي التي ندعـو إليها ونـرى أنها الـوسيلة الوحيـدة لمواجهـة الثقافـات المتعددة التي تحـاول أن تصرفنـا عن ديننـا وتبعدنا عن تراثنا وشخصيتنا العربية الإسلامية.

وبعد، فإن هذا «المدخل إلى الثقافة الإسلاميـة» يبدأ بـالمقدمـة التي نحن بصددها الآن، وفيها تعريف بالمادة ومباحثها وبيان لأهدافها وأهميتها.

ثم تنقسم المـادة إلى قسمين رئيسيـين: القسم الأول بعنـوان: « **الإسلام والعلم**» وينقسم بدوره إلى أبواب ثلاثة، الباب الأول ندرس فيه الغزو الفكري الغربي للعالم الإسلامي، ثم ندرس في البـاب الثاني بعض الجوانب التي أعاقت

المسلمين عن الإقبال على العلم، وأما الباب الثالث فسوف ندرس فيه بعض الجوانب الإيجابية التي تتصل بالعلاقة بين الإسلام والعلم.

أما القسم الثاني فعنوانه **«مبادىء الإسلام العامة»** ويتفرع إلى بابين الأول بعنوان: الإسلام: البناء وأساس البناء، وينقسم إلى فصلين: الأول عنوانه بناء الإسلام، وفيه نتكلم عن الإسلام كبناء متكامل مترابط له أسس وأركان والفصل الثاني بعنوان: العقيدة أساس البناء وفيه نبين مكان العقيدة من هذا البناء وكيف أنها الأساس القوي الذي لا يمكن للبناء أن يقوم دونه.

وأما الباب الثاني من هذا القسم الثاني فيعرض لموضوع: خصائص الإسلام، وينقسم إلى ستة فصول، نعرض فيها لبيان أهم خصائص الإسلام، مثل شموله، وكونه يوافق العقل، وأنه دين يسر وبساطة، إلى غير ذلك.

القسم الأول

الإسلام والعلم

الباب الأول: الغزو الفكري الغربي للعالم الإسلامي.

الباب الثاني : معوِّقات دون العلم .

الباب الثالث: جوانب إيجابية .

الإسـلام والعلم

في هذا القسم الأول من كتابنا نعرض لموضوع الإسلام والعلم، وذلك أننا في المقدمة بيّنا مدى أهمية الثقافة ـ والثقافة الإسلامية بوجه خاص ـ لكل شاب مسلم، أما في هذا القسم فإننا نريد أن نثبت هذا الذي قدمنا له ، ونبين مدى الحاجة الملحة إلى هذه الثقافة.

وخير ما نبدأ به: دراسة واقعنا الثقافي الحالي، ومنه نتبين مدى التبدل والتغيير الذي أصاب أفهامنا، وقيمنا الثقافية والإجتماعية والأخلاقية، بفعل الغزو الفكري والحضاري الغربي، الذي تعرض له العالم الإسلامي بشدة في القرن الأخير،والذي بدأ التمهيد له قبل قرنين أو أكثر. ولذلك فسوف ندرس في الباب الأول من هذا القسم هذا الغزو والوسائل التي اعتمد عليها حتى حقق أغراضه.

أما الباب الثاني فيتناول بعض الجوانب السلبية الأخرى التي كانت من المعوقات دون إقبال المسلمين على الثقافة والعلم، وينقسم إلى ثلاثة فصول: الأول منها نعرض فيه لاختلاف المسلمين قديماً في فهم الدين والعمل به، وفي الفصل الثاني ندرس ما يقع فيه المسلمون قديماً وحديثاً من القول في الدين بغير علم، ثم نعرض في الفصل الثالث لخطأ بعض الناس في فهم معنى «الأمية» الذي وصف به رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، ونبين أنها لا تعني مطلقاً الجهل وعدم العلم. وأخيراً في الفصل الرابع نتكلم عن «التقليد» الذي يقع فيه كثير من المسلمين ويؤدي بهم إلى التعصب للأهواء والفرق أو للمذاهب.

وأما الباب الثالث فنتناول فيه جوانب إيجابية ترتبط بموضوع الإسلام والعلم، فنتكلم في الفصل الأول منه عن فضل العلم ووجوبه، وفي الفصل

الثاني عن العلاقة بين العلوم التجريبية والعصرية وعلوم الدين، وذلك في معرض تحديد المعنى الحقيقي للعلم في الإسلام، ثم نبحث في الفصل الثالث العلاقة بين العلم والعمل، وفي الفصل الرابع العلاقة بين العلم والجهاد، وأخيراً نتحدث في الفصل الخامس والأخير عن العلم ومستقبل الأمة الإسلامية.

القسم الأول

الباب الأول

الغزو الفكري الغربي للعالم الإسلامي

الفصل الأول: التنصير .

الفصل الثاني: إشاعة فكرة القومية .

الفصل الثالث: محاربة اللغة العربية .

الفصل الرابع: تغيير نظم التعليم .

الفصل الخامس: إستخدام وسائل الإعلام .

الفصل السادس: الحرب العلمية والفكرية .

الفصل السابع: إفساد الأخلاق وتغيير الحياة الاجتماعية .

الفصل الثامن: تبديل القوانين والتشريعات .

الغزو الفكري الغربي للعالم الإسلامي

على الرغم من أن الاستعمار العسكري والسياسي الغربي للعالم الإسلامي قد انتهى وانحسر عن أكثر يلدان العالم الإسلامي، فإن الغزو الفكري والثقافي الذي بدأ مع بداية الاستعمار العسكري والسياسي - بل وقبل بدايته - قد استمر يعمل عمله في تبديل مبادئنا، وتغيير قيمنا الثقافية والفكرية والاجتماعية والأخلاقية، حتى أن الناظر للمجتمعات الإسلامية اليوم، ليجدها مختلفة كل الاختلاف عن المجتمعات الإسلامية قبل قرنين من الزمان، وقد أصبحت أشبه ما تكون بالمجتمعات الغربية.

ونحن نقصد بالغرب هنا الحضارة الصليبية المعادية للإسلام - سواء كانت حضارة رأسمالية أو شيوعية - وقد تعاونت مع أكثر اليهود الحاقدين على الإسلام، والذين انتظمتهم في القرون الأخيرة الحركة الصهيونية، التي حاربت المسلمين والخلافة الإسلامية حرباً عوانا لا هوادة فيها.

وقد سيطر المسلمون على أكثر بلدان العالم المتحضر بعد أقل من قرن واحد من بداية بعثة النبي ﷺ، واستمروا في التوسع غرباً وشرقاً، حتى فتحوا الأندلس، وتوغلوا بعد ذلك في مناطق عديدة من أوربا، حتى كادت أوروبا كلها أن تخضع لهم، وتستسلم لجيوشهم.

على أن ما أصاب المسلمين من فرقة وضعف وانحلال، مكّن الدول الصليبية من الصمود لهم، بل ومن استرداد أسبانيا أولاً، ثم مناطق أخرى من أوروبا.

وقد أدرك الغربيون أن تمسك المسلمين بدينهم ـ وما ينتج عن ذلك من ترابطهم ووحدتهم، ومن اندفاعهم إلى «الجهاد في سبيل الله» كلما تعرضوا للخطر أو أرادوا رد من يحارب دعوتهم، أو يقف حائلاً دون نشر عقيدتهم ـ هو السر الحقيقي لقوتهم، ولذلك أقبلوا جاهدين على دراسة هذا الدين، ومحاولة التعرف على علومه ولغته وآدابه، حتى يمكنهم إدراك الثغرات التي يستطيعون منها مهاجمته والقضاء عليه، وارتبط هذا إرتباطاً وثيقاً بالتدابير السياسية والعسكرية التي بدأت بالحروب الصليبية في القرون الوسطى، وانتهت باحتلال أكثر بلدان العالم الإسلامي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

ونحن نجد هذا الارتباط الوثيق بين الغزو السياسي والعسكري من جانب، والغزو الفكري الثقافي الحضاري من جانب آخر، في أقوال قادة الغربيين وأعمالهم. قال جلادستون رئيس وزراء بريطانيا (في عهد الملكة فيكتوريا) أنه لن يقر للغرب قرار ما لم يقض على هذا الكتاب (يعني كتاب الله). وقال القائد البريطاني اللنبي بعد احتلال بريطانيا لفلسطين «الآن انتهت الحروب الصليبية». وقال كرومر ـ المندوب السامي البريطاني في مصر أيام الاحتلال ـ إن انجلترا لا تريد أن تحتل مصر إحتلالاً دائماً وإنما تريد أن تترك مصر وقد خلفت من ورائها حكومة صديقة لمبادىء الحضارة المسيحية.

وقد تعاونت الصهيونية مع الصليبية تعاوناً وثيقاً لتحقيق أهدافها المشتركة. أراد اليهود أن يحصلوا على وطن قومي لهم في فلسطين، ولكن السلطان عبد الحميد الخليفة العثماني رفض أموالهم، فدفعوا لبريطانيا أربعة ملايين جنيه ذهباً حتى تتمكن من شراء نصيب مصر في أسهم قناة السويس مقابل الحصول على وعد منها بالسماح لهم بإنشاء هذا الوطن في المستقبل. وكان الذي دفع المال روتشيلد الثري اليهودي، والذي سلمه إلى الخديوي إسماعيل هو دزرائيلي رئيس وزراء بريطانيا اليهودي، وقد كان أول مندوب سام لبريطانيا، وأول نائب عام لها في فلسطين يهوديين، وقد مكنت بريطانيا اليهود من الهجرة إلى فلسطين، وسمحت لهم بتأسيس مستعمراتهم ومعابدهم ومدارسهم،

وتدريب جنودهم حتى إذا نضجت الثمرة تركوها خالصة لهم[1].

ثم عمل اليهود على القضاء على الخلافة العثمانية قضاء كاملاً، ويقول في ذلك خليفة التونسي «وموقف تركيا منذ انقلاب «أتاتورك» تجاه العرب واليهود لا يفسره إلاّ نفوذ اليهود في تركيا، فلو بقيت الخلافة العثمانية - رغم ضعفها - قائمة، لما أمكن قيام وطن يهودي في فلسطين، فنكب اليهود تركيا لذلك بتسليط بريطانيا عليها أثناء الحرب العالمية الأولى، وكادت بريطانيا تعقد الصلح مع تركيا أثناءها، ولكن اليهود عطلوه بزعامة وايزمان رئيس إسرائيل - كما ذكر هو في مذكراته - وبمساعدة بعض النساء، فهم الذين حالوا دون الصلح بينهما، كما كان لهم نصيب كبير في إلغاء الخلافة، وكان أحد الثلاثة الذين سلموا الخليفة قرار العزل يهودياً. وكان لنفوذهم أكبر الأثر في طرح تركيا دينها الإسلامي، وقوانينها الإسلامية، ومحاربة اللغة العربية، والتبرؤ من صلاتها بالعرب، لأن اليهود ولا سيما «الدوتمة» في سلانيك وغيرها - وهم يهود يتظاهرون بالإسلام - هم الداعون إلى الجامعة الطورانية للتخلص من الإسلام واللغة العربية، وصلة الترك بالعرب، وكان لذلك أثره في أن اصطبغ بهذه الألوان حكم مصطفى كمال الملقب **أتاتورك**، وقد كان فيه عرق من «الدونمة»[2].

وقد لجأ الغرب في هذا الغزو الفكري الحضاري للعالم الإسلامي إلى وسائل عدة يمكن أن نحدد أهمها فيما يلي: -

أولاً: التنصير.
ثانياً: إشاعة فكرة القومية.
ثالثاً: محاربة اللغة العربية.
رابعاً: تغيير نظم التعليم.

---

(١) أنظر كتاب حياة دزرائيلي لوروا ترجمة حسن محمود، ص ٢١٣، كتاب الخطر اليهودي ترجمة خليفة التونسي، ط - الرابعة، ص ٦٩، دار الكتاب العربي. بيروت، ١٩٦١م.
(٢) خليفة التونسي، المرجع السابق، ص ٧٣.

خامساً: استخدام وسائل الإعلام من صحافة وغيرها .
سادساً: الحرب العلمية والفكرية عن طريق المستشرقين وغيرهم.
سابعاً: إفساد الأخلاق وتغيير الحياة الاجتماعية.
ثامناً: تبديل القوانين والتشريعات.
وسنعرض لهذه الوسائل واحداً واحداً في الفصول التالية.

الفصل الأول
التنصير

يقول مؤلفا كتاب «التبشير والاستعمار في البلاد العربية»[1]: لا ريب أن الباعث الحقيقي والأول في رأي القائمين على التبشير إنما هو القضاء على الأديان غير النصرانية توصلا إلى استعباد أتباعها. إن المعركة بين المبشرين وبين الأديان غير النصرانية ليست معركة دين، بل هي معركة في سبيل السيطرة السياسية والاقتصادية حتى إن البروتستانت مثلاً لا يكتفون بأن يظل المسيحي أرثوذكسياً، بل يجب أن يصبح مسيحياً بروتستانتياً».

ومن ذلك نرى أن الغرب استعمل التنصير (أو التبشير) كأداة تمكنه من إخضاع الدول الإسلامية لنفوذه حتى يسهل عليه أمر استغلالها وامتصاص خيراتها وتسخير رجالها لخدمته حتى يزداد بذلك ثروة وقوة. وقد قدم الغرب للمبشرين كل عون مادي ومعنوي حتى يمكنهم من القيام بعملهم، على الرغم من أن أكثر رجال السياسة والحكم في الغرب لا يهتمون بالدين ، وقد لا يؤمنون به مطلقاً، ولكن عدم اهتمامهم بالمسيحية أو عدم إيمانهم بها لا يمنع من عصبيتهم وحقدهم على الإسلام وأهله ، وذلك أمر شبّوا عليه منذ الصغر . واستقر في أعماق نفوسهم .

---

(١) وهما الدكتور عمر فروخ والدكتور مصطفى الخالدي، والنص التالي، ص ٤٥، ط. ع، بيروت، ١٣٩٠/١٩٧٠، وانظر أيضاً ص ٣٤ ـ ٣٨ من الكتاب.

وقد بدأ التنصير عمله بأسلوب صريح مكشوف يقوم على الدعوة المباشرة لنبذ الإسلام واعتناق المسيحية، وكان المنصِّرون يتلقون مناهج ودراسات خاصة تعدّهم للعمل الذي سوف يقومون بـه، وتتضمن تلك المناهـج دراسة لأحـوال البـلاد التي سوف يبتعثـون إليها، ومعـرفة مشـوهة بـالإسلام والمسلمـين، وقـد يتلقون تدريباً عسكرياً للتبشير بالقوة أحياناً[٢].

ولقـد استخدم المنصِّرون جميـع الطرق والـوسائـل التي تبلغهم أهدافهم، مثـل الوعظ، وتـأليف الكتب، والتعليم والتمريض، والعـلاج الطبي، وأعـمال البر والخدمات الاجتماعية[٣]. وكانوا يلجأون في بادئ أمرهم إلى أساليب مباشرة نفَّرت المسلمين منهم، «وكانت قلة الذوق بالمبشرين تبلغ إلى حد أن أحـدهم لم يكن ليتأخر عن عرض بضاعتـه في التبشير بـين أهل الميت، والميت لا يـزال بين أهله»[٤].

وتقول المبشِّرة آنا ميلليجان أن نفراً من الأطباء المبشرين أنشأوا مستـوصفاً في بلدة الناصر في السودان، وكانوا لا يعالجون المـريض أبداً إلّا بعـد أن يحملوه على الاعتراف بأن الـذي يشفيه هو المسيح، وفي الحبشة كانوا لا يعالجون المرضى قبل أن يركعوا، ويسألوا المسيح أن يشفيهم[٥].

وقد أدى هذا الأسلوب المبـاشر إلى رد فعل عنـد الشباب المسلم المثقف، فكان ذلك سبباً لتغيير خطة المبشرين، والالتجاء إلى أسلوب آخـر غير مبـاشر، بحيث يتجنبون فيه إغضاب المسلمين واستثارة مشاعرهم، بل يحاولون تقـريبهم من القيم الحضارية والأخلاقية المسيحية، بكافة الطرق والوسائل.

وكـان المبشرون يعقـدون مؤتمـرات دوريـة لمـراجعـة أعـمالهم، ودراسـة خططهم، وقد اجتمعوا في مؤتمر بالقاهرة سنة ١٩٠٦، ولخص لنا كتاب «الغارة

---

(٢) التبشير والاستعمار، ص ٤٧.
(٣) المرجع السابق، ص ٤٨ ـ ٤٩.
(٤) المرجع السابق، ص ٤٩.
(٥) نفس المرجع، ص ٦٢.

على العالم الإسلامي» أهم ما جاء في هذا المؤتمر، وننقل هنا بعض ما جاء فيه، مما يبين تطور أساليبهم وتجددها بحسب ما يلقونه من استجابة عند المسلمين:
«إن الخطة العدائية التي انتهجها الشبان المسلمون المتعلمون اضطرت المبشرين في القطر المصري إلى محاولة إعادة ثقة الشبان المسلمين بهم، فصار هؤلاء المبشرون يلقون محاضرات في موضوعات اجتماعية وخلقية وتاريخية، لا يستبطردون فيها إلى مباحث الدين، رغبة في جلب قلوب المسلمين إليهم. وأنشأوا بعد ذلك في القاهرة مجلة أسبوعية اسمها (الشرق والغرب) افتتحوا فيها باباً غير ديني يبحثون فيه بالشؤون الاجتماعية والتاريخية، وأسسوا أيضاً مكتبة لبيع الكتب بأثمان قليلة، والغرض من ذلك استجلاب الزبائن ومحادثتهم في أثناء البيع.

وقد مضى على ذلك ثلاث سنوات تسنى فيها للمبشرين أن يتوصلوا إلى النتائج الآتية:

الأولى ـ أنهم عرفوا أحوال البلاد، وأفكار المسلمين وشعورهم، وعواطفهم وميولهم.

الثانية ـ أنهم حصلوا على ثقة عدد من المسلمين بهم.

الثالثة ـ أن المبشرين تحققوا أنهم بتظاهرهم في وداد المسلمين وميلهم إلى ما تطمح إليه نفوسهم من الاستقلال السياسي والاجتماعي والنشأة القومية، يمكنهم أن يدخلوا إلى قلوبهم؟

وبناء على هذا ساعد المبشّرون الشبان المسلمين في تأسيس جمعية، الغرض منها إيجاد صلة وتقرب بين الطبقة المتعلمة والطبقات المتعددة التي تتألف الأمة منها وإنماء روح الاتفاق.

هذه هي الطريقة التي استحسنها المبشّرون بعد أن علموا أن الأمور التي يتذرعون بها وتكون صبغتها دينية لا ريب أن عاقبتها الفشل، ولكن المبشّرين الذين هم على شيء من الجرأة يقولون إنهم سمعوا بعض المسلمين يشكون من الزواج في الإسلام وتعدد الزوجات وتربية المرأة وعدم وجود التسامح الديني.

وكل ما خاض فيه المؤتمر من هذه المباحث يختص بالمجهودات التي يبذلها المبشرون لتبشير الشبيبة الإسلامية التي تعلّمت على الطريقة الأوروبية، وفي مدارس الحكومة، وما يلقونه من الصعوبات والفشل في تنصيرها. أما الذين تعلّموا على الطريقة الشرقية في الأزهر وما يماثله، فلم يتكلّم أعضاء المؤتمر عنهم إلّا بعض اقتراحات ونظريات[٦]».

وقد نجح المبشّرون بعد تغيير خططهم، في إبعاد المسلمين عن التمسك بدينهم؛ وفي تقريبهم من الحضارة الغربية المسيحية، وذلك رغماً عن إخفاقهم في دفعهم إلى اعتناق المسيحية، وبعبارة موجزة يمكن القول بأنهم عمدوا إلى إخراج المسلمين من الإسلام بدلاً من إدخالهم في المسيحية. وفي ذلك يقول المستر بنروز الذي كان رئيساً للجامعة الأميركية في بيروت: «إن المبشّرين يمكن أن يكونوا قد خابوا في هدفهم المباشر، وهو تنصير المسلمين جماعات جماعات، إلّا أنهم قد أحدثوا بينهم آثار نهضة[٧]». ولقد كان التعليم من أهم الوسائل غير المباشرة التي ساعدت على تحقيق هذه «النهضة» ولذلك فإنه يتابع كلامه قائلاً: «ولقد برهن التعليم على أنه أثمن الوسائل التي استطاع المبشرون أن يلجأوا إليها في سعيهم لتنصير سورية ولبنان[٨]».

وعلى الرغم من أن التنصير في صورته الجديدة تجنب الوسائل المكشوفة المباشرة، إلّا أنه لم ينس مطلقاً هدفه الأساسي[٩]، ولذلك فإن العلاج الطبي والتمريض استخدم ببراعة في هذا السبيل. وقد أفرد مؤلفا كتاب «التبشير والاستعمار» الفصل الثاني من كتابهما للكلام عن التطبيب كحيلة للتبشير[١٠]. وهما يذكران أن الأمريكيين هم أول من استخدم هذه الوسيلة وأنهم اعتبروا

(٦) الغارة على العالم الإسلامي تأليف شاتليه، ترجمة مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب، ص ٥٤ - ٥٧، الطبعة الثانية، الدار السعودية للنشر جده، ١٣٨٧.
(٧) التبشير والاستعمار، ص ٤٥ - ٤٦.
(٨) نفس المرجع، ص ٤٦.
(٩) أنظر كتاب «المستشرقون والمبشّرون في العالم العربي والإسلامي» تأليف إبراهيم خليل أحمد، مكتبة الوعي العربي، القاهرة، ١٩٦٤ خاصة ص ٥٢ وما يليها.
(١٠) ص ٥٨ - ٦٤.

الطب «مشروعاً مسيحياً» وقال واحد منهم هو الطبيب بول هاريسون في كتابه «الطبيب في بلاد العرب» «لقد وجدنا نحن في بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى[١١]».

ويذكر الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية»[١٢] أن الافغانيين الذين خلعوا ملكهم أمان الله خان لأنه سمح لزوجته أن تخرج سافرة، قبلوا بعد ذلك بثلاثين عاماً أن يلغوا الحجاب، وتم ذلك عن طريق نظام القابلات ودور الولادة الطبية، وذلك عندما جاءت الطبيبة آنا ماريا جادا من الدانمرك وأخذت تعلّم النساء القبالة (التوليد) وكانت تشترك معها سيدات الأسرة المالكة، وأقيمت مراكز التوليد والصحة، وعن ذلك الطريق تم التأثير على نساء الأفغان المحجبات حتى خلعن الحجاب، وأقبلن على العمل والتعليم المختلط.

وحتى الكشوف والرحلات العلمية كانت في كثير من الأحيان للتنصير، فدافيد ليفنجستون الرحالة البريطاني الشهير كان مبشّراً وعضواً في جمعية التبشير اللندنية، وقد كان من أهم أهداف رحلته التي اخترق فيها أواسط إفريقية اكتشاف الطرق التي يمكن أن يسلكها المبشرون من بعده أثناء عملهم في أفريقية الاستوائية[١٣].

ولا يعني قولنا إن التنصير لجأ إلى وسائل جديدة غير مباشرة أنه تخلّى تماماً عن الوسائل المباشرة، بل إنه ظل يأخذ بها ما أمكنه ذلك، ومن ذلك ما يلجأ إليه المبشّرون من تبني الأطفال اللقطاء أو الأيتام أو أبناء الأسر الفقيرة في كثير من البلاد الإسلامية، ويتبع ذلك عادة تنصير هؤلاء الأطفال، وتحولهم عن دينهم عندما يشبّون ويكبرون.

---

(١١) نفس المرجع، ص ٥٩.

(١٢) ص ٢٤ - ٢٥.

(١٣) التبشير والاستعمار، ص ٥١.

الفصل الثاني
إشاعة فكرة القومية

إن وحدة الأمة الإسلامية ووجود الخلافة التي يدين لها أكثر المسلمين بالولاء والطاعة، من الأمور التي جاهد الغرب طويلاً للقضاء عليها. وخوف الغرب من الوحدة الإسلامية ـ على الرغم من ضعف المسلمين في القرون الأخيرة ـ أشد من خوفه من أي خطر آخر.

يتساءل مؤلفا كتاب «التبشير والاستعمار» لماذا يفضل المبشرون أن تقوم دولة يهودية في فلسطين، ولماذا هم يخافون العرب ولا يخافون اليهود؟ وتأتي الإجابة على هذا التساؤل نقلاً عن المبشّر لورانس براون من كتابه The Prospects of Islam المطبوع بلندن سنة ١٩٤٤م، وفي هذه الإجابة يذكر براون أن المسلمين يختلفون عن اليهود لأن الإسلام دين دعوة، وهو ينتشر بين النصارى أنفسهم وبين غير النصارى، وقد كان للمسلمين كفاح طويل في أوروبة فأخضعوها في مناسبات كثيرة، والمسلمون لم يكونوا يوماً ما ـ مثل اليهود ـ أقلية موطوءة بالأقدام، ولا يمكن أن نجد مكاناً يمكن أن يصبح المسلمون فيه أقلية مثل هذه إلاّ فلسطين والهند[1]. ويقول براون: لقد كنا نخوّف بشعوب مختلفة بدون مبرّر، إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا ولم نجدهم خطراً علينا، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد، ثم رأينا خطأ التهديد بالخطر الشيوعي إذ

---

(١) ولعل هذا يفسر بوضوح سبب ما تعرض له مسلمو الهند في الباكستان حديثاً من محن وحملات خلال حربهم مع الهند، وهي الحرب التي انتهت بقيام دولة بنجلادش.

وجدنا البلاشفة حلفاء لنا، أما الخطر الأصفر (الذي يتمثل في الشعوب الصفر مثل اليابان)[٢] فإن هناك دولاً ديمقراطية كبيرة تتكفل بمقاومتها «ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع، وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي»[٣].

وحرص الاستعمار الغربي على تمزيق الوحدة الإسلامية هو الذي دفعه إلى تشجيع الحركات القومية في البلدان الإسلامية، وكان سعيه الحثيث في بادئ الأمر يهدف إلى تحطيم الخلافة العثمانية ثم اتجه بعد ذلك إلى إثارة القوميات المحلية المحدودة التي تقوم على أساس تنحية الدين جانباً أو على ما يسمى بالعلمانية.

وكان التمهيد لفكرة القومية في تركيا عن الطريق العلمي الثقافي، ويحدثنا ساطع الحصري في كتابه «محاضرات في نشوء الفكرة القومية» عن تطور الفكرة القومية عند الأتراك العثمانيين فيقول[٤]: «إن الفكرة القومية عند الأتراك العثمانيين بدأت أولاً كحركة لغوية أدبية ثم صارت تظهر في الأبحاث التاريخية، وبعد ذلك انتقلت إلى ميادين الحكم والسياسة. وإذا سمينا حركة القومية التركية بالاستتراك، جاز لنا أن نقول: إن تيارات القومية ـ عند الأتراك العثمانيين، بدأت باستتراك اللغة، ثم انتقلت إلى استتراك التاريخ، وانتهت في آخر الأمر إلى استتراك الدولة».

أما الاستتراك في اللغة والأدب فقد كان من أهم من دعا إليه الشاعر التركي ضياء كوك آلب الذي قال في قصيدة له «الذين يبغون اللغة العربية فليذهبوا إلى بلاد العرب، والذين يبغون اللغة الفارسية فليرحلوا إلى إيران، والذين يبغون اللغة الإفرنجية فليذهبوا إلى بلاد الفرنجة... فإن كل من لا

---

(٢) ثم الصين في هذه الأيام.
(٣) التبشير والاستعمار، ص ١٨٤.
(٤) ص ١٢٦.

يدرك هذه الحقيقة فهو جاهل: نحن أتراك، فينبغي أن تكون لنا لغة تركية»[٥].

واستمرت هذه الدعوة تقوى حتى أدت إلى إلغاء تدريس اللغتين العربية والفارسية في جميع المدارس الابتدائية والثانوية، ومع ذلك ظلت كثير من الكلمات العربية والفارسية مختلطة باللغة التركية، إلّا أنه بعد حكم مصطفى أتاتورك صارت الحركة تتجه إلى «التصفية المطلقة والتتريك التام» بحيث تستبعد كل كلمة عربية أو فارسية وقد يستعاض عنها أحياناً بكلمات أوروبية[٦]، ثم قوّى هذا الاتجاه عندما ألغى أتاتورك الكتابة بالحروف العربية وأبدلها بالحروف اللاتينية ومنع الأذان بالعربية وجعله بالتركية[٧]. وقد امتدح أرنولد توينبي أتاتورك وذكر أنه نجح في قطع صلة تركيا بالتراث الإسلامي، بطريقة لم ينجح فيها أحد ممن سبقه من الحكام الذين أرادوا إبعاد شعوبهم عن الأفكار القديمة التي تعارض أفكارهم[٨].

وأما الاستتراك في التاريخ، فقد بدأ في أواخر القرن التاسع عشر، واعتمد فيه الباحثون الأتراك على مؤلفات المؤرخين الغربيين، التي تناولت تاريخ الأتراك قبل الإسلام. وقد بدأ هذا الاستتراك في التاريخ بدعوة إلى إعادة النظر في التاريخ المدوّن، وكان أصحاب هذه الدعوة يقولون - كما يذكر لنا ساطع الحصري -: «إن التاريخ العثماني - مثل تاريخ الإسلام - كتب بنظرات دينية، وهذه النظرات الدينية حالت دون تقدير الوقائع على وجهها الصحيح فمثلا إعتاد المؤرخون أن ينزلوا اللائمة على جنكيز خان وأن يلعنوه لأنه غزا بلاد الإسلام وحارب المسلمين، ولكننا إذا نظرنا إلى الوقائع التاريخية وحقائقها بنظرات مجردة عن التعصب الديني، اضطررنا إلى التسليم بأنه كان من عظماء التاريخ. وفضلاً عن ذلك فإنه خدم الأتراك لأنه استطاع أن يجمع معظم الشعوب التركية تحت راية

---

(٥) المرجع السابق، ص ١٣٠.
(٦) السابق، ص ١٣٠ - ١٣٢.
(٧) الندوى: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص ٦٩.
(٨) السابق، ص ٧١ - ٧٢. وانظر أيضاً التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبي، حـ ٥، ص ٥٥٦، القاهرة، ١٩٦٧.

واحـدة ، فيجب علينا أن نغـيرّ نظراتنـا إليه وأن نعـدل عن لعنـه ولا نتـردد في تعظيمه » .

وقد تبع ذلك تيار يقوم على تـوسيع مفهـوم الترك والأتـراك، بحيث يعتبر الأتراك والتتار والمغول كلهم أمة واحدة، بل أصبـح يعتبر السـومريـين والحيثيين أيضاً من الأتراك[٩]. وقد تبلورت هذه الدعوة فيما سمي بالجامعة الطورانية التي دعـا إليها ضيـاء كوك آلب ، ورأى ضـرورة ارتبـاط هـذه الجـامعـة بـالحضـارة الغـربية ارتبـاطاً تـاماً، وتمتـد «طـوران» لتشمـل منـاطق كثيرة مثـل تـركستـان وأذربيجان[١٠] .

وأما عن استتراك السياسة والدولة، فإنه عـلى الرغم من أن الأتـراك ظلوا إلى أواخر القرن التاسع عشر، بل وإلى بداية القرن العشرين، لا يعرفون سوى الـرابطة الإسـلامية والخـلافة العثمانية، إلاّ أنـه بعد سنـة ١٩٠٨ ـ عندمـا أعاد السلطان عبد الحميد دستور سنة ١٨٧٦ بعد تمرّد شبـاب جمعية الاتحـاد والترقي عليه، وهو ما عرف بمشروطية الحكم[١١] ـ بدأت الحركات القومية التي نادى بها رجـال تركيـا الفتـاة وجمعيـة الاتحـاد والـترقي تنتشر وتشيـع بـين ضبـاط الجيش الـتركي ، حتى تمكنوا من السيـطرة الكاملة عـلى الدولـة. خـاصـة بعـد سقـوط الخلافة العثمانية وإعلان الجمهورية.

ويقول ساطع الحصري[١٢] إن التفكير في الاتجاه القومي كان قد بـدأ قبل الانقلاب السياسي بين جماعة من شباب الأتراك الذين يدرسون العلوم السياسية في بـاريس، وقد شـاركهم في هـذا البحث والنقـاش جمـاعـة من أتـراك روسيـا القيصرية الذين كانوا يدرسون معهم.

---

(٩) محاضرات في نشوء الفكرة القومية، ص ١٣٧ ـ ١٣٩ .

(١٠) المرجع السابق، ص ١٥٢ ـ ١٥٦ ، الصراع بين الفكرة الإسلامية، ص ٤٧ ـ ٥٠ .

(١١) أنظر تفصيل ذلك في التاريخ الإسلامي لأحمد شلبي ص ٥٢٢ ـ ٥٢٤، د. زين نور الـدين زين: نشوء القومية العربية، ص ٧٥ ـ ٨٠، الطبعـة الثانيـة، بيروت، ١٩٧٢، وانـظر جلال كشك: القومية والغزو الفكري ص ٢٢٦ ـ ٢٤٥، مكتبة الأمل، الكويت، ١٣٨٦/١٩٦٧

(١٢) محاضرات في نشوء الفكرة القومية، ص ١٤٥ .

وقد أدّت الانقسامات التي حدثت في الخلافة العثمانية، وخروج كثير من الشعوب العربية على الخلافة، بل وثورة الألبان المسلمين عليها، إلى تأكيد الاتجاه القومي، وإلى نجاح الدعوة إلى اهتمام الأتراك بشئونهم الخاصة وعدم الالتفات إلى سائر الشعوب الإسلامية.

ويزعم ساطع الحصري ـ وهو من أشد الدعاة إلى القومية العربية تطرفاً ـ أن الأتراك أفادوا كثيراً من تأثير الفكرة في تنفيذ خطتهم الإصلاحية، ويدعي أنهم عندما نبذوا الحجاب وأخذوا بالسفور فقد حققوا بذلك نهضة كبيرة، وقد كانت حجتهم في ذلك ـ كما يقول ـ أن المرأة كانت ذات مكانة رفيعة في المجتمع التركي القديم، وأما الحجاب وما يتبعه من أسباب انحطاط النساء فقد جاء إليهم من العرب بعد الإسلام[١٣].

أما انتشار الفكرة القومية في البلاد العربية فإنه لم يبدأ إلاّ في وقت متأخر. وعلى الرغم من حدوث تصدّع في الخلافة العثمانية نتيجة خروج كثير من الولايات العربية عليها كما حدث في اليمن والسودان ونجد وليبيا ومصر، فإنه من الملاحظ أن معظم تلك الحركات الانفصالية أو الثورات لم تقم نتيجة دوافع قومية، بل غالباً لأسباب دينية، كما هو الحال في ثورة المهدي في السودان، وثورة آل حميد الدين في اليمن، وحركة الإمام محمد بن عبد الوهاب في نجد، وذلك أن ما أصاب الخلافة العثمانية من انحلال، وما طرأ عليها من مفاسد وبعد عن التمسك بالشريعة، كان من أسباب تلك الانتفاضات التي أراد أصحابها ـ وخاصة حركة الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ الرجوع إلى التوحيد الصحيح وإلى العمل بالكتاب والسنة.

وأما ثورة محمد علي باشا في مصر على الخلافة، فقد قامت على أطماع شخصية ولم تبن على فلسفة قومية. ومع ذلك فإن القوميين يرون أنها أفادت القومية العربية لأنها أوجدت ـ كما يقولون ـ دولة عصرية قائمة في بلاد عربية[١٤] ـ وهم يشيرون بذلك إلى تأثر محمد علي باشا بالغرب وإلى ابتعاثه

---

(١٣) المرجع السابق، ص ١٥٠ ـ ١٥١.

(١٤) أنظر المرجع السابق، ص ١٦٠.

البعثات العلمية إلى أوروبا، وإلى علاقاته الوثيقة بقناصل الغرب ورجال السياسة فيه.

وقد تطورت فكرة القومية بعد ذلك فلم تعد مجرد ثورة على الخلافة العثمانية أو محاولة لإصلاحها، بل أصبحت دعوة إلى إنشاء وحدة قومية بين العرب، وكان ذلك في نهاية النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكانت الدعوة فيها إلى القومية العربية في مقابل القومية التركية. وفي المرحلة الأولى من الدعوة إلى القومية العربية كانت تلك الدعوة ممزوجة باعتقاد ديني، ومرتبطة بغايات دينية. وذلك أن بعض العرب رأوا ما حل بالخلافة العثمانية من فساد وانحلال، فأخذوا يتحدثون عن شرعية تلك الخلافة، ويقولون إن من شروط الخلافة النسب القرشي وهو غير متوفر في سلاطين آل عثمان. وكان علماء العثمانيين يردون على ذلك بقولهم إن الخليفة العباسي الأخير تنازل عن الخلافة إلى السلطان سليم الأول العثماني، إلّا أن علماء العرب ردوا على ذلك بأنه حتى لو صحت هذه الرواية فإن ذلك التنازل يعد باطلاً لأنه تم تحت الإكراه.[١٥] ولذلك قال هؤلاء العلماء العرب أن الخلافة يجب أن تكون عربية وأنها من حق العرب. وقد كان من الكتب الهامة التي دعت إلى فكرة إنشاء خلافة عربية كتاب «أم القرى» الذي ألفه عبد الرحمن الكواكبي سنة ١٣١٦هـ.

وقد برزت الدعوة إلى القومية العربية ـ أو بعبارة أدق إلى خلافة عربية ـ في الحركة التي قام بها الشريف حسين أمير مكة. ويحدثنا الدكتور زين نور الدين زين في كتابه «نشوء القومية العربية»[١٦] عن الأدوار التي مرت بها تلك الدعوة بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) ويذكر أن الأمير عبدالله (الملك عبدالله بعد ذلك) الابن الثاني للشريف حسين قام باتصالات مع اللورد كتشنر، والسير رونالد ستورز في أثناء زيارة قام بها للقاهرة، طالب فيها بمساعدة بريطانيا للعرب ضد تركيا، ولم تتمكن بريطانيا من إجابة طلبه إلّا بعد قيام الحرب العالمية الأولى إذ أرسل كتشنر ـ وكان حينذاك وزير حربية بريطانيا ـ

---

(١٥) المرجع السابق، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(١٦) الطبعة الثانية، دار النهار، بيروت، ١٩٧٢.

برقيتين تعتبران - كما ذكر الدكتور زين - «بمثابة أول دعوة رسمية للعرب أن يثوروا ضد الأتراك. وقد وعدت بريطانيا في البرقية التالية بتقديم العون للعرب ضد أي اعتداء أجنبي خارجي عليهم[١٧].

ولقد كانت القسوة التي واجه بها جمال باشا قائد الجيوش التركية في سورية هذه الاتصالات وغيرها، وإقدامه على إعدام عدد من العرب بتهمة الخيانة، من أسباب تفاقم الثورة العربية وشدتها ضد تركيا.

وقد قام الجاسوس البريطاني لورانس بدور هام في حشد العرب وإمدادهم بالسلاح لمقاومة تركيا، واشترك بعض العرب في الحرب ضد الجيوش التركية، خصوصاً وقد وعدهم الحلفاء بتحقيق آمالهم في الاستقلال والحرية بعد نهاية الحرب، ولكن الحرب انتهت بهزيمة ألمانيا وتركيا ومع ذلك فإن الحلفاء لم يفوا بعهودهم للعرب، بل قسموا البلاد العربية فيما بينهم وفرضوا عليهم الاحتلال أو الوصاية والانتداب.

وهنا تأتي مرحلة جديدة في الدعوة إلى القومية، إذ أنه بعد نجاح الغرب في تقسيم المسلمين إلى عرب وأتراك، وفي إيقاع العداوة والفرقة بينهم، وجه الاستعمار الغربي العرب إلى فكرة القومية المحلية المحدودة أو إلى القومية العربية التي لا علاقة لها بالدين. وقد نجح الغربيون في دفع المسيحيين العرب إلى الدعوة إلى ذلك. ويرى ساطع الحصري أن آراء مسيحيي العرب كانت «بمثابة البذور الأولى لفكرة القومية العربية المتجردة من الاعتبارات الدينية»[١٨] ولكن يضيف إلى ذلك أنه على الرغم من أن الفكرة القومية نشأت عند المفكرين المسيحيين العرب قبل أن تنشأ بين المسلمين إلاّ أنها انتشرت ببطء «وذلك لأن مطامع الدول الغربية في البلاد العربية كانت تحمل ساستها ومبشريها على بذل جهود كبيرة لإبعاد المسيحيين عن فكرة العروبة، حتى أنها كانت تذكي نيران التعصّب الديني الطائفي فيما بينهم خدمة لمصالحها الخاصة[١٩]».

---

(١٧) نشوء القومية العربية، ص ١١٧.
(١٨) محاضرات في نشوء الفكرة القومية، ص ١٦٦.
(١٩) المرجع السابق، نفس الصفحة.

ولقد كان أول وأهم كتاب دعا إلى إنشاء دولة عربية مستقلة هو كتاب «يقظة الأمة العربية في آسيا» لمؤلفه نجيب عازوري (الذي صدر في باريس باللغة الفرنسية سنة ١٩٠٥) وقد دعا مؤلفه فيه إلى توحيد الكنائس الكاثوليكية تحت إسم «الكنيسة الكاثوليكية العربية»، وإلى انفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية، على أن تكون الحجاز مقراً لخلافة إسلامية عربية، وأن تتكون من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين دولة عربية موحدة عصرية(٢٠).

ولكن يبدو أن اتجاه القومية العربية لم يوافق رغبات الغرب المستعمر. وقد انعقد مؤتمر عربي في باريس في صيف سنة ١٩١٣ بصفة سرية، وتناقش المؤتمرون حول مشكلات الأمة العربية وعلاقتها بالدولة العثمانية، وحاول جماعة من عملاء فرنسا توجيه المؤتمر وجهة تخدم مصالح الإستعمار الفرنسي، إلا أن أعضاء المؤتمر لم يمكنوهم من ذلك. ولذلك كتب وزير خارجية فرنسا إلى القناصل الفرنسيين يقول: «إن الحركة الإصلاحية العربية قد انقلبت علينا ولذلك يجب عليكم أن تتظاهروا بمساعدتها ـ لكي تكسبوا قلوب الأهلين ـ على أن تسعوا ـ في الخفاء ـ للقضاء عليها» (٢١).

ولذلك تعرضت فكرة القومية العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى إلى تغيير شامل، وذلك نتيجة تقسيم البلاد العربية إلى دول عديدة، وقيام نزعات إقليمية ودعوات إلى القوميات المحلية المحدودة. وقد ظهرت في تلك الأثناء الدعوة إلى قوميات ترتبط بالتاريخ القومي القديم لكل بلد، فارتفعت الأصوات تدعو إلى الفرعونية في مصر، وإلى الفينيقية في الشام، وإلى الأشورية والبابلية في العراق، وإلى البربرية في المغرب، على أن تكون هذه القوميات المحلية مرتبطة بالغرب وبأوروبا المسيحية ومقطوعة الصلة بالجامعة الإسلامية أو الخلافة. وقد تعاون المبشرون مع الاستعمار في الترويج لهذه القوميات في حين أنهم حاربوا كل قومية ترتبط بالإسلام (٢٢).

---

(٢٠) المرجع السابق، ص ١٧٦، ١٧٧ـ ١٧٨.
(٢١) أنظر المرجع السابق، ص ١٩٠ـ ٢٠٢.
(٢٢) التبشير والاستعمار، ص ١٧٤ـ ١٧٨.

ويمكننا أن نجد في كتاب «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» [٢٣] نموذجاً لما يحدث من الصراع بين أنصار القومية المرتبطة بالجامعة الإسلامية وأنصار القومية المحلية في مصر، وقد كان الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل باشا وجريدته «اللواء» ممن يمثلون الإتجاه الأول، في حين كان حزب الأمة ثم حزب الوفد بعد ذلك ممن يمثلون الاتجاه الثاني، وكان بعض من يعاون هذا الإتجاه الأخير من عملاء الاستعمار وصنائعه مثل أصحاب جريدة «المقطم» التي كان يرأسها يعقوب صروف، والبعض الآخر ممن يهادنون المستعمر ويدعون إلى «التعقل وعدم التطرف» في مواجهته مثل أصحاب جريدة «الجريدة» ولكنهم لا يسرفون في الدفاع عنه إسراف أصحاب جريدة «المقطم».

يقول الدكتور محمد محمد حسين [٢٤] إن صحيفة المقطم كانت صريحة في تأييد المحتل، وتصويره في صورة إنسانية رائعة فالإنجليز - في زعمهم - لم يجشموا أنفسهم مشقة الإقامة في مصر إلا لرفع الظلم وإحياء العدل، وإليهم وحدهم يرجع الفضل في إنقاذ مصر من الإفلاس وإقامة اقتصادها على أساس متين.

أما جريدة «الجريدة» فكان من أهم كتابها أحمد لطفي السيد «باشا» الذي كان يدعو المصريين إلى التعقل وعدم التطرف - كما يفعل الحزب الوطني - وإلى ضرورة الخضوع للحكومة وطاعتها، وهي حكومة مصطفى فهمي باشا [٢٥] وهو - كما يقول الدكتور محمد محمد حسين - «الذي عرف بولائه للإنجليز، والذي وصفه كرومر بأنه كان مؤمناً بأن مصلحة وطنه في الولاء للإدارة الإنجليزية لا في معارضتها» [٢٦].

ويروي الدكتور محمد محمد حسين كيف حاول الإنجليز بكل وسيلة قطع

---

(٢٣) لمؤلفه الدكتور محمد محمد حسين: ط. مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٥٤.

(٢٤) الإتجاهات الوطنية ١/٣٧.

(٢٥) استمر مصطفى فهمي باشا رئيساً للوزارة ١٣ سنة في ظل الاحتلال البريطاني، وتزوج سعد باشا زغلول ابنته التي عرفت بأم المصريين.

(٢٦) الاتجاهات الوطنية ١/٨٣.

أي صلة تربط المصريين بالأتراك وبالدولة العثمانية، ثم يقول [٢٧]: «وكان للإنجليز من وراء كل ذلك هدف واحد، هو إضعاف العصبية الدينية، وتقطيع أوصال المسلمين في مستعمراتهم حتى يستطيعوا أن يواجهوهم واحداً واحداً. فالمصريون أحفاد الفراعنة، واللبنانيون أحفاد الفينيقيين،، والعراقيون أحفاد البابليين والأشوريين، والحجازيون أحفاد العرب الأمجاد.

وكانت الدولة العثمانية قوة روحية عظيمة، ومع كل ما ابتليت به من انحلال وفساد فقد كانت قادرة على جمع كلمة هذه الشعوب باسم الدين ضد بريطانيا وضد الدول الاستعمارية. وكان كرومر يدرك ما تنطوي عليه تعاليم الإسلام من الحث على الجهاد، وإعلاء مرتبة المجاهدين في سبيل الله، والحط من شأن القاعدين عن القتال، والدعوة إلى الأخذ بأسباب القوة، حتى لقد وصف المسلمين بأنهم من أنصاف الهمج المحبين للحروب، والذين لا تتسع صدورهم لأي تسامح. ووصف الإسلام بأنه قد جعل فكرة الانتقام والبغض أساساً لعلاقة الإنسان بالإنسان... لذلك عمل الإنجليز على إخماد جذوة العاطفة الدينية الإسلامية حين أيقنوا أنها مصدر خطر محقق، وأنها المعين الذي لا ينضب الفياض ببغضهم والدعوة إلى قتالهم».

---

(٢٧) المرجع السابق ٩٤/١.

الفصل الثالث

محاربة اللغة العربية

كـان من أهم أهداف الغـرب المستعمر القضـاء على اللغـة العربيـة حتى يضمن بـذلك قـطع كل صلة بـين المسلمين وبـين تـراثهم العـربي الإسـلامي، وخاصة كتاب الله الذي يريدون أن يصبح كتابـاً غير مفهـوم إذا ـ لا قدر الله ـ ضعفت معرفة المسلمين والعرب بلغتهم، أو هجروا الفصحى واكتفوا باللهجات المحلية.

ولـذلك. كـانت هذه الحـرب التي شنها الغـرب على اللغـة العربيـة ذات شقـين: الأول يهدف إلى إبعـاد المسلمين العـرب عن لغتهم ومزاحمـة لغاتـه لها وبـذلك يقـل علمهم بها وتضعف معـرفتهم لها، والثـاني يحاول بكـل الوسائل إزاحة اللغة الفصحى وإحلال اللهجات المختلفة في البلاد العربية مكانها بحيث لا يتيسر للعـرب التفاهم فيـما بينهم، فضلاً عن تعـذر أو صعـوبـة فهم القـرآن وسائر كتب التراث الإسلامي.

وقـد عمـد المستعمـرون في بعض البـلاد العـربيـة إلى فـرض لغتهم في المـدارس في أولى المراحـل التعليمية، ومنـع تعلم اللغة العـربية كـما حـدث في الجزائر وتـونس، واكتفوا في بعض البـلاد بجعل لغتهم لغـة أساسيـة مع اللغـة العربية كما حدث في مصر.

ويحـدثنا الـدكتور جـرجس سلامـة في كتابـه «أثر الاحتـلال البريـطاني في التعليم القـومي في مصر»[1] عن الوسـائـل التي اتبعهـا الإنجليـز في نشر اللغـة

(١) طبع مكتبة الانجلو، القاهرة، ١٩٦٦.

الإنجليزية وإضعاف اللغة العربية، وكيف قام دنلوب المستشار الثقافي الإنجليزي لوزارة المعارف بالدور الأكبر في تنفيذ هذه السياسة.

وقد كانت اللغة التركية تدرس في مصر كما كانت تدرس اللغة الإيطالية أحياناً ـ وذلك في نطاق ضيق ـ قبل الحملة الفرنسية على مصر، ثم انتشر تعليم اللغة الفرنسية بعد الحملة الفرنسية (التي احتل نابليون بها مصر سنة ١٧٩٨) واستمر ذلك في عهد محمد علي باشا، ونشطت بعثات التبشير الكاثوليكية في إنشاء المدارس الفرنسية المختلفة حتى بلغ عددها في عام ١٩٢٨ مائة وتسعة وسبعين (١٧٩) مدرسة. ولذلك عمل الإنجليز على القضاء على تدريس اللغة التركية، وعلى إزاحة أثر الثقافة الفرنسية وإحلال ثقافتهم مكانها [٢]، وارتبط ذلك بالعمل على إضعاف اللغة العربية تدريجياً.

وقد بدأ تدريس كثير من العلوم باللغة الإنجليزية ابتداء من السنتين الثالثة والرابعة الإبتدائية سنة ١٨٨٨ [٣]، وفي عام ١٨٩١ تقرر جعل التعليم باللغة الإنجليزية ابتداء من السنة الثانية الابتدائية، ثم في سنة ١٩٠١ تقرر تعليم اللغة الأوروبية في السنة الأولى الابتدائية [٤]، بل ذكر كرومر في تقريره السنوي لعام ١٩٠٤ أنه كانت هناك محاولة لإدخال اللغة الإنجليزية في الكتاتيب المصرية [٥]. وقد جلبت بريطانيا عدداً كبيراً من المدرسين الإنجليز، كما أنشأت مدرسة معلمين خاصة لتعليم المصريين تدريس اللغة الإنجليزية، وهي مدرسة المعلمين الخديوية [٦].

ويبرر دنلوب سياسة الاستعمار القاضية بجعل التعليم بالإنجليزية في تقرير له يقول فيه: «حاولت الحكومة في ظروف مختلفة جعل التعليم فيها باللغة العربية، غير أن التجربة أثبتت أن ذلك ضار بمتانة التعليم في هذه المدارس».

---

(٢) أثر الاحتلال، ص ٢٤٦.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٤١.
(٤) السابق، ص ٢٤٥.
(٥) السابق، ص ٢٤٠.
(٦) السابق، ص ٢٤٠ـ ٢٤١.

أما وجه الضرر - كما يزعم - فهو أن ذلك سوف يمنع المصريين من متابعة العلوم العصرية، كما أن ترجمة الكتب الأوروبية متعذر، خاصة واللغة العربية - كما يدعي - فقيرة في الإصطلاحات الفنية جامدة التراكيب معقدة العبارة، وإذا ضعف تعليم اللغة الأجنبية في المدارس الابتدائية والثانونية فسد التعليم في المدارس العليا، أما إتقان اللغة الأجنبية فإنه ييسر للطلاب أمر إتمام تعليمهم في الخارج.

ويمعن دنلوب في خبثه فيقول أن أهالي مصر أنفسهم هم الذين كانوا حريصين على تعلم اللغة الإنجليزية لأن ذلك يفتح لهم باب الترقي في الوظائف العالية بالحكومة [٧] أما إذا قصرت مدارس الحكومة في تعليم اللغة الأجنبية فإن هذا «مما يفيد مدارس التبشير والمدارس القبطية ويضر بمصالح مدارس الحكومة»[٨].

وقد كان أحد ساسة مصر المشهورين من الدعاة إلى جعل التعليم باللغة الإنجليزية. يقول عبد الرحمن الرافعي في كتابه «مصطفى كامل» [٩] واشتد الفقيد (مصطفى كامل) في نقد سعد باشا (زغلول) حين طلبت الجمعية العمومية من الحكومة في مارس سنة ١٩٠٧ جعل التعليم في المدارس الأميرية باللغة العربية. وكان وقتئذ باللغة الإنجليزية. فاعترض سعد باشا - وكان وزيراً للمعارف - على هذاالاقتراح وألقى خطبة طويلة في هذا الصدد سوّغ فيها جعل التعليم باللغة الإنكليزية، قائلاً إن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية لمحض رغبتها، أو اتباعاً لشهوتها، ولكنها فعلت ذلك مراعاة لمصلحة الأمة. وقال: «إذا فرضنا أنه يمكننا أن نجعل التعليم من الآن باللغة العربية وشرعنا فيه فعلاً نكون قد أسأنا إلى بلادنا وإلى أنفسنا إساءة كبرى، لأنه لا يمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوغلوا في الجمارك والبوستة والمحاكم المختلطة والمصالح العديدة المختلفة التابعة للحكومة».

---

(٧) أنظر المرجع السابق، ص ٢٤٣- ٢٤٦.
(٨) المرجع السابق، ص ٢٤٦.
(٩) ص ٤٠٢، الطبعة الأولى.

أما الدعـوة إلى نبذ اللغـة الفصحى واستبدالها باللهجـات العاميـة فهي دعـوة قديمـة خطط لهـا الغرب المستعمـر منذ القـرن الثامن عشر. وقـد درست الـدكتورة نفـوسة زكـريا سعيـد هذا المـوضوع دراسـة مفصلة في البحث الـذي حصلت بـه على الـدكتوراه من جـامعة الاسكنـدرية، والـذي نشرته بعـد ذلك بعنوان «تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر» (١٠).

ولا شـك أن محاولات الغـرب إشاعـة العاميـة في مصر إنما هي نمـوذج لما حـدث في كل البـلاد العربيـة. وقد تشـابهت المحاولات في كـل تلك البـلاد في وسائلها وغاياتها.

وقد بدأ الأوروبيـون دراسة اللهجـات العاميـة العربيـة منذ أوائـل القرن الثامن عشر. ففي إيطاليـا درست العاميـة العربيـة في مدرسـة نابـولي للدروس الشرقيـة التي أنشئت سنـة ١٧٢٧ وجـددت سنـة ١٨٨٨، وفي النمســا أنشئت مدرسة في فيينـا سنة ١٧٥٤ لتعليم لغـات الشرق ومنها اللغـة العربيـة وجددت سنـة ١٨٥١، وفي فرنسـا أنشئت مدرسـة بـاريس للغـات الشرقيـة الحيـة سنـة ١٧٥٩، وكذلك الأمر في انجلترا وألمانيا وروسيا والمجر (١١).

وقد كان أول مؤلَّف أجنبي خصص لدراسـة العاميـة المصرية هـو قواعـد العربية العامية في مصر وقـد ألّفه الـدكتور ولهلم سبيتـا سنة ١٨٨٠(١٢)، وكـان من أهم الأجـانب الذين دعـوا إلى العاميـة وليم ولكـوكس الاستعـماري والمبشر الإنجليزي. وقد نقل إلى العامية المصرية بعض مؤلفات شكسبير سنـة ١٨٩٢، وترجم الإنجيل إلى العامية سنة ١٩٢٥، كما ألّف كتـاباً عـالج فيـه موضـوعات مسيحية بعنوان «الأكل والإيمان» سنـة ١٩٢٦(١٣). وفي نفس العام نشر رسـالة بعنـوان «سـوريـا ومصر وشـمال أفـريقيـا ومـالـطة تتكلّم البـونيـة PONIC لا العربية(١٤)».

---

(١٠) مطبعة المعارف. الطبعة الأولى. مصر، ١٩٦٤.
(١١) تاريخ الدعوة إلى العامية، ص ١٠.
(١٢) نفس المرجع، المقدمة، ص ج - د.
(١٣) نفس المرجع، المقدمة، ص هـ.
(١٤) المرجع السابق، ص ٣٧.

وقد شارك بعض العرب الإنجليز والأجانب في دعوتهم إلى العامية مثل يعقوب صنوع (وهو يهودي) وجورجي زنانيري ومحمد النجار[١٥].

وتنتهي الأستاذة الدكتورة نفوسة زكريا من دراستها إلى نتائج هامة، فهي تقول «إن الدراسات التي أجراها المستشرقون والتي تناولت دراسة العامية المصرية والتي قدمت إلينا في أثواب علمية، انطوت جميعها على أهداف مغرضة لا تمت إلى العلم بنسب[١٦]».

أما أهم هذه الأهداف فتذكره بوضوح عندما تقول: «ولقد وجدت هؤلاء المؤلفين على اختلاف الموضوعات التي عالجوها في دراستهم للهجة المصرية من بحث في قواعدها إلى بحث في خصائصها ومميزاتها إلى بحث في أصلها، قد اتحدوا في هدف واحد هو السعي لإقصاء العربية الفصحى عن الميدان الأدبي وإحلال العامية محلها»[١٧].

وقد أدّت الدعوة إلى العامية إلى قيام كثير من العرب بعامة والمصريين بخاصة للرد عليها وتفنيد حجج القائلين بها وبيان أهدافها، مما أدى إلى إخفاق تلك الدعوة.

ولذلك لجأ أولئك الدعاة إلى طرق ملتوية «لإفساح المجال أمام العامية في ميدان الكتابة عن طريق إيهامنا بخدمة العربية الفصحى»[١٨] مثل الدعوة إلى تمصير اللغة العربية التي دعا إليها أحمد لطفي السيد. والدعوة إلى استعمال الحروف اللاتينية في الكتابة بدلاً من الحروف العربية، وقد كان من أهم الداعين إليها عبد العزيز فهمي (باشا): والدعوة إلى أن تكون لغة الأدب الجديد هي اللهجة العامية، وقد كان من أنشط الداعين إليها، سلامة موسى[١٩]، كما دعا سلامة موسى هو وأنيس فريحة وقاسم أمين إلى إلغاء

---

(١٥) نفس المرجع، المقدمة، ص و.
(١٦) نفس المرجع، المقدمة، ص د.
(١٧) نفس المرجع، المقدمة، ص و.
(١٨) المرجع السابق، المقدمة، ص ز.
(١٩) نفس المرجع ونفس الصفحة.

الإعراب بتسكين أواخر الكلمات وحذف بعض قواعد النحو أو تعديلها[٢٠].

وتصف الدكتورة نفوسة زكريا واحداً من هذه الاقتراحات والدعوات بأنه «يريد أن يباعد بيننا وبين القرآن ويحرمنا من تلك النعمة التي خصَّنا الله بها وهي معرفتنا للغته والقواعد التي تَقوم عليها»[٢١] ثم تقول: «وإذا بحثنا في مصدر الشكوى من صعوبة قواعد اللغة العربية وعسر تعلّمها، لوجدنا أنها ترجع في حقيقة الأمر إلى بعض المستشرقين الذين حاولوا تعلم اللغة العربية وهي شديدة البعد عن لغتهم الأوروبية في بناء الكلمات ونظام التأليف، وعادات النطق، وإلى المستعمرين الذين أرادوا أن يتخذوا من صعوبة قواعد العربية مبرراً للعدول عنها إلى العامية حتى يقضوا بذلك على أهم مقومات الوحدة العربية والوحدة الإسلامية[٢٢].

ويعرض لنا مؤلفا كتاب «التبشير والاستعمار» المحاولات المماثلة التي قامت في لبنان بوجه خاص وكيف كان موجه هذه المحاولات وزعيمها هو المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون، ثم تبعه بعض الآباء اليسوعيين مثل الأب رافائيل نخلة، الذي ألّف في الدعوة إلى العامية وإلى الكتابة بالحروف اللاتينية، ووصف المؤلفان محاولاته تلك بأن الدافع الحقيقي لها «ليس تيسير العربية، ولكن قطع العرب صلتهم بالقرآن الكريم، إلاّ أن يبقى ليقرأ في المساجد كما تقرأ اللاتينية في الكنائس الكاثوليكية»[٢٣].

ومن العجيب أن يدعو بعض العرب والمسلمين إلى ترك اللغة العربية الفصحى وهي أعظم اللغات الحية، في نفس الوقت الذي أحيت فيه إسرائيل العبرية وهي لغة قديمة ميتة.

---

(٢٠) نفس المرجع، ص ٢٠١، وانظر كتاب «أباطيل وأسمار» للأستاذ محمود محمد شاكر، ص ١٤٢ وما بعدها، الطبعة الثانية، ط المدني، القاهرة، ١٣٩١/١٩٧٢.

(٢١) تاريخ الدعوة إلى العامية، ص ٢٠٣.

(٢٢) المرجع السابق، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٢٣) التبشير والاستعمار، ٢٢٩. وانظر ص ٢٢٤ ـ ٢٣٢.

الفصل الرَّابع

تغيير نظم التعليم

ذكرنا فيما سبق أن التنصير عد التعليم أثمن الوسائل التي نجح المبشّرون عن طريقها في تنصير المسلمين[1]. ولا ريب أن الغزو الفكري الغربي اعتمد على التعليم اعتماداً كبيراً في نشر حضارته ومبادئه، واستعان في بادئ الأمر بالتنصير الذي لجأ إلى الأساليب المباشرة التي قامت على إنشاء المدارس التبشيرية التي تدعو إلى المسيحية بطريق صريح ومكشوف، واهتم بوجه خاص بمدارس رياض الأطفال[2] ومدارس البنات[3]، كما أسس مدارس تبشيرية مثل كلية فكتوريا بالأسكندرية[4]، وكلية جوردن في الخرطوم[5] والكلية البروتستنتية الانجيلية ببيروت ـ وهي التي عرفت فيما بعد بالجامعة الأمريكية[6]، والجامعة الأمريكية في القاهرة، وقد أنشئت لتكون معهداً مسيحياً يواجه الأزهر ويزاحمه[7]. كما اهتم التنصير بنشر دعوته عن طريق محو الأمية[8]. ولذلك كان «تاريخ الأعمال التبشيرية في البلاد الإسلامية، إلى حد كبير، تاريخاً للتعليم

---

(١) أنظر ما سبق ص ٢٧.

(٢) التبشير والاستعمار، ص ٦٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٨٧.

(٤) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(٥) التبشير والاستعمار ص ١١٠ ـ ١١١.

(٦) المرجع السابق، ص ٩٥ ـ ١٠٩.

(٧) أباطيل وأسمار، ص ١٩٤.

(٨) التبشير والاستعمار ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٩) المرجع السابق، ص ٦٩.

على أن الاستعمار الغربي عدل بعد ذلك عن أسلوبه الصريح في التبشير وفي التعليم التبشيري، إلى أسلوب آخر أعمق وأخبث، يقوم على إضعاف التعليم الديني وتدعيم التعليم اللاديني (أو المدني). وقد كان التعليم في أكثر البلدان الإسلامية قبل الاستعمار الغربي تعليماً دينياً بالدرجة الأولى، وإن كان بعض الحكَام قد اتجهوا في بعض تلك البلدان ـ بتأثير صلاتهم بالغرب - إلى استحداث نظم تعليمية غربية، وإلى ابتعاث البعثات العلمية إلى أوروبا، كما فعل محمد علي باشا في مصر. ويذكر لنا الدكتور جرجس سلامة أنه إنما فعل ذلك ليتمكن من تأسيس دولة منفصلة عن السلطان العثماني «ومن ثم بدأت ثنائية التعليم، ووجد بمصر سُلَّمان تعليميان ولكنهما غير مرتبطين ولا متصلين ببعضهما البعض. وبذلك وجدت مدارس حديثة ابتدائية وتجهيزية وخصوصية وعالية توصل إلى المناصب والنفوذ والثروة، متوازية مع التعليم الديني الشعبي الموجود بالأزهر والكتاتيب المنتشرة في الريف المصري والتي لا توصل إلى شيء من المناصب والنفوذ»[10].

وقد حاول بعض المصلحين القضاء على هذه الثنائية، ولكن الاستعمار الغربي جاء ليؤكدها ويعمقها. ويشرح لنا اللورد لويد المندوب السامي البريطاني في مصر في كتابه «مصر منذ عهد كرومر» (وقد ألّفه سنة ١٩٣٣م) السياسة التعليمية التي سار عليها الاستعمار الغربي في مصر فيقول: «إن التعليم الوطني عندما قدم الإنجليز إلى مصر كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين. والتي كانت أساليبها الجافة القديمة تقف حاجزاً في طريق أي إصلاح تعليمي. وكان الطلبة الذين يتخرجون في هذه الجامعة يحملون معهم قدراً عظيماً من غرور التعصب الديني. ولا يصيبون إلاّ قدراً ضئيلاً جداً من مرونة التفكير والتقدير. فلو أمكن تطوير الأزهر ـ عن طريق حركة تنبعث من داخله هو ـ لكانت هذه خطوة جليلة الخطر، ولكن إذا بدا أن مثل هذا الأمل غير متيسر تحقيقه، فحينئذٍ يصبح الأمل محصوراً في إصلاح التعليم اللاديني الذي

---

(١٠) أثر الاحتلال، ص ١.

ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح. وعند ذلك فسوف يجد الأزهر نفسه أمام أحد أمرين، فإما أن يتطور وإما أن يموت ويختفي»[١١].

وعلى ذلك فقد حرص الغرب في كل البلدان الإسلامية على «تطوير» التعليم الديني، أو بعبارة أدق على إضعافه وإبطال فعاليته وأثره في الأمة. وكانت وسيلته في الوصول إلى هدفه قائمة على إخضاعه وإخضاع علمائه لسلطان الحكومة (الخاضعة بدورها لسلطان الاحتلال)، مع التقتير الشديد في الإنفاق عليه. واغتصاب أموال الأوقاف الأهلية المخصصة للتعليم الديني وإنفاقها في وجوه أخرى. والدعوة إلى إلغاء التعليم الديني وضمّه إلى وزارة المعارف، أو قصره على مجالات محدودة[١٢]، وقد أدى ذلك كله إلى أن أصبح علماء الدين موظفين حكوميين يقبضون رواتبهم من الحكومة ويخشون بطشها بهم إذا ما جهروا بكلمة الحق. بعد أن كانوا من قبل يقبضون مخصصاتهم من أموال الأوقاف التي يوقفها المسلمون عليهم وعلى معاهد العلم، ولذلك كانوا يشعرون بالأمن ويرون أن من واجبهم أن يكونوا اللسان الذي يدافع عن الشريعة أولاً ثم يتصدى لكل استعمار أو اغتصاب أو ظلم يتعرض له المسلمون، كما حدث عندما وقف رجال الأزهر أمام الحملة الفرنسية، وأمام طغيان حكم محمد علي باشا[١٣].

وقد نجحت سياسة الغرب المستعمر في تحقيق أهدافها التي يحددها الدكتور محمد محمد حسين كما يلي: «حصر أصحاب الثقافة الإسلامية في المساجد، ومنعهم من احتلال مراكز تتصل بتوجيه المجتمع، وتنفير الناس منهم عن طريق تخفيض مرتباتهم، مما يؤدي إلى أن يستشعروا الذلة والنقص، وإلى أن تزدريهم الأعين وتنفر منهم النفوس، بسبب قذارة ملبسهم ومسكنهم. نتيجة لفقرهم، كما يؤدي في الوقت نفسه إلى انصراف الناس إلى ألوان التعليم التي

---

(١١) الاتجاهات الوطنية، ٢/٢٨٧ - ٢٨٨.

(١٢) المرجع السابق ٢/٢٥٢.

(١٣) أنظر في ذلك كتاب «عمر مكرم» لمحمد فريد أبو حديد، وكتاب «ودخلت الخيل الأزهر» لمحمد جلال كشك.

تجر المغانم وتوصل للجاه. وهذه مؤامرة قديمة، حاك الاحتلال خيوطها منذ وضع يده على الأزهر، وهي ذات شقين: يستهدف أولهما عزل الأزهر عن الحياة. ويستهدف الآخر إخضاع برامجه لرقابة تضمن إفناء شخصيته وفرنجته، بحيث يصبح الدين تبعاً للحياة وذيلاً لها، يتبعها ويتشكل بها، بدل أن يقودها ويقوّمها»(١٤).

أما التعليم المدني أو العلماني أو اللاديني الذي وجد جنباً إلى جنب مع التعليم في أكثر البلاد الإسلامية، فقد توسع الاستعمار الغربي فيه - بعد مرحلة من التقتير عليه والاكتفاء بالمدارس التبشيرية والأجنبية - ولكن هذا التوسع كان على أساس سياسة مرسومة وتخطيط دقيق. وقد عرض لتلك السياسة بعض العرب ممن أرّخوا لها وبيّنوا أنها قامت على أمور عدة. منها إخضاع التعليم ورجاله للمستعمرين بحيث ينفذ المسلمون السياسة التعليمية التي يرسمها لهم المستشارون الغربيون. ومنها جعل الهدف من التعليم تخريج موظفين وكتبة يحصلون على قشور من العلم، ويهتمون بالحصول على الإجازات والشهادات أكثر من تحصيل العلم والثقافة، ثم يعملون بعد تخرجهم تبعاً لأساليب تقوم على المركزية المفرطة و«البيروقراطية» و«الروتين» (أو النظم الإدارية المطولة والمعقدة الجامدة). ومنها توجيه الطلاب إلى العلوم النظرية - التي تدرس عامة على أسس فاسدة - وعدم تمكينهم من الدراسات التقنية والتجريبية الجادة(١٥).

على أن أهم الأهداف التي قصد إليها الاستعمار الغربي من هذا التعليم المدني هو صبغ حياتهم الفكرية والاجتماعية والأخلاقية بصبغة مسيحية غربية. وقد عبّر المستشرق الإنجليزي جب عن ذلك في كتابه **Whither Islam** (أين يتجه الإسلام) وقد صدر سنة ١٩٣٢، ويلخص لنا الدكتور محمد محمد حسين كلامه فيقول: «يلاحظ جب أن النشاط التعليمي والثقافي (عن طريق المدارس العصرية والصحافة) قد ترك في المسلمين - من غير وعي منهم - أثراً جعلهم

---

(١٤) الاتجاهات الوطنية ٢/٢٥٣.

(١٥) أنظر: التبشير والاستعمار، ص ٨٤ - ٨٦، الدكتور محمد فاضل الجمالي آفاق التربية الحديثة في البلاد النامية، ص ١٢٥ - ١٥٢، طـ. الدار التونسية للنشر. ١٩٦٨.

يبدون في مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد. ثم يعقب على ذلك بقوله: وذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار». ويذكر جب أن الإسلام كعقيدة لم يفقد إلاّ قليلاً من قوته وسلطانه (وهذا الكلام قبل أربعين عاماً) ولكنه كقوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية قد فقد مكانته. ثم يشرح هذا الكلام فيقول إن الرجل من عامة المسلمين أصبح يرى أن الشريعة الإسلامية لم تعد هي الفصل فيما يعرض له من مشكلات اجتماعية ودنيوية، بل أصبح مرتبطاً بقوانين مدنية قد لا يعرف أصولها ومصادرها، ولكنه يعرف على كل حال أنها ليست مأخوذة من القرآن. وبذلك انحصرت دائرة نفوذ الإسلام في طقوس محدودة، وقد تم معظم هذا التطور تدريجياً عن غير وعي وانتباه. ثم يقول: «وقد مضى هذا التطور الآن إلى مدى بعيد. ولم يعد من الممكن الرجوع فيه، وقد يبدو الآن من المستحيل - مع تزايد الحاجة إلى التعليم، ومع تزايد الاقتباس من الغرب - أن يصد هذا التيار» ثم ينتهي إلى القول بأن: «العالم الإسلامي سيصبح خلال فترة قصيرة لا دينياً في كل مظاهر حياته. ما لم يطرأ على الأمور عوامل ليست في الحسبان فتغير اتجاه التيار»[١٦].

ولعل من أهم العناصر التي أدت إلى نجاح سياسة الاستعمار الغربي التعليمية نظام الابتعاث إلى المعاهد العلمية في الغرب، فقد أختار الاستعمار المبتعثين من بين أفضل وأنجب الطلاب والخريجين، وأحاطهم برعاية خاصة وبتوجيه قوي، وكانت نتيجة ذلك أن أكثر هؤلاء المبتعثين يعودون إلى بلادهم وقد تأثروا تأثراً بالغاً بالحضارة الغربية في أخلاقهم وأفكارهم وعاداتهم ثم يتولى هؤلاء المناصب الهامة في بلادهم، فيقبلون من خلالها على توجيه إخوانهم ومواطنيهم توجيهاً غربياً، فيحققون بذلك عن عمد أو بلا وعي أهداف الغزو الفكري الغربي.[١٧].

---

(١٦) الاتجاهات الوطنية ٢/٢٠٤ - ٢٠٥.

(١٧) أنظر أيضاً الندوى الصراع بين الفكرة الإسلامية..، ص ١٧٧ - ١٩٢، أباطيل وأسمار، ص ١٨٥ - ١٩٥، العوامل التي تنخر في الكيان الإسلامي، ص ٨٧ - ١٨٢، مكة المكرمة، ١٣٩٢/ ١٩٧٢.

الفصل الخامس

استخدام وسائل الإعلام

ذكرت فيما سبق كيف استخدم الاستعمار البريطاني في مصر الصحافة في تبرير وجوده والدفاع عن أهدافه [1]. وقد أدت وسائل الإعلام دوراً خطيراً في توجيه الرأي العام في العالم الإسلامي إلى الفكر الغربي وقيم الحضارة الغربية، وفي إبعاد المسلمين عن الفكر الإسلامي والقيم الإسلامية. وقد فصَّل الدكتور محمد محمد حسين الكلام في دور الاستعمار الغربي في اصطناع العملاء من الحاقدين على الإسلام في الصحافة المصرية، وكيف حاولت الصحافة الوطنية الإسلامية أن تقاوم أثر الجرائد المأجورة، ولكن الاستعمار صادرها واضطهد كتابها وأصحابها مثل جريدة «اللواء» وجريدة «المؤيد» ومجلة «العروة الوثقى» [2].

وقد كانت بعض الجرائد التي اصطنعها المستعمر صريحة في تأييده والدعوة إلى أفكاره مثل جريدة «المقطم» - وتتبعها مجلة «المقتطف» - في حين كانت بعض الجرائد الأخرى تتظاهر بموافقة الحركات الوطنية، ولكن أصحابها كانوا يضمرون العداوة للوطنيين المسلمين ويحاربونهم بطرق غير مباشرة.

ويذكر لنا الزعيم المصري أحمد عرابي باشا رحمه الله في مذكراته، قصته

---

(١) أنظر ص ٣٨ - ٣٩.

(٢) أنظر الاتجاهات الوطنية ١/٧٣ - ٨٨، ١٣٤ - ١٥٤، ٢٠٢ - ٢٠٨.

مع منشيء جريدة من أشهر الجرائد في مصر والبلاد العربية وهي جريدة «الأهرام» وذلك بعد احتلال إنجلترا مصر وإيداع عرابي السجن فيقول: «. . . وبعد ساعة جاء ليزورني بشارة تكلا محرر جريدة الأهرام. وظننت أنه قدم ليعزيني وليبدي عواطفه نحوي. وقد كان ممن يدينون بمبدئنا قبل الحرب. وقد أقسم بدينه وشرفه أنه واحد منا وأنه يعمل لحرية وطننا، وقد عددناه في الحق من الوطنيين، ولكنه لما دخل عليّ توقح أشد التوقح. ثم قال: أي عرابي، ماذا صنعت وماذا حل بك؟ ورأيت أن الرجل خائن ولا شرف له. ولما لم أجبه أدار ظهره وانصرف» [٣].

وقد أدت الصحافة دورها في تغيير الأخلاق والقيم الاجتماعية في العالم الإسلامي منذ وقت بعيد. ويحدثنا الدكتور محمد محمد حسين عن ذلك فيقول: « ولعبت الصحف دوراً حاسماً في المعركة، بما كانت تنشر من صور للجمعيات النسائية وللأزياء، وما كانت تروي من أخبار النشاط النسوي الذي قل أن تخلو منه صحيفة، ومن تطورات الإنقلاب الكمالي في تركيا، وآثاره في المجتمع النسوي خاصة». ثم يلخص الدكتور محمد مقالاً نشر بجريدة السياسة الأسبوعية (القاهرية) صدر سنة ١٩٢٦م عن «فتاة تركيا عام ١٩٢٦» ذكر فيه كاتب المقال أن بعض الفتيات التركيات يشبهن فتيات أوروبا وقد تلقى بعضهن العلم في الكلية الأمريكية في القسطنطينية وذكرت واحدة منهن: «أن المرأة التركية اليوم حرة، فلن تسير في الطرقات في ظلام، وأننا نعيش اليوم مثل نسائكم الأنجليزيات، نلبس أحدث الأزياء الأوروبية والأمريكية، ونرقص وندخن ونسافر ونتنقل بغير أزواجنا». ويعلق كاتب الجريدة على ذلك بقوله: «إن هذا من أظهر الآثار التي تدل على تقدم المرأة التركية ومجاراتها لأختها الغربية في ميدان العمل والجهاد الفكري والاقتصادي، ولا يسع كل محب لتركيا إلّا أن يغبطها على هذه الخطوات».

---

(٣) أحمد عرابي لمحمود الخفيف، ص ٤٦٥، الطبعة الأولى، وانظر اباطيل وأسمار، ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

ويلخص الدكتور محمد مقالاً آخر في مجلة «المقتطف» يثني فيه كاتبه على فصل تركيا للدولة عن الدين. ثم يذكر أن صحفاً أخرى كانت «تغذي هذه الحركات بأسلوب خبيث ماكر، لا تظهر فيه بمظهر السيطرة والتوجيه، ولكنها تظهر بمظهر المستفتي السائل، لتبرز مسائل معينة تريد أن تجعلها موضوع مناقشة وأخذ ورد». ويضرب الدكتور محمد مثالاً على ذلك باستفتاء وجهته مجلة «الهلال» في عام ١٩٢٣ عن زواج الشرقيين بالغربيات ويلخص الدكتور محمد مقالاً آخر نشرته مجلة «الهلال» عام ١٩٣٨ للدكتور أمير بقطر عن «التعليم المختلط وأثره في توجيه العواطف بين الجنسين». وينتهي الدكتور محمد محمد حسين إلى القول بأنه «لم تستطع صيحات المحافظين أن تقف في وجه هذا التيار الجارف، بل لم تستطع أن تقلل من حدته أو تخفف من سرعته» [٤].

وقد تقدمت الصحافة في الطباعة والتصوير، واستخدمت كل الوسائل العلمية والفنية في توجيه الفكر والأخلاق اتجاهاً غربياً لادينياً، وقد أصدرت دار «الهلال» مثلاً عدداً كبيراً من المجلات التي أثرت تأثيراً كبيراً في المصريين والعرب. ويكفي أن نتذكر الدور الذي قام به مؤسس تلك الدار وهو جورجي زيدان من تشويه لتاريخ الإسلام وطعن فيه وذلك في «روايات تاريخ الإسلام» وقد قدم فيها جوانب من التاريخ الإسلامي معروضة بأسلوب قصصي يغري بالقراءة والمتابعة ولكنه يحوي قدراً كبيراً من المغالطة والافتراء.

وقد تأثرت الصحافة العربية بوكالات الأنباء والجرائد الغربية وأكثرها خاضع خضوعاً كبيراً للسيطرة اليهودية الصهيونية. وقد عرض كثير من الكتاب للسيطرة الصهيونية على الصحافة ووسائل الإعلام في الغرب [٥]، بل قد أنشأ اليهود مجلة «الكاتب المصري» التي: «كان مرادها أن تستولي على مصدر الثقافة

---

(٤) أنظر الاتجاهات الوطنية ٢/٢٣٩ - ٢٤٦. وأنظر اباطيل وأسمار، ص ٢٥٥ - ٢٥٨.

(٥) أنظر مثلاً: عبدالله التل، خطر اليهودية العالمية على الاسلام والمسيحية، ص ١٨٠ - ٢١١، ط. دار القلم، القاهرة، ١٣٨٤/١٩٦٤، هنري فورد، اليهودي العالمي، ص ١٦٢ - ١٨١، ٢٤١ - ٢٥٠، ط. بيروت، ١٩٦٢، عباس العقاد، الصهيونية العالمية، ص ٥٩ - ٦٣، ط. القاهرة ١٩٦٨.

في بلاد العرب وتكون أداة توجيه لأغراض بعينها قبل غـزو فلسطين العـربية في سنـة ١٩٤٨» (٦)، كما حـاول اليهود الصهيـونيون تـوجيه المسرح حتى أن أحـد «رواد» المسرح في مصر كان يعقوب صنـوع اليهودي الـذي سبق أن تكلمنا عن دوره في الدعوة إلى العامية (٧)، فضلاً عن سيطرتهم عـلى السينما والفـرق الفنية وغير ذلك مما له صلة بالإعلام في العالم كله وسنعرض لذلك فيما بعد بإذن الله.

---

(٢٣) اباطيل وأسمار، ص ١٤٢.

(٢٤) ما سبق ص ٤٥، اباطيل وأسمار، ص ٢٥٩.

الفصل السادس

الحرب العلمية والفكرية

بدأت الحرب العلمية والفكرية ضد الإسلام منذ بدايته. فقد جاء الإسلام بدين نسخ الأديان كلها، وبشريعة كاملة ألغت المذاهب والنُظم المعارضة له.. ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فأوغر ذلك صدور المتعصبين الحاقدين. وكان المسلمون أقوياء حطموا ملك الأكاسرة والقياصرة فلم تكن هناك وسيلة لهزيمتهم عن طريق القوة والحرب، ولذلك لجأوا إلى المكر والخديعة. ووجدوا أن الحرب الفكرية هي وسيلتهم الوحيدة، واندسوا بين الفرق الإسلامية يوجهونها توجيهاً مضلاً، ويوسعون شقة الخلاف بذلك بين المسلمين.

يقول ابن حزم أن الأصل في نشأة الفرق الإسلامية هو أن دولة الفرس كانت أقوى الدول قبل ظهور الإسلام، وكان الفرس - الذين كان أكثرهم من المجوس - يعدون سائر الناس عبيداً لهم، فلما أزال العرب ملكهم «وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً، تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة... فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله ﷺ واستشناع ظلم عليّ رضي الله عنه.

ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الإسلام»[1].

---

(١) الفصل في الملل والنحل ٢/١١٥ - ١١٦، ط. القاهرة، ١٣١٨ - ١٣٢١.

وبين الدكتور محمد بديع شريف في كتابه «الصراع بين الموالي والعرب» طريقة الشعوبية في محاربة الإسلام بقوله: «فاعتنقوا الإسلام ظاهراً، وظلوا يخلصون لعقائدهم القديمة، واتخذوا وسائل كثيرة لمقاومته وللتفريق بين المؤمنين به. وأول ما فعلوه أنهم أنكبوا على دراسة اللغة والأدب والقرآن والحديث، واستغلوا هذه المعرفة، فوضعوا من الأحاديث على النبي، وشرعوا يوجهون الأدب والعلم بما يريدون، وترجموا كتب الزندقة مما أثر عن ماني ومزدك وغيرهما، فكانت هذه الترجمات سبباً لإيجاد الخلاف بين المسلمين، فنشأت الفرق المتعددة»[٢].

وقد سلك اليهود نفس المسلك، وبدأت حربهم للإسلام منذ بداية بعثة النبي ﷺ، واستمرت أيام الخلفاء الراشدين، وقام عبدالله بن سبأ وفرقته «السبئية» بالتفريق بين المسلمين، وادعاء ألوهية عليّ رضي الله عنه[٣]، واستمرت مؤامراتهم من ذلك الحين إلى العصر الحديث في أشكال متعددة، مثل الماسونية وجمعية «أبناء العهد»[٤] حتى اتخذت صورتها الأخيرة في الحركة الصهيونية العالمية.

أما المسيحيون فقد عاشوا في ظل الدولة الإسلامية في أمن وطمأنينة، وأحاطهم المسلمون ببرهم وتسامحهم وحمايتهم، ومع ذلك بقي نفر منهم على عصبيتهم وحقدهم على الإسلام[٥]. ثم بدأت الحروب الصليبية التي انتهت بهزيمة الصليبيين ورجوعهم إلى بلادهم مدحورين خائبين. ولم تكن الحروب الصليبية حروباً عسكرية فقط، وإنما كانت حروباً فكرية أيضاً. فقد بدأ رجال الكنيسة يقبلون على دراسة الإسلام وعلومه وحضارته. ونشأت منذ ذلك الوقت

---

(٢) ص ٥٣، ط. القاهرة.

(٣) أنظر عبدالله التل: جذور البلاء، ص ١٦٣ ـ ١٧١.

(٤) أنظر: عبدالله التل: خطر اليهودية العالمية، ص ٣٨ ـ ٦٨، ١٢١ ـ ١٣٤، ١٤٣ ـ ١٥٥، جذور البلاء، ص ٩٤ ـ ١٣٨، ط. بيروت، ١٣٩٠/١٩٧١. وأنظر: مقدمة التونسي لكتاب الخطر اليهودي، ص ٧٤ ـ ٧٦.

(٥) أنظر كتاب (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام) لمحمد الغزالي. ط. الكويت.

حركات التبشير والأستشراق التي استمرت حتى يومنا هذا[٦].

وقد تعاونت الصليبية والصهيونية تعاوناً وثيقاً في حربهم العلمية والفكرية ضد الإسلام. ويكفي للدلالة على ذلك أن نعلم أن أكثر مراكز الدراسات الإسلامية ومعاهد الأستشراق في الدول الغربية ـ الرأسمالية أو الشيوعية ـ يشرف عليها إما مبشرون مبغضون للإسلام، أو يهود صهيونيون.

ونحن لا ننكر أن نفراً قليلاً من هؤلاء المستشرقين كانوا منصفين في بعض ما كتبوه عن الإسلام وتاريخه. وأن أكثر المستشرقين قاموا بدراسات جادة وعميقة. ولكن الذي يجب أن نتأكد منه أن أكثر دراساتهم وأبحاثهم صدرت عن عصبية وحقد موروث. وأنهم في الأغلب الأعم إنما قصدوا بها مصلحة دينهم وبلادهم، ولم يقصدوا وجه الحق والبحث الموضوعي النزيه. أو نفع المسلمين وفائدتهم.

ولعل أخطر نتيجة للحرب العلمية والفكرية التي شنها المستشرقون على المسلمين ظهور عدد من تلامذتهم والمعجبين بأفكارهم من المسلمين، ممن أخذوا يرددون آراءهم ويروجون لمفترياتهم.

وقد عرض لأراء المستشرقين وتلامذتهم ـ الذين أصبح بعضهم من رواد الأدب وقادة الفكر في البلاد العربية والإسلامية ـ كتّاب كثيرون، منهم الدكتور محمد محمد حسين في كتاب «الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»[٧]، والدكتور محمد البهي في كتاب «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي»[٨]، ولخص الزميل الدكتور عبد الكريم عثمان رحمه الله أهم هذه الأفكار في كتابه «معالم الثقافة الإسلامية»[٩].

---

(٦) أنظر: محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، خاصة ص ٢١١ ـ ٢٢٣. ط. ٥. بيروت ١٩٧٠.

(٧) أنظر بوجه خاص ١/٢٤٥ـ ٣٤٩. ٢/٥٨ ـ ٦٢. ٧٤ـ ٨٤ـ ١٧٧ـ ٣٦١.

(٨) أنظر بوجه خاص ص ١٩٥ـ ٤١٧ ، ٥١٧ ـ ٦١٢:

(٩) أنظر بوجه خاص ص ٩٧ ـ ١١٢. ط. ٢. بيروت ١٣٩٠/١٩٧١ وأنظر أيضاً التبشير والاستعمار، ص ٢١٧ ـ ٢٣٨، المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي، ص ٣٧ـ ٤٣، ٥٨ ـ ٥٩، ٦٤ـ ٦٧ ـ٩٠، جذور البلاء. ص ١٩٦ ـ ٢٣٧.

وارتبط الغزو الفكري الغربي منذ بداية القرن العشرين ببعض المذاهب الفكرية والدعوات الهدامة، التي ارتبط أكثرها بالصهيونية واليهودية العالمية، مثل آراء فرويد في علم النفس، وبعض آراء دوركيم في علم الاجتماع. وآراء الماركسية في المادية الجدلية والمادية التاريخية، ومذهب الوجودية الفلسفي وخاصة في جانبه المادي الملحد.

يقول الأستاذ عباس العقاد في كتابه «الصهيونية العالمية»: وأمامنا الحركات الفكرية والاجتماعية والسياسية في الغرب، وأصداؤها هنا وهناك، فإن دراستها على حقيقتها دون عناوينها تدل على عبث الصهيونية بأقدس القيم. وتسخيرها كل حركة - ما استطاعت - لإفساد العقول والأخلاق. وقد كان من رأينا أن مثل هذه الحركات ينبغي أن تفهم مع فهم بواعثها في نفوس أصحابها والقائمين بها، وأنه لا سبيل لفهمها بغير ذلك»[١٠] ثم يقول: «فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الأخلاق والأديان. واليهودي دوركيم وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة، ويحاول أن يبطل آثارها في تطور الفضائل والآداب، واليهودي - أو نصف اليهودي - سارتر وراء الوجودية التي نشأت معززة لكرامة الفرد فجنح بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بآفات السقوط والإنحلال»[١١].

وحتى في مجال العلوم التجريبية لم ينس الصهيونيون عصبيتهم. يقول العقاد: «ومثل آخر هو البرت أينشتين صاحب النظرية النسبية. وأكبر ما في يهوديته أن الكثيرين يحسبونه «مستقلاً» منقطع الصلة بها لأنه يعيش أيامه كلها على اتصال بمعاهد العلم والعلماء، ولكنه كان ينادي بالعصبية الصهيونية حين لا يضطره أحد إلى هذا النداء»[١٢] ومن هؤلاء العلماء الطبيب العالم ماكس نوردو الذي كان من أعاجيبه أنه «كاد أن يقسم الأخلاق إلى إسرائيلية

---

(١٠) الصهيونية العالمية. ص ٩١.
(١١) المرجع السابق، ص ٩١ - ٩٢.
(١٢) نفس المرجع، ص ٩٤ - ٩٥.

وغير إسرائيلية. وأنه كان شديد الغيرة للدعوة الصهيونية، حريصا على التبشير بها مع تطرفه في الإلحاد»[١٣].

وقد تصدى كثير من العلماء والكتاب للرد على هذه الأفكار والدعوات [١٤]، ولا شك أن الأمة الإسلامية قد رفضت - بحمد الله - أكثر هذه الأراء لتعارضها الصريح مع العقيدة الإسلامية، ، ومبادىء الإسلام، ولكن بعض الطوائف والجماعات تأثرت بها ومزجت بينها وبين أفكارها السياسية والاجتماعية.

ومما لا ريب فيه أن عمل علماء الإسلام المعاصرين في الرد على هذه الحرب العلمية والفكرية، يحتاج إلى كثير من الجهد والمثابرة والدأب. والتنظيم والدعم. ونحن في هذا العصر الذي تيسرت فيه وسائل الاتصال الفكري والمادي بين الناس لا يمكن أن نحارب الفكر المنحرف بمجرد الرقابة أو المنع والحظر، بل يجب أن يواجه هذا الفكر بفكر صحيح قائم على الدراسة الجادة العميقة، فضلاً عن الإصلاح الشامل، وخاصة الإصلاح الإجتماعي والأخلاقي الذي يغلق الأبواب أمام كل انحراف وضلال.

---

(١٣) المرجع السابق، ص ٩٥ - ٩٦.

(١٤) أنظر مثلاً كتب: عباس العقاد: الشيوعية والإنسانية، ما يقال عن الإسلام، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عقائد المفكرين في القرن العشرين.
أبو الأعلى المودودي: نحن والحضارة الغربية، الإسلام في مواجهة التحديات العصرية. محمد فتحي عثمان: التاريخ الإسلامي والمذهب المادي في التفسير الدين في موقف الدفاع. محمد قطب: الإنسان بين المادية والإسلام. جلال كشك الماركسية والغزو الفكري.

الفصل السابع

إفساد الأخلاق وتغيير الحياة الإجتماعية

ارتبط إفساد الأخلاق وتغيير الحياة الإجتماعية، في الأمة الإسلامية في القرون الأخيرة باستخدام وسائل الإعلام ، وبالحرب العلمية والفكرية. وقد أشرنا من قبل إلى دور الصحافة في تغيير الأخلاق والقيم الإجتماعية [1]، وسوف نذكر إن شاء الله أثر وسائل الإعلام الأخرى في ذلك، كما نعرض هنا لأثر الحرب العلمية والفكرية في هذا المجال.

يعرض الدكتور محمد محمد حسين في كتابه سالف الذكر لاتجاه من الاتجاهات التي تأثر أصحابها بالحضارة الأوروبية، وهو المطالبة «بتحرير المرأة من الجهل والحجاب، وتمكينها من أن تكون قوة فعالة وأداة نافعة في المجتمع». وقد ظهر في هذا الموضوع كتابان لقاسم أمين، هما أهم ما كتب في هذا الموضوع، والكتاب الأول هو «تحرير المرأة» وقد طبع سنة ١٨٩٩ والكتاب الثاني هو «المرأة الجديدة» وطبع سنة ١٩٠٠[2].

ويلخص الأستاذ الدكتور محمد أهم موضوعات الكتابين. وقد خلط فيهما الكاتب الحق بالباطل، وطالب في الكتاب الأول بتقييد تعدد الزوجات [3] ودافع عن مشروعية الطلاق في الإسلام ولكنه انتهى «إلى مشروع قانون للطلاق لا يتم فيه الطلاق إلا أمام القاضي في وثيقة رسمية بحضور شاهدين. بعد

---

(١) أنظر ما سبق، ص ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) الإتجاهات الوطنية ١/٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٣) المرجع السابق ١/٢٨١ ـ ٢٨٢.

نصح الزوج أولاً. ثم تحكيم أهل الزوج وأهل الزوجة ثانيا، على أن يتقدما بتقرير في حالة إخفاق مسعاهما في الصلح» [٤].

أما كتاب «المرأة الجديدة» فيذهب فيه قاسم أمين إلى «أننا قد ورثنا الصورة التي كوناها عن المرأة من العرب الذين قامت حياتهم على الغزو والنهب، ومن ثم لم يكن فيها للمرأة نصيب تشارك به في الدولة. ثم لم يكن لها نصيب في تربية الولد، لأن تربيته كانت مقصورة على تغذية جسمه ليشب مقاتلاً لا عالماً فاضلاً، فصورة المرأة هذه التي ورثها المسلمون عن العرب قد تكون صحيحة بالقياس إلى الماضي، ولكنها مزورة في نظرنا إلى الحال والمستقبل» [٥].

وقد هاجم علماء الدين قاسم أمين بشدة، ولذلك - كما يقول الدكتور محمد - «جرّته مهاجمة رجال الدين إلى القسوة في الحكم على الحضارة الإسلامية في بعض الأحيان» [٦]. «ويدعو قاسم أمين في آخر كتابه دعوة صريحة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية، فيقول - بعد أن يبين أن إعجابنا الشديد بالماضي هو نتيجة لشعورنا بالضعف والعجز: هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه، وليس له دواء إلا أن نربي أولادنا على أن يتعرفوا شئون المدنية الغربية. ويقفوا على أصولها وفروعها» [٧].

يقول الدكتور محمد محمد حسين في الجزء الثاني من كتابه: «ولكن الناس قد خطوا إلى أبعد مما نادى به قاسم أمين، فقد كان الرجل صريحاً في أنه يريد أن يقف بالحجاب عند ما أمر الله به، وأنه يدعو إلى أن لا يجور الناس بتجاوز حدود الله، وستر ما لم ينزل الدين بأنه عورة. وبحرمان المرأة من العلم وقصرها في البيوت. ولم يدع قاسم أمين إلى اختلاط المرأة بالرجال ومراقصتهم، ولم يدع قط إلى اتخاذ الملابس الضيقة التي لا تخفي عورات الجسم إلا لتبرز

---

(٤) أنظر المرجع السابق ١/٢٨١ - ٢٨٢.
(٥) نفس المرجع ١/٢٨٣.
(٦) نفس المرجع ١/٢٨٨.
(٧) المرجع السابق ١/٢٩٢.

مواضع الفتنة والإغراء. ولكن قاسم أمين، وإن لم يدع إلى شيء من ذلك، هو الذي فتح الباب لمثل هذه الدعوات، وهو الذي خطا الخطوة الأولى في طريقٍ كان لابد أن يسير الناس فيه من بعده خطوات» [٨].

ولا شك أن مسؤولية قاسم أمين تتعدى ذلك لأنه دعا إلى الأخذ بالحضارة الغربية في جوانبها التربوية والإجتماعية، ففتح بذلك باب الشر على مصراعيه، ولو أنه دعا إلى العودة إلى الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح ـ ولا بأس بأن يدعو إلى ما في الحضارة الغربية من تقدم علمي وجوانب نافعة ـ لانتفت مسؤوليته عما حدث.

يقول الأستاذ الدكتور محمد أنه «لم يعد ذلك الذي دعا إليه قاسم أمين هو شغل الناس بعد الحرب (العالمية الأولى)، فقد أخذت الأمور تتطور تطوراً سريعاً، حتى أصبحت دعوة قاسم أمين وقد استنفدت في وقت وجيز كل أغراضها، واندفع الناس إلى ما وراءها في سرعة غير منتظرة» [٩]. لقد تخطت المرأة المسلمة كل الحدود حتى أصبحت تظهر «على شواطىء البحر في المصايف بما لا يكاد يستر شيئاً، ولم تعد عصمة النساء في أيدي أزواجهن، ولكنها أصبحت في أيدي صانعي الأزياء في باريس من اليهود ومشيعي الفجور» [١٠].

وقد اقتحمت المرأة كل ميادين العلم والعمل، بل اشتركت في المظاهرات السياسية في ثورة سنة ١٩١٩. وكان على رأس المظاهرات صفية زغلول حرم سعد زغلول، وهدى شعراوي حرم علي شعراوي باشا [١١]. وتزعمت هدى شعراوي الحركة النسوية وتجرأت على ما لم تتجرأ عليه امرأة مسلمة من قبل، فسافرت إلى باريس وإلى أمريكا لدراسة شؤون المرأة وأخذت تلقي بالتصريحات والأحاديث لمندوبي الصحف [١٢].

---

(٨) السابق ٢/٢٣٢.
(٩) المرجع السابق، نفس الصفحة.
(١٠) السابق ٢/٢٣٣.
(١١) السابق، نفس الصفحة.
(١٢) السابق ٢/٢٣٥.

وأصبح الناس بعد ذلك في حيرة من أمرهم «وكان تيار الحياة يكتسح المعارضين أنفسهم إذ يصبحون وقد أحاط بهم ما يكرهون ، ويحاربون في أشخاص بناتهم وروجاتهم وأخواتهم، حتى بدا التناقض واضحاً بين ما يقولون وبين ما يجري في بيوتهم»(١٣).

وقد قامت معركة أخرى في مصر حول خلع «الطربوش» وارتداء «القبعة» وساهمت الصحافة المأجورة في هذه المعركة، وتصدى لهم في ذلك وفي غيره بعض الغيورين على دينهم وعلى رأسهم الأديب المسلم مصطفى صادق الرافعي رحمه الله (١٤).

ولم يكن هذا التطور مقتصراً على مصر فقد شمل العالم الإسلامي كله. ويحدثنا الدكتور محمد حسين عما ذكره خوجه بخش المسلم الهندي من انحرافات حدثت في الهند، وكيف فقد الآباء سلطانهم في الأسرة، وكيف سرت موجة من الإسراف والتبذير والانغماس في الترف، واتخاذ الأزياء الأوروبية وأساليب المعيشة الأوروبية، وتجاوز ذلك كله إلى الخمر والمقامرة. ويعقب على ذلك الدكتور محمد بقوله: «فالذي يقرأ وصف خوجه بخش للتطور الذي طرأ على المجتمع الهندي، يخيل إليه أنه يتحدث عن مصر، بما يؤكد أن أثر هذا الغزو كان واحداً»(١٥).

ويعرض الدكتور لما حدث في مصر من انتشار للمخدرات والبغاء والقمار والصور العارية في المجلات مثل مجلة الهلال ـ التي تعرض الأوضاع المثيرة المغرية باسم الفن، «وتجاوز هذا الداء المجلات إلى أشرطة السينما، ثم اقتحم المعاهد الحكومية فدخل مدرسة الفنون الجميلة» وذلك بإباحة رسم النساء العاريات (١٦).

---

(١٣) السابق ٢/٢٣٨.

(١٤) أنظر السابق ٢/٢٤٤ ـ ٢٥٠.

(١٥) السابق ٢/٣٢٤ـ ٣٢٥. وأنظر كتاب «الحجاب» لأبي الأعلى المودودي. ص ١١٨ـ ١٣٦، ط. دار الفكر، بيروت.

(١٦) الإتجاهات الوطنية ٢/٣٢٥ ـ ٣٢٦.

وانحرف الشعر والأدب، وطغت القصة على كل الفنون الادبية ولكنها أصبحت «معرضاً للنماذج المنحرفة الشاذة المثيرة لأحط الغرائز، تقدم باسم الواقعية تارة، وباسم التحليل النفسي تارة أخرى، حتى أصبح فن القصة أشد خطورة من الكوكايين والحشيش والأفيون، وصار من أبشع وسائل الإفساد والإغراء والهدم، بعد أن انتقل ميدانه إلى السينما»(١٧).

وجميع ما ذكره الدكتور محمد محمد حسين من جوانب الفساد الخلقي والانحلال الاجتماعي مما حدث في مصر والبلاد الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى، قد تطور تطوراً هائلاً منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى يومنا هذا. وقد تقدمت وسائل الإعلام الحديثة من إذاعة وسينما وتليفزيون وأدت دوراً كبيراً في هذا المجال، ويضاف إليها ما استحدث من أمور جديدة باسم السياحة تارة، وباسم الرياضة والأندية الرياضية تارة أخرى، وباسم النشاط الاجتماعي والخدمات الاجتماعية والحركات النسائية مرة، وباسم الفنون والفرق الفنية الراقصة الشعبية منها وغير الشعبية مرات، وبأسماء وأشكال أخرى لا عدّ لها ولا حصر.

وقد بلغ التفسخ والانحلال في البلاد الإسلامية إلى حد مناداة بعض الكتاب بالحرية الجنسية المطلقة وبوجوب فهم «الشرف» فهما جديداً لا علاقة له بالعفة الجنسية والمحافظة على العرض، إذ الشرف عندهم - يتمثل في الأمانة والصدق والوفاء بالعهد، أما العلاقات الجنسية فلا صلة بينها وبين الشرف بهذا المعنى التقليدي!!.

وقد قام التبشير المرتبط بالاستعمار بدور كبير في هذا الإفساد الخلقي والتغيير الاجتماعي في الفترة السابقة(١٨). أما في الفترة الأخيرة فقد قام بالدور الأكبر في هذا المجال اليهود والصهيونيون في العالم كله عامة وفي العالم الإسلامي بوجه خاص.

---

(١٧) الإتجاهات الوطنية ٢/٣٣٠، وانظر إلى ص ٣٣٤.

(١٨) أنظر الفصل التاسع من كتاب «التبشير والاستعمار» وعنوانه الأعمال الاجتماعية طريق التبشير، ص ١٩١ - ٢١٦.

ويعرض الأستاذ عبدالله التل في الفصل السادس[١٩] من كتابه «جذور البلاء» لهذا الموضوع تفصيلاً، فيحدثنا عن استخدام اليهود للجنس، ومما يذكره في ذلك قوله: «اعتمد اليهود على بيع أعراضهم لكسب مال «الكفار» واسترجاعه ليكون في حوزة إسرائيل، ويتم ذلك بأن يصدّروا فتيات إسرائيل إلى جميع مواخير العالم في أوروبا وأمريكا، ويصدّروا كذلك أعداداً كبيرة من الفتيات إلى أسواق الرقيق الأبيض في العالم، وإلى البارات والملاهي والنوادي الليلية تحت إشراف جمعيات يهودية منظمة»[٢٠].

ويضرب الأستاذ عبدالله المثل بما يحدث في البلاد الأوروبية، ثم يتحدث عن تجارة الجنس في إسرائيل، وكيف يسخر الجنس للحصول على أسرار ومعلومات من الأجانب الذين يزورون إسرائيل، بل ومن قوات الطوارىء الدولية التي كانت مرابطة على حدود اسرائيل قبل كارثة سنة ١٩٦٧، ويقول: «وقد اعترفت مجلة هوليم هازيه» في تحقيق صحفي لها قائلة: «قلّما تجد مراقباً للهدنة أو ضابطاً من البوليس الدولي ليس له عشيقة يهودية، يغرقها بالهدايا التي يشتريها بأسعار رخيصة من الأقطار العربية التي يزورها»[٢١].

والحكومة اليهودية تشرف على تنظيم عملية البغاء الذي يخدم أهداف الدولة السياسية، بالحصول على المعلومات، وكسب صداقة الزوار والسياسيين، كما أنها جزء من حملة الدعاية ضد العرب إذ أن بعض الأماكن «تمارس فيها الدعارة بشكل رهيب، ناسبين ذلك إلى الحياة العربية الإسلامية زمن الخلفاء، ويطلقون عليها حفلات ألف ليلة وليلة»[٢٢].

والدعارة في أميركا يهودية في القائمين عليها وفي سماسرتها وتجارها والبضاعة المتداولة. وقد نجح اليهود في تدمير الأخلاق في الدول الأسكندنافية، ومن ذلك نجاحهم في تدريس الجنس وفي نشر الأباحة الجنسية حتى بين

---

(١٩) وعنوانه: طرق التدمير في المجتمعات غير اليهودية، ص ١٧٢ ـ ١٩٥.
(٢٠) جذور البلاء، ص ١٧٣.
(٢١) نفس المرجع، ص ١٧٤.
(٢٢) نفس المرجع، ص ١٧٥.

الأحداث من الفتيان والفتيات، أما في بريطانيا فلم يكتف اليهود بنشر الدعارة بل قاموا بالأعلان عنها والدعوة لها[٢٣].

وقد نشر اليهود وباء الشذوذ الجنسي في دول العالم وجعلوه تجارة، ويشرف اليوم على عملية تخنيث شباب بريطانيا أربعة من الخنافس ثلاثة منهم يهود، وقد انتصرت الحملة التي تهدف إلى إباحة الشذوذ الجنسي، وعدم اعتباره جريمة يعاقب عليها القانون، والتي قادها اليهودي ولفندن وذلك عندما قدم مشروعه إلى البرلمان الإنجليزي سنة ١٩٥٧. وقام اليهود بنفس الدور في دول أوروبية أخرى وفي أمريكا[٢٤].

والدعوة إلى الإباحة الجنسية صريحة في بروتوكولات حكماء صهيون، وفي تعاليم الماسونية ، وقد نجح اليهود في تأسيس نوادي العراة ونشر فكرة العري[٢٥] ، كما نجحوا في السيطرة التامة على صناعة السينما وتوجيه الأفلام السينمائية توجيهاً يخدم أهدافهم، فضلاً عن سيطرتهم على شركات التلفزيون وعلى المسرح والفرق الموسيقية والغنائية[٢٦].

يقول الأستاذ عبدالله التل: «وهكذا يظل اليهود سادة الحياة الأميركية الأوروبية، ومعاول الهدم في كيان المدنية الغربية. ولو اقتصر الخطر على أوروبا وأميركا لما كان لنا أن نقلق أو نخاف، ولكنه سرى إلى كيان المجتمع العربي الإسلامي. وأخذ يعبث بقواعد المجتمع وأسسه المبنية على الذوق والأخلاق والرجولة. . . . وتعتبر أكثر العواصم العربية سوقاً حرة لغزو الفن اليهودي المخرب»[٢٧].

وهكذا نرى أن هذه الوسيلة من وسائل الغزو الفكري قد دمرت أخلاق

---

(٢٣) المرجع السابق، ص ١٧٦ - ١٢٨.
(٢٤) السابق، ص ١٧٨ - ١٨١.
(٢٥) السابق، ص ١٨١ - ١٨٢. وانظر اليهودي العالمي، ص ١٩٥ - ١٢٠٧.
(٢٦) جذور البلاء، ص ١٨٤ ١٨٧، اليهودي العالمي، ص ١٦٢ - ١٩٣.
(٢٧) جذور البلاء، ص ١٨٧.

الأمة وبدّلت أوضاعها الاجتماعية، وكثير من الشبان المسلمين ينساقون مع هـذا التيار الجارف وهم لا يعلمـون أنهم بذلـك يحققون أهـداف أعدائهم، ويحيـون بسبب ذلك حياة لاهية عابثـة يشغلون فيها بسفـاسف الأمور والتفاهات ، فضلاً عن المعـاصي والآثام، وذلـك بدلاً من الـدأب والمثابـرة والإعداد المستمـر ليـوم الجهاد والخلاص من أعدائنا.

الفصل الثامن

تبديل القوانين والتشريعات

كان جمود الفقهاء المتأخرين وسدهم باب الاجتهاد، وعدم مواجهة الفقهاء لما جد من أقضية ومشكلات واجهت العالم الإسلامي في القرون الأخيرة ـ ذريعة لبعض الحكام بررت لهم ترك الشريعة الإسلامية والأخذ بالتشريعات والقوانين الغربية.

وقد بدأ العثمانيون يأخذون ببعض التشريعات والقوانين الغربية قبل سقوط الخلافة الإسلامية، ففي سنة ١٨٥٠ أصدرت الدولة العثمانية قانون التجارة نقلاً عن القانون الفرنسي، وفي سنة ١٨٥٨ أصدرت قانون الأراضي، ثم وضعت قانون الجزاء نقلاً عن القانون الفرنسي أيضاً، ولكنها أدخلت عليه فيما بعد تعديلات كثيرة مأخوذة عن القانون الإيطالي. ثم صدرت عدة قوانين بعد ذلك تأثرت بالقوانين الأجنبية مثل قانون أصول المحاكمات الحقوقية الذي صدر سنة ١٨٨٠ وذيله سنة ١٩١١، وقانون الإجراء وقد صدر عام ١٩٠٦ وغير ذلك من القوانين.

وقد جاءت بعض نصوص هذه القوانين متمشية مع الشريعة الإسلامية وبعضها الآخر مخالفاً لها، ومن ذلك فإن قانون العقوبات العثماني لم يقر العقوبات الشرعية كقطع يد السارق والجلد وما أشبه ذلك. وكذلك أجاز قانون أصول المحاكمات الحقوقية الفائدة في المعاملات المالية مما يتعارض مع تحريم الربا[1].

(١) فلسفة التشريع في الإسلام للأستاذ صبحي محمصاني، ص ٦٢ ـ ٦٣، ط. بيروت ١٣٧/١٩٥٢.

أما في مجال القانون المدني فقد عينت الدولة العثمانية لجنة ألفت ما عرف بمجلة «الأحكام العدلية» التي تم ترتيبها سنة ١٨٧٦، وتتناول أكثر أبواب فقه المعاملات آخذة بالمذهب الحنفي على الأغلب مع الأخذ ببعض الآراء من المذاهب الأخرى أحياناً. على أن المجلة لم تبحث في بعض الأبواب مثل أبواب العبادات ولا العقوبات ولا الأحوال الشخصية إلّا في موضوع الحجر - ولا أحكام المواريث.

وفي سنة ١٩١٧ أصدرت الدولة العثمانية قانون العائلة الذي تناول الأحوال الشخصية آخذاً بمذهب أبي حنيفة مع الأخذ ببعض المذاهب الفقهية الأخرى أحياناً[٢].

وفي عام ١٩٢٤ ألغيت الخلافة العثمانية وألغيت مع إلغائها المحاكم الشرعية تماماً، وفي سنة ١٩٢٦ تبنت تركيا - التي كانت خاضعة لحكم كمال أتاتورك - قانون الموجبات للاتحاد السويسري ثم القانون المدني السويسري بلا تعديل يذكر، كما ألغت مجلة الأحكام العدلية وجميع الأحكام الشرعية الإسلامية، فأصبح الأتراك يقرون المساواة بين الجنسين في الإرث وفي حق طلب الطلاق القضائي لأسباب معينة، ومنع تعدد الزوجات، وصحة الزواج ولو اختلف الزوجان في الدين، وما إلى ذلك[٣].

أما في مصر فقد كانت القوانين العثمانية معمولاً بها لكونها جزءاً من الدولة العثمانية، ولكن محمد علي باشا أنشأ عدة مجالس بجانب المحاكم الشرعية أخذت كثيراً من اختصاصها، ففي سنة ١٢٤٥ هـ سن قانوناً لضبط أحوال الزراعة سماه قانون حال الفلاح، تناول أموراً كثيرة مما كانت تفصل فيه المحاكم الشرعية، وكذلك فعل بعده سعيد باشا[٤].

وفي عام ١٢٩١ هـ = ١٨٧٤م في عهد اسماعيل باشا، تم استقلال مصر

---

(٢) المرجع السابق، ص ٦٣ - ٦٤.
(٣) المرجع السابق، ص ٨١ - ٨٣.
(٤) محمود عرنوس: تاريخ القضاء في الإسلام، ص ١٩٧، القاهرة، ١٣٥٢/١٩٣٤.

إداريا وقضائيا عن الدولة العثمانية، وتم بعد ذلك إنشاء عدة مجالس قضائية، ثم صدر بعد ذلك سنة ١٨٧٥ القانون المدني المختلط وأنشئت المحاكم المختلطة التي يحاكم أمامها الأجانب. وفي عام ١٨٨٣ صدر القانون المدني الأهلي وأنشئت المحاكم الأهلية على أنقاض المجالس القضائية السابق ذكرها[٥].

وصدرت بعد ذلك عدة قوانين تأثرت كلها بالقوانين الفرنسية، وذلك أن الخديوي اسماعيل كلف الشيخ مخلوف المنياوي تطبيق القانون الفرنسي على مذهب الإمام مالك، وقد أثار إصدار القانون المدني المصري نقلاً عن قانون نابليون نقمة كثير من المصريين، كما أثارهم أن الحكومة أصدرت قانون الأحوال الشخصية على المذهب الحنفي وجعلت عمل المحاكم الشرعية مختصاً به لا يتعداه إلى غيره.

أما من ناحية القانون المدني فقد تألفت لجنتان في عامي ١٩٣٦، ١٩٣٨ وفي سنة ١٩٤٠ تم عمل اللجنة، وأصبح المشروع مستقى من مصادر ثلاثة: القانون المقارن، واجتهاد القضاء المصري، والشريعة الإسلامية، وقد تم التصديق على هذا القانون سنة ١٩٤٨ على أن يعمل به سنة ١٩٤٩. وفي نفس سنة ١٩٤٩ تم الغاء المحاكم المختلطة[٦].

وما حدث في تركيا ومصر حدث ما يماثله في أكثر البلدان الإسلامية. ففي لبنان كان العمل في باديء الأمر بالقوانين العثمانية، ولكن بعد الحرب العالمية الأولى وضع لبنان تحت الانتداب الفرنسي إلى أن استقل وتم جلاء الفرنسيين عنه سنة ١٩٤٦. وقد صدرت بعد الانتداب عدة قوانين مدنية غير مستمدة من الشريعة مثل قانون الملكية الذي صدر سنة ١٩٣٠، وقانون الموجبات والعقود الذي صدر سنة ١٩٣٢، وقد ألغى جميع الأحكام الشرعية التي تخالفه، وصدر قانون أصول المحاكمات سنة ١٩٣٣، وقانون العقوبات سنة ١٩٤٣. وأخذت هذه القوانين عن القوانين الفرنسية والألمانية والسويسرية.

---

(٥) المرجع السابق، ص ١٩٧ - ١٩٩، فلسفة التشريع، ص ٧٥.
(٦) فلسفة التشريع، ص ٧٨ - ٨٠.

أما الأحوال الشخصية فظلت تابعة لكل طائفة من الطوائف الدينية في لبنان، وفي المحاكم السنية ظل العمل - إلى حد كبير - بقانون العائلة العثماني وبأرجح الآراء في مذهب أبي حنيفة[٧].

أما سوريا فقد ظلت تعمل بالقوانين العثمانية ومجلة الأحكام العدلية في مدة الانتداب الفرنسي، باستثناء قانون الملكية الذي أصدرته سلطة الانتداب الفرنسي في كل من لبنان وسوريا سنة ١٩٣٠.

وبعد استقلال سورياً حدث تغيير في القوانين، وأخذ عن القوانين الغربية، وبدأ ذلك سنة ١٩٤٧ بصدور قانون البينات في المواد المدنية والتجارية. وفي سنة ١٩٤٩ حدث انقلاب تشريعي نتج عنه إصدار ثلاثة قوانين: القانون المدني، وقانون التجارة، وقانون العقوبات، وهي مأخوذة مع بعض التعديلات - عن القوانين المصرية واللبنانية والعراقية[٨].

وقد تم في أكثر البلدان الإسلامية العدول عن الشريعة إلى القوانين الوضعية ويذكر المستشرق جب في كتابه «الاتجاهات الحديثة في الإسلام»: أن البلدان الإسلامية أخذت بالنمط الأوروبي في الدساتير والأنظمة الإدارية والجزائية، فضلاً عن القوانين التجارية والمدنية، ثم يقول: «ولم يبق حتى يومنا هذا سوى السعودية والأفغانستان من الدول التي حافظت على النظام الإسلامي»[٩].

وفي رسالة صغيرة عنوانها «الإسلام في المجتمع العربي» يعرض الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي لارتباط القانون والتشريع بالأخلاق والعرف الاجتماعي، ويبدأ رسالته قائلاً: «إنّ مظاهر الانحراف عن الإسلام في المجتمع العربي ترجع إلى نوعين: أولهما: يتمثل في انحراف النظام والقوانين عن

---

(٧) فلسفة التشريع، ص ٨٢ - ٨٩.

(٨) المرجع السابق، ص ٨٩ - ٩١.

(٩) ص ١٢٤، ط. بيروت، ١٩٦٦. أضاف الأستاذ عبد الستار أبو غدة إلى ذلك إمارتي قطر والبحرين. أنظر مقالة دور الفقة الإسلامي في الوقت الحاضر، محاضرات الموسم الثقافي العاشر للكليات والمعاهد العلمية، الرياض ١٣٨٦/١٩٦٦.

الإسـلام، وثانيهـما: يتمثل في انحـراف الأفراد في سلوكهم وحيـاتهم الخاصـة والنوع الأول أشد خطراً لأنه يؤدي إلى انحراف الأفراد ويصعب إصلاحه».

وينقل الدكتور علي بعض مواد قانون العقوبـات المصري الخاصـة بجرائم الزنا وهتك العرض، ثم يذكر أنه يتبينّ من هذه المواد أن الزانية لا تـوقع عليهـا عقوبة إذا زنت بـرضـاهـا ولم تكن متزوجـة، أو كانت مـتزوجة ولم يـرفع زوجهـا الـدعـوى عليهـا، أو رفعهـا ولم تسمـع منـه، أو سمعت منـه ولكنـه أوقف الإجـراءات، كما أن الـزاني لا يعاقب إذا زنى بـامرأة غـير متزوجـة برضـاهـا أو مـتزوجة ولكن زوجهـا لم يرفـع الدعـوى أو رفعها ولم تسمـع منه. . . وإذا زنى الزوج خارج منزل الزوجية فإنه لا يعاقب. . . .[١٠].

هذه المواد وغيرها كما يقول الدكتور علي: «مقتبسة بنصهـا مع تغيـير يسير من قانون العقوبات الفرنسي، وعن هذا القانون نفسه استمدت معظم القوانـين الأوروبية والأمريكية موادها الخاصة بهذه الجرائم، أو جاءت مـوادها متفقـة مع مواده في كثير من الوجوه». ثم يذكر الأستاذ الدكتور علي أنه «من المبادئ المسلم بها عند علماء الاجتماع والقانون أن القوانين تستمد مـوادها الخـاصة بهـذا النوع من الجـرائم من تقاليـد الشعب وعرفـه الخلقي، ومقاييسـه للفضيلة والـرذيلة، ومبلغ نفوره من الفعل»[١١].

ويضرب الـدكتـور أمثلة عـدة تبـينّ مـدى الانحـراف الخلقي والفـوضى الجنسية والإباحة المنتشرة في الشعوب الغربية، ثم يقول: «فإذا جـاءت قوانينهم فقررت أن هذه الجرائم لا عقوبة فيها ما دامت ترتكب برضا الطرفين، وأن زنـا الزوجة نفسه لا عقوبة فيه ما دام قـد ارتكب برضا الزوج. . . فإنها بذلك تعبر عن تقاليدهم وعرفهم الخلقي، ومقاييسهم للفضيلة والرذيلة. . . أما نحن فـإننا لم نصـل بعد إلى هـذه الدرجـة من الحضـارة. . . ونسـأل الله تعـالى ألاّ نصـل إليها. . . فلا تزال مسائل العرض عندنا من أهم المسائل التي تشغلنا، ولا يزال

---

(١٠) الإسلام في المجتمع العربي، ص ٣ ـ ٨، نشر مكتبة المنار، الكويت.

(١١) نفس المرجع، ص ٨.

الناس عندنا يتقاتلون ويقتلون في سبيل المحافظة على العرض والذود عنه»[١٢].

ومواد القانون المصري في هذه المسائل وغيرها لا تختلف كثيراً عن مواد القوانين في أكثر البلدان الإسلامية. ومن هذا نتبيّن كيف أثّر الغزو الفكري الحضاري الغربي على المسلمين، ودفعهم إلى سن قوانين تخالف أخلاقهم وعرفهم الاجتماعي، فضلاً عن مخالفتها لدينهم وشريعتهم.

وبعد، فإن هذا الغزو الفكري الحضاري الغربي الذي استمر في بلادنا الإسلامية، يخرب قيمنا وأخلاقنا وثقافتنا بعد انتهاء الاستعمار السياسي العسكري، لا يمكن أن يواجه بالسلبية والتجاهل، أو المنع والحظر.

وإنما يواجه بتيار مضاد يردّه ويدفعه بعيداً عن أمتنا، ثم يطهرها من آثاره ويغسل عنها أدرانه. وعلينا أن ندرس كل وسيلة من الوسائل السابقة دراسة علمية جادة مفصلة، ثم علينا أن ندرس طرائق دفع أذاها، وطرائق إبدال ما خلفته من آثار فاسدة بما هو صالح ونافع.

---

(١٢) نفس المرجع، ص ١٧ - ١٨.

القسم الأول

الباب الثاني

معوقات دون العلم

الفصل الأول: اختلاف المسلمين قديماً في فهم الدين والعمل به

الفصل الثاني: القول في الدين بغير علم .

الفصل الثالث: الفهم الخاطئ لمعنى أمية الرسول (ﷺ) وصحابته

الفصل الرابع: التقليد المذموم .



معوقات دون العلم

لقد أفسد الغزو الفكري الحضاري الغربي ثقافتنا العربية الإسلامية في عصرنا الحاضر، وقد بدأنا بهذا الغزو لأننا يجب أن نهتم بما هو واقع أولا، ولأن تأثيره على المسلمين هو أشد من غيره.

على أنّ هذا لا ينفي أن مؤثِّرات أخرى سابقة أثَّرت على ثقافتنا وحالت دونها ودون الاتجاه الصحيح. إما بالإضعاف من قوتها، وإما بدفعها إلى مسالك ملتوية ومنحرفة.

وفي هذا الباب سوف ندرس بعض هذه المؤثِّرات والجوانب السلبية. وسنبدأ في الفصل الأول بدراسة ما وقع فيه المسلمون قديماً من اختلاف في فهم الدين والعمل به بتأثير الانحرافات الفكرية والعملية.

ثم ندرس في الفصل الثاني ما يقع فيه المسلمون قديماً وحديثاً من القول في الدين بغير علم، مما يصرفهم عن التثبت والدقة والدراسة الجادة، ويجعل بعضهم يكتفون بقشور من العلم، فضلاً عن إضلالهم للآخرين وإفسادهم لعلمهم وثقافتهم.

وسنعرض في الفصل الثالث بإذن الله لمعنى «الأمية» الذي وُصِفَ به رسول الله ﷺ، وصحابته رضوان الله عليهم في الكتاب والسنّة، ونبيّن أن ذلك لا يعني مطلقاً الجهل وعدم العلم، مما جعل بعض المسلمين يهمل العلم تأسياً بهم، والبعض الآخر منهم يلتمس العلم عند المتأخرين، ويترك بذلك المنبع الأصلي، الصافي من كل كدر.

أما في الفصل الرابع فسنعرض للكلام عن «التقليد» ونبيِّن أثـره الضار في المسلمين إذ أنه كـان سبباً في تـواكلهم واعتمادهم عـلى علمائهم وأئمتهم، عـلى الرغم من الدعوة الملحة في الكتاب والسنَّة لترك ذلك، ولوجوب بذل كل فرد ما يستـطيع حتى يتبيـنَ الحق بنفسه ويتعـرَّف على أدلـة الكتاب والسنـة. وقد أدى التقليد إلى وقوع كثير من المسلمين في العصبية للأهواء والفرق والمذاهب، وهذا ما سوف نبيِّنه ونوضح ضرره إن شاء الله.

الفصل الأول

اختلاف المسلمين قديماً في فهم الدين والعمل به

إن الغـزو الفكـري الحـديث الـذي جـاء مـع الاستعـمار الغـربي للعـالم الإسلامي قد أثرً في الثقافة الإسلامية تأثيراً بالغاً، حتى أدى إلى ما أوضحنـاه في البـاب السـابق من تغيـير شـامـل في أوضـاع المسلمـين الفكـريـة والأخـلاقيـة والاجتماعية، بحيث أصبح هذا التغيير هو الخـطر الأول الذي يجب العمـل على مواجهته ورده عن المسلمين.

على أن ذلك لا ينفي أن هناك خطراً أصاب الثقافـة الإسلاميـة وأثّر فيهـا تأثيراً كبيراً في الماضي ، وهو تلك الاختلافات التي وقعت بين المسلمين قديماً في فهم الدين والعمل به .

وقد ارتبطت تلك الاختلافات ارتباطاً وثيقاً بأمرين:

الأول: الفرق الإسلامية المختلفة التي نشأت منذ الصدر الأول للإسـلام مثل الجهمية والقدرية والمعتزلة والخوارج والشيعة والمرجئة.

الثاني: ما شـاع بين المسلمـين من بدع عمليـة دخلت عليهم في عباداتهم وأعمالهم وعاداتهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على إحدى

أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة »[1]

قال ابن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس»[2]: «فإن قيل: وهل هذه الفرق معروفة؟ فالجواب: أنا نعرف الافتراق وأصول الفرق، وأن كل طائفة من الفرق قد انقسمت إلى فرق، وإن لم نحط بأسماء تلك الفرق ومذاهبها. وقد ظهر لنا من أصول الفرق: الحرورية[3]، والقدرية، والجهمية، والمرجئة، والرافضة، والجبرية. وقد قال بعض أهل العلم: أصل الفرق الضالة هذه الفرق الست، وقد انقسمت كل فرقة منها على اثنتي عشرة فرقة، فصارت اثنتين وسبعين فرقة».

وأياً ما كان من أمر هذه الأقسام واختلاف العلماء في تحديد أنواع هذه الفرق وعددها، فالذي لا خلاف عليه أنه قد نشأت في الأمة الإسلامية فرق كثيرة مختلفة، خالفت كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، وأن الله تعالى حفظ لنا كتابه الكريم وحفظ لنا بيان هذا الكتاب وهو هذه السنة، وأبقى طائفة من أمته على مدى القرون متمسكة بالكتاب والسنة، قائمة بالحق وظاهرة عليه، وهذه الطائفة هي حجة الله تعالى على الخلق إلى يوم القيامة.

ونحن إزاء تلك الفرق المتعددة التي وجدت في عصور المسلمين المختلفة يجب أن نحتاط لديننا، وألاّ نقبل كل ما يصل إلينا من كتب المسلمين دون فحص أو تدقيق. كما يقتضي أن توجد فينا طائفة عالمة دارسة محيطة بالكتاب والسنّة يرجع إليها سائر المسلمين. ويقتضي مع ذلك أن يحرص كل فرد على تبينّ وجه الحق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان وأحمد وغيرهم. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وقد رويت عدة أحاديث في افتراق الفرق عن عدد من الصحابة ومن طرق مختلفة بعضها صحيح مثل الحديث المروى عن عون بن مالك. أنظر كتاب سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الحديث رقم ٢٠٣، وكتاب صحيح الجامع الصغير له، الحديث رقم ١٠٩٤.

(٢) ص ١٦، ط. المنيرية، القاهرة، ١٣٦٩.

(٣) وهم الخوارج.

وقد كان السبب الرئيسي لوجود تلك الفرق هو سوء الفهم لنصوص الكتاب والسنّة، وتأويلها تأويلاً يبعد بها عن حقيقة معناها، وعلى الرغم من أن كثيراً من أتباع تلك الفرق كانوا في غاية «الإخلاص» والحماس لما يعتقدون أنه الحق، إلاّ أنهم فارقوا الجماعة وشذوا عن جمهور المسلمين بسبب قلة العلم أو الانحراف في الفهم.

والمسلم يبعد عن دينه، ويخالف الكتاب والسنة لواحد من سببين: الشهوات أو الشبهات. فالشهوات تؤدي به إلى المعاصي، وهذه المعاصي إن مات المسلم عليها بغير توبة يدخله الله النار - بمشيئته - ويعاقبه بقدر ذنوبه ثم يغفر له ويدخله الجنة. وكذلك الشبهات تضل بعض المسلمين من «أهل القبلة» وهي التي كانت سبباً في وجود الفرق المختلفة، ولكن هذا الضلال وإن أدخل صاحبه النار إلاّ أنه لا يكون سبباً في تخليده فيها، بل يغفر له سبحانه إن شاء ذنبه، ويدخله الجنة بعد ذلك (إلاّ أن يكون ذلك من أنواع الضلال المؤدي إلى الكفر، والمخرج من الملة فلا يُعدّ صاحبه من أهل القبلة، ويكون مصيره الخلود في النار).

وسوف نسرد فيما يلي بعض الأمثلة لأنواع من الشبهات التي أدت إلى انحراف بعض أتباع تلك الفرق.

يذهب الخوارج إلى القول بأن مرتكبي الكبائر من المسلمين كفار ومخلدون في النار[٣]، ويستندون في رأيهم هذا إلى فهم خاطيء لبعض آيات كتاب الله.

فهم يستشهدون على رأيهم بقوله تعالى: **﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾** (آل عمران: ٩٧)، ويقولون إن الله سمى من ترك الحج كافراً، وترك الحج معصية، وإذن فكل معصية تعد كفراً.

أما علماء أهل السنة والجماعة فيقولون إن المقصود بالآية من أنكر وجحد

---

(٣) انظر مقالات الإسلاميين للأشعري ١٥٦/١.

فرضية الحج فهذا يكفر، أما من آمن بأن الحج ركن من أركان الإسلام ولكنه تكاسل عنه أو قصّر في أدائه ـ مع استطاعته الحج ـ فهو عاص ولكنه لا يكفر(٤).

ويستشهد الخوارج أيضاً بقوله تعالى: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ (المائدة: : ٤٤)، ويقولون إن من ارتكب معصية من المعاصي كالزنا أو شرب الخمر، يكون قد حكم لنفسه بغير ما أنزل الله، وعلى ذلك يكون كافراً.

ويرد على ذلك أهل السُّنَّة والجماعة فيبينون سبب نزول الآية، وهو أن بعض أحبار اليهود بدّلوا حكم الله الذي جاء في التوراة، والقاضي برجم الزاني المحصن،وذلك لرشوة أخذوها، فأفتوا بأنه يعاقب بالتجبيه والتحميم (أي بأن يركب دابة في وضع معكوس وأن يلطخ بالسواد) فأنزل الله هذه الآية يصفهم بالكفر لكتمانهم حكم الله وحكمهم بغيره، فهذه الآية إنما تتعلق بهم ولا تنطبق على العصاة من المسلمين(٥).

وقد أخذ برأي الخوارج في أمر مرتكبي الكبائر أكثر المعتزلة والشيعة، ولكنهم قالوا إن مرتكب الكبيرة يدخل النار ويخلد فيها، ولكن عقابه يكون أخف من عقاب الكفار، كما أنه لا يكفر بل يكون في منزلة بين المنزلتين، أي في درجة بين الإيمان والكفر، فلا يعد مؤمناً ولا يعد كافراً. أما أهل السنّة والجماعة فيقولون إن مرتكب الكبيرة مؤمن ولكنه فاسق، وهو يدخل النار ـ إن مات قبل التوبة ـ ولكنه لا يخلد فيها .

وقد لجأ المعتزلة إلى نفي صفات الله تعالى ظناً منهم أن هذا أدعى إلى تنزيه الله عز وجل، ولذلك أوّلوا قول الله سبحانه: ﴿ **الرحمن على العرش استوىٰ** ﴾(طه:٥) فقالوا إن معنى ذلك أن الله تعالى استولى على العرش، لأنه

---

(٤) أنظر رأي الخوارج في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢/٣٠٧، وأنظر تفسير الطبري للآية ٤٧/٧ (ط. المعارف).

(٥) أنظر شرح نهج البلاغة في الموضع السابق، وأنظر تفسير الطبري ١٠/٣٤٥.

لا يجوز عندهم أن يقال إن الله تعالى يستوي على العرش كما تستوي الملوك على عروشها، إذ أن هذا فيه تشبيه بالمخلوقات. وظن المعتزلة أن تأويلهم هذا أقرب إلى العقل، ولكن رد عليهم أهل السنة فقالوا إن معنى ذلك أنه سبحانه لم يكن قادراً على الاستيلاء على العرش ثم تمكن من الاستيلاء عليه، فكأنه ـ تعالى الله عن ذلك ـ كان ضعيفاً عاجزاً ثم قوي وأصبح قادراً. ولذلك قال أهل السنة، كما عبر عن رأيهم مالك بن أنس رحمه الله: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

ويذهب بعض غلاة الشيعة في تفسير آيات الكتاب مذهباً يبعد بها عن معناها الصحيح. يقول ابن تيمية رحمه الله: «فتفسير الرافضة كقولهم: **﴿تبت يدا أبي لهب﴾** (المسد: ١): وهما أبو بكر وعمر، و**﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾** (الزمر: ٦٥): أي بين أبي بكر وعمر وعلي في الخلافة، و**﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾** (البقرة: ٦٧): هي عائشة، و **﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾** (التوبة: ١٢): طلحة والزبير، و**﴿مرج البحرين﴾** (الرحمن: ١٩): علي وفاطمة، و **﴿اللؤلؤ والمرجان﴾** (ارحمن: ٢٢) الحسن والحسين، و**﴿عم يتساءلون *عن النبأ العظيم﴾** (النبأ: ١، ٢): علي بن أبي طالب [٦].

وقد أسرف بعض غلاة الصوفية إسرافاً شديداً في تأويلاتهم حتى زعم بعضهم من القائلين بوحدة الوجود مثل ابن عربي، أن فرعون مات مؤمناً، ويستدلون على ذلك بأن الله تعالى ذكر عنه في سورة يونس أنه قال عند الغرق **﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين﴾** (يونس: ٩٠)، وهذا يدل عندهم على إيمانه وأن غرقه كان بمنزلة غسل الكافر إذا أسلم، ويزعمون أنه ليس في القرآن ما يدل على كفره.

ويرد على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رداً مطولاً [٧] يذكر فيه أن الآية التي تلي الآية السابقة تبين المقصود إذ يقول فيها سبحانه: **﴿الآن وقد عصيت**

(٦) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ص ٢٩.

(٧) أنظر رسالة في الرد على ابن عربي في دعوى إيمان فرعون، ضمن جامع الرسائل، ط. المدني، القاهرة، ١٣٨٩/١٩٦٩.

قبل وكنت من المفسدين﴾ (يونس: ٩١)، وهذا استفهام إنكار وذم ولو كان إيمانه صحيحاً لما قيل له ذلك»[٨]

وهذه الفرق المختلفة تخضع نصوص الكتاب - أو السنة - لمعان وآراء يؤمنون بها، ولا تحاول أن تفهم الكتاب كما أنزل، وكما تدل عليه ألفاظه بحسب دلالات اللغة وقواعدها. وفي ذلك يقول ابن قيم الجوزية في كتابه «الروح» إنه ينبغي: «أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمَّل كلامه ما لا يحتمل ولا يقصر به عن مراده، وما قصده من الهدى والبيان. وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله. بل سوء الفهم عن الله وعن رسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام... وهل أوقع القدرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة والجهمية والروافض وسائر طوائف أهل البدع إلا سوء الفهم عن الله وعن رسوله ﷺ ،حتى صار الدين بأيدي أكثر الناس هو موجب هذه الأفهام، والذي فهمه الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومن تبعهم عن الله وعن رسوله ﷺ فمهجور لا يلتفت إليه»[٩].

ويقول البعض: إن هذه الخلافات بين الفرق كانت قديماً وقد عفى عليه الزمان ولا داعي للبحث فيها اليوم، بل يجب أن نوفق بين هذه الفرق، وأن نتحد جميعاً ضد الاستعمار والصهيونية أولاً.

وهذا كلام صحيح. وهو من أهم ما يجب أن يتعاون عليه كل المسلمين، غير أن بعض أتباع هذه الفرق لا يرضون بالعدول عن مذاهبهم وآرائهم، ويعادون سائر المسلمين بسببها، وعلى الرغم من أن بعض الفرق قد انتهت واندثرت. إلا أن آراءها ما زالت منتشرة بين بعض المسلمين، فالمعتزلة مثلاً قد تبنَّ آراءهم الشيعة الذين يوافقونهم في أكثر مسائل أصول الدين. وكثير من القضايا التي اختلف بسببها المسلمون قديماً أصبحت قضايا تاريخية، ومع ذلك

---

(٨) المرجع السابق، ص ٢٠٧.

(٩) كتاب الروح لابن قيم الجوزية. ص ٩٢ ط. صبيح. القاهرة، ١٣٦٩.

ما زال البعض يتمسكون بها ويعيشون في ذكراها كأنما هي قضايا راهنة معاصرة.

ولو أن الإختلاف كان في فروع الدين أو في مسائل الفقه لهان الأمر. أما وبعض هذه الخلافات يتعلق بالعقيدة أو أصول الدين فإن الأمر يحتاج إلى علاج جذري.

ولعل العلاج الصحيح والحاسم هو أن يعود المسلمون جميعاً إلى كتاب الله وسنّة نبيه وإلى ما اتفقت عليه جماعة المسلمين وجمهور الأمة وهم أهل السنّة والجماعة، خاصة وأنهم يمسكون عما شجر بين الصحابة ويترضون عليهم جميعاً، فلا يكفّرون أحداً أو يفسّقونه، كما أن مذهبهم هو المذهب الوسط الذي لا تفريط فيه ولا إفراط، وهو الذي يوافق الكتاب والسُّنة.

وكما اختلف المسلمون بعد نشأة الفرق، فإنهم اختلفوا بسبب البدع العملية ومخالفة السُّنة في العبادات والعادات، ومن ذلك ما يقع فيه بعض المسلمين من بناء المساجد على القبور والدعاء عندها، والغلو في العبادات أحياناً، أو ابتداع أمور لم ترد في الكتاب والسُّنَّة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» ـ رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

وفي حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب فقال: «أمّا بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» ـ رواه مسلم وابن ماجة وغيرهما.

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «من سرَّه أن يلقي الله غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادي بهن، فإن الله عزَّ وجلَّ شرع لنبيكم سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنَّة نبيكم، ولو تركتم سنَّة نبيكم ﷺ لضللتم».

يقول الشاطبي رحمه الله في كتابه «الإعتصام» (١٠) تعليقاً على كلام ابن مسعود رضي اله عنه: «فتأمَّلوا كيف جعل ترك السنة ضلالة».

ويعرض الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب «التوحيد» أمثلة من البدع التي توقع الناس في الشرك، مثل تعليق التمائم والالتجاء إلى الرُّقي غير المشروعة والتولة وهي شيء يصنعونه ويزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته (١١)، ومثل الذبح أو النذر لغير الله (١٢)، والغلو في الصالحين، وبناء المساجد على قبورهم والدعاء عندها (١٣)، ومثل تصديق الكهان والعرافين (١٤).

وفي الأثر الذي يورده الإمام محمد بن عبد الوهاب عن ابن عباس رضي الله عنهما عند كلامه عن قوم نوح ﷺ ، ما يدل على أن أهم سبب لوقوع الناس في الشرك هو الجهل ونسيان العلم: «في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿**وقالوا لا تذرنَّ آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا**﴾ (نوح: ٢٣)، قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسيَ العلم عبدت» (١٥)

ويدرس شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه القيم «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» ما يقع فيه المسلمون من بدع نتيجة تشبههم بالكفار، ويبين الحكمة التي قصدها الشارع من الأمر بمخالفة المشركين والكفار في أعيادهم وملبسهم وعباداتهم وعاداتهم، ويذكر الآثار النفسية والإجتماعية السيئة

---

(١٠) ح١، ص ٨٣، ط. المنار، القاهرة ١٣٣٢.

(١١) أنظر كتاب التوحيد، باب ما جاء في الرقى.

(١٢) المرجع السابق: باب ما جاء في الذبح لغير الله، باب من الشرك النذر لغير الله.

(١٣) المرجع السابق، ص ٥٩ - ٦٦، الطبعة الثانية، مؤسسة النور بالرياض، ١٣٨٤.

(١٤) المرجع السابق، ص ٧٥ - ٧٦.

(١٥) المرجع السابق، ص ٥٩.

للتشبه بهم، وما من شك أن معرفة المسلمين بدينهم وبسنة نبيهم وتمسكهم بذلك - بدون غلو أو تطرف - هو من الأمور الضرورية التي تعين الأمة على تميزها واستعادة شخصيتها، وبذلك تتخلص من الانقياد للحضارات المعادية للإسلام.

ويبين ابن الجوزي رحمه الله في كتابه «تلبيس إبليس» كيف لبّس إبليس على طوائف من الزهاد والعباد حتى أبعدهم عن السُّنة، ودفعهم إلى البدعة، ويفصل القول في الكلام عن طوائف من الصوفية وعن غلوهم في العبادات والعادات حتى خالفوا الشرع والعقل في كثير من الأمور.

وعلاج ما وقع فيه بعض المسلمين من مخالفة للكتاب والسُّنة في الأقوال والأعمال يحتاج إلى كثير من الحكمة والرفق، إذ أن الغلظة والشدة تنفران الناس من سماع النصيحة حتى ولو كانت صادقة مخلصة، وصدق الله العظيم في وصفه لنبيه ﷺ : ﴿**ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وإذا علمنا أن أهم أسباب هذه **الإختلافات والإنحرافات هو الجهل**، وجب علينا أن نتعلم الحق والصواب ثم نعلِّمه الناس، وذلك من عناصر الحكمة في دعوة الناس إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿**أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ (النحل: ١٢٥).

الفصل الثاني

القول في الدين بغير علم

يقبل المسلمون على دراسة دينهم، فيجدون بين أيديهم كتباً تبعد بهم عن الدين الخالص، هي ثمرة تلك الإختلافات والبدع التي حدثت في الماضي، وما زالت آثارها قائمة في الحاضر. ثم يجدون مؤلفات أخرى أو يسمعون خطباً ومحاضرات أقبل أصحابها على الكتابة أو الكلام في الدين بغير علم فيضلون ويضلون.

هذا مع النهي الشديد في الكتاب والسنة عن الكلام في الدين بغير علم. يقول ابن كثير رحمه الله في مقدمة تفسيره: «فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام لما رواه محمد بن جرير. . . عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوّأ [1] مقعده من النار. وهكذا أخرجه الترمذي والنسائي. . . . ورواه أبو داود. . . وقال الترمذي: هذا حديث حسن»[2]. ويذكر ابن كثير كيف كان الصحابة والسلف يتحرجون من الكلام في كتاب الله حتى إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: «أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم» [3].

وقال السيوطي في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» «. . . عن مالك قال:

---

(١) يتبوأ أي ينزل ويحل.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، المقدمة.

(٣) المرجع السابق، وانظر مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان ص ٣٠٤ـ ٣٠٥ منشورات العصر الحديث، ١٣٩١/١٩٧١.

لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا. وقال مجاهد: لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب» ويذكر السيوطي خمسة عشر علما لا بد من معرفتها للمفسر ثم يقول: «قال ابن أبي الدنيا: وعلوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له. قال: فهذه العلوم التي هي كالآلة للمفسر لا يكون مفسّراً إلا بتحصيلها، فمن فسّر بدونها كان مفسراً بالرأي المنهي عنه، وإذا فسر مع حصولها لم يكن بالرأي المنهي عنه. قال: والصحابة والتابعون كان عندهم علوم العربية بالطبع لا بالإكتساب، واستفادوا العلوم الأخرى من النبي ﷺ» [٤].

وإذا كانت هذه الشروط الكثيرة ضرورية لمن يفسر القرآن، من العلماء المختصين، فإنه من الضروري لمن عرض لآيات القرآن من عامة الباحثين أو الكتاب أو الوعاظ والخطباء أن يرجعوا إلى التفاسير الصحيحة وأن يكتفوا بالنقل عنها والرجوع إليها، وليس من حقهم أن يزيدوا على ذلك إلا عند استكمال الشروط التي حددها العلماء.

ونحن نحتاج عند الرجوع إلى كتب التفسير أن نميز بين الصحيح منها والذي تشيع فيه الأخطاء وتكثر فيه الإسرائيليات، أو يجنح المفسر فيها إلى التأويل بما يخالف ما عليه أهل السنة والجماعة.

وأما الحديث فكذلك جاء النهي الشديد عن التقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل، وعن الكذب عليه مع التعمد.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب»: «وهذا الحديث قد رُوي عن غير واحد من الصحابة والسنن والمسانيد وغيرها حتى بلغ مبلغ التواتر، والله أعلم».

وعن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ قال: «من حدَّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين» رواه مسلم وغيره.

---

(٤) الإتقان للسيوطي، ٢/١٧٩ - ١٨١، ط. مصطفى الحلبي، القاهرة ١٩٥١/١٣٧٠.

وفي رواية الحديث يجب التمييز بين الأحاديث الصحيحة والحسنة وغيرها من الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وقد بحث العلماء هذا الأمر بحثاً مفصلاً وبينوا كل ما يتصل به ووضعوا علوماً عديدة تخدم السنة وتيسرها وتضبطها، مثل علم مصطلح الحديث، وعلم الرجال أو الجرح والتعديل، كما ألفوا كتباً في شرح غريب الحديث.

وكذلك في الفقه جاء النهي الشديد عن الإفتاء بغير علم، يقول ابن قيم الجوزية في كتابه «اعلام الموقعين»: «وقدم حرّم الله سبحانه القول عليه، بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى: **﴿قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾** (الأعراف: ٣٣) فرتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهي الفواحش، ثم ثنى بما هو أشد تحريماً منها وهو الإثم والظلم، ثم ثلّث بما هو أعظم تحريماً منها وهو الشرك به سبحانه، ثم ربّع بما هو أشد تحريماً من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه، بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه. وقال تعالى **﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع قليل ولهم عذاب أليم﴾** (النحل: ١١٦، ١١٧)، فتقدم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقولهم لما لم يحرمه هذا حرام ولما لم يحله هذا حلال. وهذا بيان منه سبحانه أنه لا يجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام إلاّ بما علم أن الله سبحانه أحلّه وحرّمه».

وفي سنن أبي داود من حديث مسلم بن يسار قال سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «من قال علي ما لم أقل فليتبوأ بيتاً في جهنم، ومن أفتى بغير علم كان إثمه على من أفتاه، ومن أشار على أخيه بأمر يعلم الرشد في غيره فقد خانه».

وقال ابن رجب في رسالة «شرح حديث: ما ذئبان جائعان»[٥]، «روى ابن لهيعة عن عبدالله بن جعفر مرسلاً عن النبي ﷺ قال: «أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار». وقال علقمة: كانوا يقولون: أجرؤكم على الفتيا أقلكم علماً. وعن البراء قال: أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يسأل أحدهم عن المسألة ما منهم من رجل إلاّ وَدَّ أن أخاه كفاه. وفي رواية: فيردها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا حتى يرجع إلى الأول... وعن مالك رضي الله عنه أنه كان إذا سُئل عن المسألة كأنه واقف بين الجنة والنار. وقال بعض العلماء لبعض المفتين: إذا سُئلت عن مسألة فلا يكن همك تخليص السائل ولكن تخليص نفسك أولاً. وقال لآخر: إذا سُئلت عن مسألة فتفكر، فإن وجدت لنفسك مخرجاً فتكلم وإلاّ فاسكت»[٦].

وقال ابن عبد البر[٧] «سُئل سعيد بن جبير عن شيء فقال: لا أعلم. ثم قال: ويل للذي يقول لما لا يعلم إنّي أعلم... وقال أبو الدرداء: قول الرجل فيما لا يعلم لا أعلم نصف العلم».

ويذكر بعض أئمة العلماء عبارة لها دلالتها فيقول: إنما يفسد الأبدان نصف متطبب، وإنما يفسد الأديان نصف متفقه[٨]. فالرجل الذي أدرك بعض العلم لا يعد عالماً بحق ولا يجوز له أن يفتي ويفسر ويشرح أمور الدين، ومثله في ذلك كمثل طالب الطب الذي درس عاماً أو عامين في كلية الطب ثم أجاز لنفسه أن يعالج الناس ويداوي المرضى، وكما لا بد أن ننكر على هذا الأخير تصرفه، فكذلك لا بد أن نرفض ما يقوم به أدعياء العلوم الدينية من تهجم على ما لا يعرفونه وخوض فيما لا يعلمونه.

---

(٥) مجموعة الرسائل المنيرية ٣/١٠ ـ ١١، ط. القاهرة، ١٣٤٦.
(٦) أنظر أيضاً جامع بيان العلم، باب تدافع الفتوى ٢/١٦٣ ـ ١٦٩.
(٧) المرجع السابق ٢/٥٣ ـ ٥٤.
(٨) أنظر ما ذكره ابن تيمية في ذلك في الفتوى الحموية الكبرى.

الفصل الثالث

الفهم الخاطىء لمعنى أمية الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم

يظن بعض الناس أن رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم كانوا أميين - كما جاء وصفهم بذلك في الكتاب والسنة - بمعنى أنهم لم يكونوا علماء .

وهذا وهم وخطأ بالغ، فإن وصف رسول الله ﷺ بأنه النبي الأمي، ووصف أمته بالأمية لا يعني مطلقاً الجهل وعدم العلم .

ولعل خير من يشرح لنا المقصود بلفظ «الأمية» في الكتاب والسُّنة شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «تفسير سورة الإخلاص» حيث يذكر لنا أن كلمة «أميين» تطلق على نوعين من الناس:

١ - الذين لا يقرأون (ما هو مكتوب) ولا يكتبون .

٢ - الذين ليس لهم كتاب منزل من الله ، وإن كانوا يعرفون القراءة والكتابة .

وقد كان العرب قبل الإسلام أميين بهذين الاعتبارين ، إذ رغم أن بعضهم كان يعرف القراءة والكتابة إلا أن أكثرهم كانوا يجهلون ذلك، كما أنهم لم يكن لديهم كتاب منزل من الله ، على عكس اليهود والنصارى الذين كان عندهم التوراة والإنجيل، ولذلك سمَّاهم الله في كتابه الأميين فقال تعالى: **﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقداهتدوا﴾**(آل عمران: ٢٠)، وقال : **﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ﴾** (الجمعة : ٢) .

ولما جاء الإسلام وأنزل القرآن، لم يعد المسلمون أميين بالاعتبار الثاني إذ أصبح لديهم كتابهم المنزل، ولكن ظلوا أميين، بالاعتبار الأول كما في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب الشهر هكذا وهكذا»[1]. كما أن المسلمين بقوا أميين باعتبار أنهم لا يحتاجون إلى كتابة دينهم بل قرآنهم محفوظ في قلوبهم. كما في الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي ﷺ أنه قال في الحديث عن الله تبارك وتعالى: «حنفاء..». وقال فيه: «إني مبتليك ومبتل بك وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء[2] تقرأه نائماً ويقظاناً». فالمسلمون ليسوا مثل أهل الكتاب الذين لا يحفظون كتبهم في قلوبهم، بل لو عدمت المصاحف كلها كان القرآن محفوظاً في قلوب الأمة. والمسلمون ظلوا أميين لأن أكثرهم كان يكتفي بحفظ القرآن وتلاوته رغم جهلهم بالقراءة والكتابة، ولذلك قيل عنهم أن أناجيلهم في صدورهم. وقوله تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي﴾ (الأعراف: ١٥٨): هو أمي بهذا الاعتبار لأنه لا يكتب ولا يقرأ ما في الكتب، لا باعتبار أنه لا يقرأ من حفظه، بل كان يحفظ القرآن أحسن حفظ[3].

وعلى ذلك فأمية رسول الله ﷺ لا تعني أنه لم يكن أعلم الناس، فهو كما قال عن نفسه في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله عز وجل يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»، فالله عز وجل أعطاه العلم كله وهو ﷺ يقسمه بين أصحابه.

ولقد امتن الله تعالى عليه بالعلم فقال: **﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾** (النساء: ١١٣).

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وأحمد.
(٢) أي أنه كتاب محفوظ في الصدور وليس كتاباً مكتوباً بالحبر الذي يزول لو غسل بالماء.
(٣) أنظر تفسير سورة الأخلاص، ص ١٥٠ - ١٥١، ط. المنيرية، القاهرة، ١٣٥٢.

وأمية الصحابة رضوان الله عليهم إنما كانت قبل إسلامهم لعدم وجود كتاب منزل عندهم، وبعد ذلك لأنهم اكتفوا بالحفظ بدلاً من القراءة والكتابة. وقد كان العرب يعرفون بالقدرة على الحفظ، وكانوا يحفظون القصائد المطولة في أسرع وقت، كما أن التدوين لم يكن منتشراً بينهم، وجاء الإسلام فحث المسلمين على تعلم القراءة والكتابة، حتى كان من أسباب إطلاق سراح الأسير أن يعلّم عدداً من المسلمين القراءة والكتابة.

ولم يكن الصحابة رضوان الله عليهم يحصلون على ما حصلوا عليه من العلم بسهولة ويسر، بل كانوا يتحملون من أجله المشقة حرصاً منهم على تعلم أمر دينهم، فكانوا يتناوبون ملازمة رسول الله ﷺ لأخذ العلم عنه .

روى أبن عبد البر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن حديث، ما منعني إلاّ هيبته حتى تخلف في حج أو عمرة في الأراك الذي ببطن مر الظهران لحاجته فلما جاء وخلوت به، قلت: يا أمير المؤمنين إني أريد أن أسألك عن حديث منذ سنتين ما يمنعني إلاّ هيبة لك. فقال: فلا تفعل إذا أردت أن تسأل فسلني، فإن كان منه عندي علم أخبرتك، وإلاّ قلت: لا أعلم، فسألت من يعلم. قلت: من المرأتان اللتان ذكرهما الله أنهما تظاهرتا على رسول الله ﷺ قال: عائشة وحفصة. ثم قال: كان لي أخ من الأنصار وكنا نتعاقب النزول إلى رسول الله ﷺ، أنزل يوماً وينزل يوماً، فما أتى من حديث أو خبر أتاني به وأنا مثل ذلك، ونزل ذات يوم وتخلفت فجاءني.. الحديث[٤].

ومن هذا الحديث نرى حرص ابن عباس رضي الله عنه على السؤال عن معنى كل آية، وتحينه الفرص للسؤال عن أدق الأمور، ثم نتبين منه منهج الصحابة في متابعة الوحي والسنة، وكيف كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتناوب ملازمة رسول الله ﷺ مع جار له من الأنصار فيصحبه أحدهما يوماً

(٤) جامع بيان العلم ١/١١١ ـ ١١٢. ورواه ابن عبد البر من أكثر من طريق، كما أورده ابن كثير في تفسير سورة التحريم عن أحمد والبخاري ومسلم بألفاظ متقاربة. وقال: رواه الترمذي والنسائي.

ويخرج الآخر إلى تجارته أو عمله، ثم يلازمه الثاني في اليوم التالي وينصرف جاره إلى عمله.

روى البخاري وابن عبد البر عن أبي هريرة قال: «إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله. ما حدثت حديثاً: ثم تلا: **﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب﴾** (البقرة: ١٧٣) و**﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾** (البقرة: ١٥٩)، وإن إخواننا المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإخواننا الأنصار كان يشغلهم العمل في اموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ ليشبع بطنه ويحضر ما لا يحضرون»[٥] زاد البخاري: «ويحفظ ما لا يحفظون»[٦].

قال ابن رجب الحنبلي في رسالة «شرح حديث أبي الدرداء»[٧]: كان السلف رحمهم الله لقوة رغبتهم في العلم والدين يرتحل أحدهم إلى بلد بعيد لطلب حديث واحد يبلغه عن النبي ﷺ. وقد رحل أبو أيوب زيد بن خالد الأنصاري رضي الله عنه من المدينة إلى مصر للقاء رجل من الصحابة بلغه عنه حديث يبلغه عن النبي ﷺ، كذلك فعل جابر بن عبدالله رضي الله عنه مع كثرة ما سمع من النبي ﷺ وروى. وكان أحدهم يرحل إلى من هو دونه في الفضل والعلم لطلب شيء من العلم لا يجده عنده... وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: والله الذي لا إلٰه إلاّ هو، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلاّ وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلاّ وأنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه. وقال أبو الدرداء: لو أعيتني آية من كتاب الله فلم أجد أحداً يفتحها عليّ إلاّ رجل ببرك الغماد لرحلت إليه، «وبرك الغماد أقصى اليمن».

وأخرج البخاري وأحمد والطبراني والبيهقي - واللفظ له - عن جابر بن عبدالله: «بلغني حديث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ فابتعت

---

(٥) جامع بيان العلم ٩٦/١.

(٦) جاء الحديث في صحيح البخاري في عدة مواضع كتاب العلم، الاعتصام، البيوع، الحرث.

(٧) ص ٣ - ٥، ط. السلفية، مكة، ١٣٤٧.

بعيـرا فشددت عليـه رحلي ، ثم سـرت إليه شهـراً حتى قـدمت الشـام ، فـإذا عبدالله بن أنيس الأنصاري، فأتيت منزله، وأرسلت إليه أن جابراً عـلى الباب، فرجع إليّ الرسول فقال: جابـر بن عبدالله؟ فقلت نعم. فخـرج إليّ، فاعتنقتـه واعتنقني . قلت : حـديث بلغني عنـك أنـك سمعتـه من رســول الله ﷺ في من أصحــاب النبـي ﷺ فلو أشـأ أن أرســل إلـيــه حتى يجيئني فـيحــدثـني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يحشر الناس حفاة عراة غرلاً بهما. قال: قلنـا: ما بهما؟ قال ليس معهم شيء... الحديث»[٨].

وذكر ابن عبد البر عن ابن عباس قـال: «كان يبلغنـا الحديث عن رجـل من أصحــاب النبي ﷺ وسلّم فلو أشـأ أن أرســل إليـه حتى يجيئني فيحــدثني فعلت، ولكني كنت أذهب إليه فأقيل على بابه حتى يخرج إلي فيحدثني»[٩]

وروى البخاري في صحيحه عن عقبة بن الحارث أنـه أخبرتـه امرأة بـأنها أرضعته هو وزوجته، فركب من فوره ـ وكان بمكـة ـ قاصـداً المدينـة، حتى بلغ رسـول الله ﷺ، فسألـه عن حكم الله فيمن تزوج امـرأة لا يعلم أنها أختـه من الرضاع ثم أخبرته بذلك من أرضعتهما. فقال له النبيّ ﷺ: «كيف وقد قيـل!» ففارق زوجته لوقته فتزوجت بغيره[١٠].

وكان الصحابة يخطئون أحيانـاً في فهم معنى بعض آيات القـرآن فينبههم رسول الله ﷺ إلى خطئهم ويرشدهم إلى الصواب. ذكر الإمام أحمد عن عـدي بن حـاتم قال: «لما نزلت هـذه الآية : ﴿**وكلوا واشربـوا حتى يتبينّ لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود**﴾ (البقرة: ١٨٧) عهـدت إلى عقالـين أحدهمـا أسود والآخر أبيض قال: فجعلتهـما تحت وسادتي. فقـال: فجعلت أنظر إليهـما، فلما تبـينّ لي الأبيض من الأسود أمسكت، فلما أصبحت غـدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت، فقال: إن وسادك إذن لعريض، إنما ذلك بيـاض النهار

---

(٨) جامع بيان العلم ٩٣/١.
(٩) جامع بيان العلم ٩٤/١.
(١٠) الحديث في عدة مواضع من صحيح البخاري أنظر كتاب النكاح، الشهادات.

وسواد الليل ، أخرجاه في الصحيحين من غير وجه عن عدي »[11] .

وظن بعض الناس أن الصحابة لم يكونوا علماء - أو أفضل علماء المسلمين - جعلهم يعتبرون المتأخرين من العلماء أفضل منهم ومن السلف الأوائل، حتى قال بعضهم: «إن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أحكم»، ورتبوا على ذلك أن ما ذكره المتأخرون من آراء في الدين وإن خالف طريق الصحابة والسلف أولى بالاتباع لأنهم أعلم وطريقتهم أحكم ، وإن كان اتّباع طريق السلف أسلم للمسلم من الخطأ واضمن له بتجنب الانحراف.

وردنا على ذلك أن الصحابة أعلم المسلمين. وكل علماء الأمة عيال عليهم يأخذون عنهم ويستفيدون منهم. وطريق السلف أسلم وأحكم.

وقد أفاض العلماء في بيان هذه المسألة، وأسهب ابن القيّم في الحديث عنها في كتابه «اعلام الموقعين» وذكر فيه «وكما أن الصحابة سادة الأمة وأئمتها وقادتها فهم سادات المفتين والعلماء. قال الليث عن مجاهد: «العلماء أصحاب محمد ﷺ». وقال سعيد عن قتادة في قوله تعالى. ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذين أنزل إليك من ربك هو الحق﴾ (سبأ: ٦): قال: «أصحاب محمد ﷺ»[12]. وقال ابن عبد البر: «أخبرنا أحمد بن فتح . . . حدثنا بقية بن الوليد قال: قال لي الأوزاعي : يا بقية: العلم ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ، وما لم يجئ عن أصحاب محمد ﷺ فليس بعلم، يا بقية لا تذكر أحداً من أصحاب نبيك محمد ﷺ إلّا بخير، ولا أحداً من أمتك، وإذا سمعت أحداً يقع في غيره فاعلم أنه أنما يقول: خير منه»[13].

وقد جاء لفظ الأمية فى كتاب الله بمعنى الحفظ بدون فهم أو تدبر، وذلك

(١١) قال ابن كثير في تفسيره للآية «ومعنى وسادك إذن لعريض، أي أن كان ليسع الخيطين - الخيط الأبيض والأسود المرادين من هذه الآية - تحتها، فإنها بياض النهار وسواد الليل، فيقتضي بأن يكون بعرض المشرق والمغرب.

وجاء في بعض الألفاظ: إنك لعريض القفا، ففسره بعضهم بالبلادة وهو ضعيف، بل يرجع إلى هذا، لأنه إذا كان وساده عريضاً فقفاه أيضاً عريض، والله أعلم».

(١٢) أعلام الموقعين ١١/١ ، وانظر جامع بيان العلم ٢٩/٢ .

(١٣) جامع بيان العلم ٢٩/٢ .

في وصف الله عز وجل لأهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿**ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلاّ أماني وإن هم إلاّ يظنون**﴾ (البقرة: ٧٨). ويفسّر ابن تيمية الآية فيقول: «عن ابن عباس وقتادة في قوله: (ومنهم أميون) أي غير عارفين بمعاني الكتاب يعلمونها حفظاً وقراءة بلا فهم ولا يدرون ما فيه. وقوله: (إلاّ أماني) أي تلاوة، فهم لا يعلمون فقه الكتاب إنما يقتصرون على ما يسمعونه يتلى عليهم»[١٤].

وما جاء في وصف أهل الكتاب هو الذي يجوز أن يوصف به كثير من متأخري المسلمين بعد الصدر الأول من الإسلام، إذ كثر من يحفظون القرآن بدون فهم أو تدبر. وهذا ما نهانا الله عنه وأمرنا بخلافه.

يقول ابن تيمية في: «مقدمة في أصول التفسير»[١٥]: «وذلك أن الله تعالى قال: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته**﴾ (ص: ٢٩) وقال: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن**﴾ (النساء: ٨٢)، وقال: ﴿**أفلم يدبَّروا القول**﴾ (المؤمنون: ٦٨). وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن. وكذلك قال تعالى: ﴿ **إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون**﴾ (يوسف: ٢). وعقل الكلام متضمن لفهمه. ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك.

وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم».

وعلى ذلك فإن القول بأن أمية النبي وصحابته تعني الجهل أو قلة العلم هو قول باطل، بل العكس هو الصحيح إذ أن رسول الله ﷺ هو معلم الأمة وصحابته هم أعلم المسلمين، أما نحن اليوم فأكثرنا أميون أي يجهلون معاني الكتاب ولا يتدبرونه، وإن كان بعضنا يتلوه أو يحفظه، وواجبنا أن نصحح فهمنا واعتبارنا لعلم رسول الله وصحابته ثم أن نتأسى بهم في العلم والفهم والتدبر، والحرص على تحصيل العلم، ثم العمل بهذا العلم.

---

(١٤) تفسير سورة الإخلاص، ص ١٤٩.

(١٥) ص ٦ ـ ٧، ط. السلفية القاهرة، ١٣٧٠.

الفصل الرابع
التقليد المذموم

إن التقليد من أعظم الأمور التي صرفت المسلمين عن الاجتهاد في طلب العلم، وألجأتهم إلى الرجوع إلى مشايخهم ورؤسائهم بدون تفكير أو تمييز، وأدى هذا إلى العصبية الشديدة للمذاهب عند كثير من المسلمين، بل إلى متابعة الفرق والأهواء والبدع عند بعضهم، لأن المقلد لا يدرك أنه مخطئ حائد عن الصواب

ونودّ أولاً أن نفرّق بين التقليد المذموم والتقليد الجائز المباح ، فالمذموم هو الذي يقوم على الجهل والانقياد الأعمى بدون فهم وبصر، والجائز المباح هو ما قام على فهم الدليل ومعرفته، وهذا هو الذي سماه بعض العلماء بالاتباع.

يقول ابن عبد البر: «قال أبو عبدالله بن خويز منداد البصري المالكي: التقليد معناه في الشرع الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه، وذلك ممنوع منه في الشريعة، والاتباع ما ثبت عليه حجة»[1].

وقد أفاض العلماء في الكلام على التقليد المذموم، حتى إن ابن قيّم الجوزية خصص لهذا الموضوع ما يقرب من ثمانين صفحة من كتابه «إعلام الموقعين»[2]، وسنذكر هنا بعض الآيات والأحاديث التي تتصل بهذا الموضوع.

يقول الله تعالى: **﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا**

---

(١) جامع بيان العلم ٢/١١٧.

(٢) أنظر الجزء الثاني، ص ١٢٨ ـ ٢٠٧.

عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ (البقرة: ١٧٠) ويقول سبحانه: **﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾** (المائدة: ١٠٤) ويقول: **﴿وقالوا ربنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾** (الأحزاب: ٦٧).

يقول ابن عبد البرّ: «ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء وقد احتج العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين المقلدين بغير حجة للمقلد»[٣].

وقد نهى الله سبحانه المؤمنين عن التقليد وأمرهم بأن يردوا أمورهم إلى الله والرسول أو إلى الكتاب والسنّة، ونهاهم عن التعصب لقول يقدمونه على كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

يقول تعالى: **﴿اتّبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾** (الأعراف: ٣). يقول ابن القيّم: «فأمر باتباع المنزل خاصة، والمقلد ليس له علم أن هذا هو المنزل، وإن كان قد تبيّنت له الدلالة في خلاف قول من قلده فقد علم أن تقليده في خلافه اتباع لغير المنزل. وقال تعالى: **﴿فإن تنازعتم في شيء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾** (النساء: ٥٩) فمنعنا سبحانه من الرد إلى غيره وغير رسوله وهذا يبطل التقليد. وقال تعالى: **﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾** (التوبة: ١٦) ولا وليجة[٤] أعظم ممن جعل رجلاً بعينه مختاراً على كلام الله وكلام رسوله وكلام سائر الأمة، يقدمه على ذلك كله، ويعرض كتاب الله وسنّة رسوله وإجماع الأمة على قوله: فما وافقه منها قبله لموافقته لقوله وما خالفه منها

---

(٣) جامع بيان العلم ١٠٩/٢ ـ ١١٠.

(٤) وليجة الرجل خاصته وبطانته.

تلطف في رده وتطلب له وجه الحيل، فإن لم تكن هذه وليجة فلا ندري ما الوليجة!»[٥].

وقال أبو شامة الشافعي: «قال الله عز وجلّ: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ (النساء: ٦٥) فنفى سبحانه الإيمان عمن لم يحكم رسوله فيما وقع التنازع فيه ولم يستسلم لقضائه. وقال عز وجل: ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ (النور: ٥٤) فضمن الهداية سبحانه في طاعة رسوله، ولم يضمنها في طاعة غيره... وقال تعالى: ﴿ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم. ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾ (الأحزاب: ٣٦)[٦].

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب في «باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أرباباً»: «وعن عدي بن حاتم أنه سمع النبيّ ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ (التوبة: ٣١) فقلت له: إنّا لسنا نعبدهم. قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه. فقلت: بلى. قال: فتلك عبادتهم. رواه أحمد والترمذي وحسنه»[٧].

وروى البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[٨].

وقال ابن عبد البر: أخبرنا عبد الوارث بن سفيان... حدثنا كثيّر ابن

---

(٥) أعلام الموقعين ٢/١٢٩.

(٦) رسالة مختصر كتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول، ص٣٤، مجموعة الرسائل المنيرية، ج ٣، ط. القاهرة، ١٣٤٦.

(٧) كتاب التوحيد، ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٨) أنظر جامع بيان العلم ١٤٨ ـ ١٥٠.

عبدالله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني لأخاف على أمتي من بعدي من أعمال ثلاثة. قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: أخاف عليهم من زلة العالم، ومن حكم جائر، ومن هوى متبع» وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ أنه قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنّة رسوله»[9].

ثم يذكر ابن عبد البر: «حدّثنا سعيد بن نصر... قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ثلاث يهدمن الدين: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون»[10]... وقال ابن مسعود: ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن آمن، وإن كفر كفر، فإنه لا أسوة في الشر... وقال أيوب رحمه الله: ليس تعرف خطأ معلمك حتى تجالس غيره»[11]... وقد ذكر ابن مزين... عن مالك: ليس كلما قال رجل قولاً وإن كان له فضل يتبع عليه. يقول الله: ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ (الزمر: ١٨)[12].

وهذا الذي ذكره مالك رحمه الله قد ردده هو والأئمة الثلاثة في كثير من أقوالهم التي ثبتت عنهم، وهو قول كل أئمة المسلمين وعلمائهم. فمما أثر عن أبي حنيفة والشافعي رحمهما الله أنهما قالا: «إذا صح الحديث فهو مذهبي». وعن أبي حنيفة أيضاً أنه قال: «لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه». وعن مالك رحمه الله أنه قال: «إنما أنا بشر أخطىء وأصيب فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه» كما جاء عنه أنه قال: «ليس أحد بعد النبي ﷺ إلاّ ويؤخذ من قوله ويترك إلاّ النبي ﷺ».

ومما ثبت عن الشافعي رحمه الله أنه قال: «ما من أحد إلاّ وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب[13] عنه، فمهما قلت من قول، أو أصّلت من

---

(٩) جامع بيان العلم ٢/١١٠.
(١٠) المرجع السابق، نفس الصفحة.
(١١) السابق، ٢/١١٤.
(١٢) السابق ٢/١١٨.
(١٣) تعزب أي تغيب.

أصل، فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت، فالقول ما قال رسول الله ﷺ، وهو قولي».

وأما إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله فقد كان أكثر الأئمة الأربعة جمعاً للسنة وتمسكاً بها ورفضاً لآراء الرجال، ولذلك فإنه يقول: «لاتقلدني ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث أخذوا» ومن أقواله أيضاً: «رأي الأوزاعي ورأي مالك ورأي أبي حنيفة كله رأي، وإنما الحجة في الآثار». كذلك جاء عنه أنه قال: «من رد حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكة»(١٤).

وقد خالف أبو يوسف ومحمد بن الحسن إمامهما أبا حنيفة في كثير من المسائل، واختلفت فتاوى الشافعي وأقواله التي ذكرها في مصر عما سبق له أن أفتى به في العراق، حتى ميز العلماء بين مذهبه القديم في العراق ومذهبه الجديد في مصر. وعلى الرغم من أن شيخ الإسلام ابن تيميه كان حنبلياً متمسكاً بمذهب الإمام أحمد رحمه الله، إلّا أنه كانت له اختيارات كثيرة خالف فيها المذهب الحنبلي بل خالف فيها المذاهب الأربعة، ولذلك فهو يعد مجتهداً اجتهاداً جزئياً لا اجتهاداً مطلقاً.

وأخذ المتبع لمذهب فقهي معين بأقوال أخرى في مذهب آخر جائز على ألّا يكون ذلك على أساس تتبع الرخص فقط، بل على أساس البحث عما هو أصح وأكثر موافقة للكتاب والسنة، والأخذ بالرخص جائز مع عدم الاقتصار عليها فإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه(١٥).

---

(١٤) أقوال الأئمة الأربعة ملخصة من مقدمة كتاب «صفة صلاة النبي» للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ص ١٧ ـ ٢٥ (الطبعة الرابعة)، وقد ذكر أكثرها أبو شامة في رسالته السالفة الذكر، ص ٣١ ـ ٣٣.

(١٥) قال الشيخ عبد الوهاب خلاف رحمه الله في كتابه «علم أصول الفقه» ص ١٣٦ ط. ٤، القاهرة، ١٣٦٩/ ١٩٥٠: «الرخصة هي ما شرعه الله من الأحكام تخفيفاً على المكلف في حالات خاصة تقتضي هذا التخفيف، أو هي ما شرع لعذر شاق في حالات خاصة، أو هي استباحة المحظور بدليل مع قيام العذر.

وأما العزيمة فهي ما شرعه الله أصالة من الأحكام العامة التي لا تختص بحال دون حال ولا بمكلف دون مكلف».

ومما يلحق بالتقليد المذموم أن ترجع فئة أو جماعة من جماعات المسلمين إلى تفاسير وكتب ورسائل معينة يكتفون بها ويقتصرون عليها، يدرسونها ويحفظونها عن ظهر قلب، ولا يحاولون الرجوع إلى الكتاب والسنة، ولا يطّلعون على غيرها من كتب أو مراجع، فهذا ولا شك ما يمكن أن يضم إلى ما سبق أن تكلمنا عنه من التقليد المذموم.

وقد كان التقليد المذموم من أهم أسباب وجود الفرق الإسلامية وأصحاب الأهواء والبدع، وذلك أن أتباع تلك الفرق يأخذون بأقوال مشايخهم ورؤسائهم بدون مناقشة أو بحث، ويتعصبون لذلك تعصباً يعميهم عن رؤية الحق.

ويظهر هذا التقليد المذموم بجلاء في العلاقة بين المريد والشيخ عند الصوفية، فالمريد يجب أن يطيع شيخه في كل أمر حتى ولو لم يفهم سبب الأمر أو استنكره واستشنعه.

فالسهروردي البغدادي صاحب كتاب «عوارف المعارف» ـ مثل سائر شيوخ الصوفية ـ يسهب في بيان ضرورة طاعة المريد لشيخه طاعة عمياء، ومن ذلك قوله: «أدب المريد مع الشيخ أن يكون مسلوب الإرادة لا يتصرف في نفسه وماله إلاّ بمراجعة الشيخ وأمره»(١٦) وقوله: «فأحسن أدب المريد مع الشيخ السكوت والخمود والجمود حتى يبادئه الشيخ بما له فيه من الصلاح قولاً وفعلاً»(١٧) بل إن السهروردي يفسر الآية الكريمة التي سبق أن ذكرناها: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم. . .﴾ الآية فيقول: إن الله تعالى أنزل هذه الآية يعلِّم الصحابة فيها الأدب مع رسول الله ﷺ، وشرط فيها التسليم وهو الانقياد ظاهراً، ونفى الحرج وهو الانقياد باطناً، ثم يقول: «وهذا شرط المريد مع الشيخ بعد التحكيم، فلبس الخرقة (وهو لباس الصوفية) يزيل اتهام الشيخ عن باطنه في جميع تصاريفه، ويحذر الاعتراض على الشيوخ فإنه

---

(١٦) عوارف المعارف، ص ٢٨١، المكتبة العلامية، القاهرة، ١٣٥٨/١٩٣٩.
(١٧) السابق، ص ٢٨٢.

السم القاتل للمريدين، وقل أن يكون المريد يعترض على الشيخ بباطنه فيفلح»[18] ويقول في مكان آخر: «وقيل من قال لأستاذه: لا، لا يفلح أبداً»[19]. ويقول القشيري: «من صحب شيخا من الشيوخ ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة، ووجبت عليه التوبة، على أن الشيوخ قالوا: عقوق الأستاذين لا توبة عنه»[20].

ولا شك أن هذا الانقياد والخضوع الشديد للشيوخ هو نوع من أنواع الاستهواء النفسي الذي تذوب معه شخصية المريدين، وتسلب فيه إرادتهم وقدرتهم على النقد والتفكير. ويعرض ابن الجوزي لهذه الظاهرة النفسية المنحرفة ثم ينقدها قائلاً: «ولو كان لنا شيخ يسلم إليه حاله لكان ذلك الشيخ أبا بكر الصديق رضي الله عنه، وقد قال: إن اعوججت فقوموني، ولم يقل: فسلموا إليّ. ثم انظر إلى الرسول صلوات الله عليه كيف اعترضوا عليه، فهذا عمر يقول: ما بالنا نقصر وقد أمنّا. وآخر يقول: تنهانا عن الوصال وتواصل»[21].

والشيعة يقولون بعصمة أئمتهم، ويذكر المجلسي - وهو أحد كبار علمائهم في كتابه «حياة القلوب» ما يلي[22]: «إعلم أن إجماع علماء الإمامية قد انعقد على أن الإمام معصوم من جميع الذنوب صغيرة كانت أم كبيرة من أول العمر إلى آخره، لا عمداً ولا سهواً». بل إن فرقة من الشيعة: «يزعمون أن الرسول ﷺ جائز عليه أن يعصي الله، وأن النبي قد عصىٰ في أخذ الفداء يوم بدر، فأما الأئمة فلا يجوز ذلك عليهم، لأن الرسول إذا عصا فالوحي يأتيه من قبل الله، والأئمة لا يوحى إليهم ولا تهبط الملائكة عليهم، وهم معصومون فلا

---

(18) السابق، ص ٧١.

(19) السابق، ص ٢٨٦، وأنظر الرسالة القشيرية ٢/٦٣٤.

(20) الرسالة القشيرية ٢/٦٣٣ - ٦٣٤، القاهرة ١٣٨٥/ ١٩٦٦.

(21) تلبيس ابليس، ص ٣٧٣.

(22) جـ ٣ ص ٢٧ (نقلاً عن عقيدة الشيعة لدونالدسون، ص ٣١٧، ط. الخانجي، القاهرة، ١٣٦٥/ ١٩٤٦).

يجوز أن يسهوا أو يخطئوا، وإن جاز على الرسول العصيان. والقائل بهذا القول هشام ابن الحكم»[٢٣].

ولا شك أن ما وقع فيه أكثر المسلمين اليوم من الافتتان بالحضارة الغربية، والتأثر الشديد بها في أكثر شؤون حياتهم، إنما هو أثر من آثار التقليد الأعمى، وهذا يفسر سبب أمر النبي ﷺ المسلمين بمخالفة المشركين واليهود والنصارى وعدم التشبه بهم، كما يوضح سر أمره ﷺ بألا نكون إمّعات إن أحسن الناس أحسنا وإن أساءوا أسأنا.

على أن معترضاً قد يعترض فيقول: إن قولك بعدم جواز التقليد يعني أنك تكلف الناس أن يكونوا مجتهدين، وأن يتركوا أعمالهم ويتفرغوا للعلم والدراسة.

وقد ذكر بعض المسلمين قديماً مثل هذا الاعتراض، وأورد ابن قيم الجوزية اعتراضهم في كتابه «اعلام الموقعين» فقال: «قولكم: لو كلف الناس كلهم الاجتهاد وأن يكونوا علماء ضاعت مصالح العباد وتعطلت الصنائع والمتاجر، وهذا مما لا سبيل إليه شرعاً وقدراً».

وقد أجاب ابن القيم على هذا الاعتراض من وجوه عدة يمكن تلخيصها كما يلي:-

الوجه الأول: أن من رحمة الله سبحانه أنه لم يكلفنا بالتقليد، فلو كلفنا لضاعت أمورنا وفسدت مصالحنا، لأنا لم نكن ندري من نقلد من المفتين والفقهاء، ولو قلدنا كل عالم لوقعنا في الاضطراب، ولكلفنا بتحليل الشيء وتحريمه معاً، ولو كلفنا بتقليد أعلم المسلمين فإن معرفة ما دل عليه الكتاب والسنة من الأحكام أسهل بكثير من معرفة الأعلم والبحث عنه.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه لم يوجب على الأمة إلّا ما فيه حفظ دينها ودنياها وصلاحها في معاشها ومعادها، وذلك عن طريق النظر والاستدلال،

---

(٢٣) مقالات الإسلاميين للأشعري ١/١١٥، القاهرة، ١٣٦٩/١٩٥٠.

وبإهمال ذلك وتقليد من يخطيء ويصيب ضياع مصالح الأمة وفساد أمورها، فما خراب العالم إلاّ بالجهل ولا عمارته إلاّ بالعلم.

الوجه الثالث: أن الواجب على كل مسلم أن يعرف ما يخصه من الأحكام، ولا يجب عليه أن يعرف ما لا تدعوه الحاجة إلى معرفته (فمن لا مال عنده لا تجب عليه معرفة أحكام الزكاة مثلاً) وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم قائمين بمصالحهم ومعاشهم يعملون ويزرعون ويتاجرون، وهم مع ذلك أعلم المسلمين.

الوجه الرابع: أن العلم النافع الواجب على المسلمين قد يسّره الله للناس، فكتاب الله ميسّر للذكر كما قال تعالى: ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدَّكر**﴾ (القمر: ١٧): قال البخاري في صحيحه: قال مطر الوراق: هل من طالب علم فيعان عليه؟ وسنة رسول الله ﷺ مضبوطة محفوظة، أصول الأحكام التي تدور عليها نحو خمسمائة حديث، وتفاصيلها نحو أربعة آلاف حديث[٢٤].

هذا كلام ابن القيم رحمه الله في القرن الثامن الهجري في وقت كان العلم فيه مشاعاً بين الناس، وقل فيه حتى من العامة من لا يعرف الضروريات من أمور الدين، أما في زماننا هذا فقد عم الجهل بالدين والإعراض عنه، فأصبح واجب علماء الشريعة ثقيلاً. كما أصبح من الواجب على عامة المسلمين ألا يقنعوا بما تعلموه في مدارسهم - التي يخضع أكثرها لنظم مستحدثة تبعدهم عن معرفة دينهم - بل يجب عليهم أن يعوضوا بجهدهم الشخصي وبالأخذ عن العلماء ما فاتهم من العلم، وقد يخرج منهم - إذا صدقت النية - أعظم العلماء بإذن الله.

---

(٢٤) أنظر: اعلام الموقعين ٢/١٨٦ - ١٨٨.

القسم الأول
الباب الثالث

جوانب إيجابية

الفصل الأول: فضل العلم ووجوبه .

الفصل الثاني: العلاقة بين العلوم التجريبية العصرية وعلوم الدين

الفصل الثالث: العلم والعمل .

الفصال الرابع: العلم والجهاد .

الفصل الخامس: العلم ومستقبل الأمة الإسلامية .



جوانب إيجابية

بعد أن عرضنا في الباب السابق لعوائق منعت المسلمين قديماً وحديثاً من الإقبال على العلم، نتناول في هذا البحث جوانب إيجابية تتصل بموضوع هذا القسم الأول من الكتاب وهو الإسلام والعلم.

أما الفصل الأول من هذا الباب فسنتكلم فيه عن فضل العلم كما بينه الكتاب والسنّة، ثم نبحث أمر وجوب العلم ومتى يكون فرض عين ومتى يكون فرض كفاية.

وفي الفصل الثاني نحدد المقصود بالعلم الذي تشير إليه آيات الكتاب وأحاديث النبي صلوات الله عليه وسلامه، وهل يمكن أن نلحق به العلوم العصرية التجريبية من كيمياء ورياضيات وعلوم الطب وغير ذلك، أم أن المقصود بالعلم الذي جاء في الكتاب والسنة هو علوم الدين فقط.

وفي الفصل الثالث نبحث إحدى المشكلات الهامة، وهي علاقة العلم بالعمل، وهل العلم مجرد وسيلة للعمل أم هو غاية في ذاته، وما جدوى العلم الذي يتصف به بعض المسلمين ولكنه لا يدفعهم إلى العمل...

أما الفصل الرابع فندرس فيه الصلة بين العلم والجهاد، إذ أننا في هذه الحقبة التي تمر بها أمتنا المسلمة أحوج ما نكون إلى توجيه شبابنا إلى هذه الفريضة التي ذل المسلمون حينما تركوها وانصرفوا عنها ألا وهي الجهاد في سبيل الله. ولكننا أيضاً نحتاج إلى أن يكون جهادهم على بصيرة وهدى، حتى لا تدفعهم الحماسة إلى مسالك تبعدهم عن الطريق السوي، وقد تؤدي بهم إلى الضلال والمروق بدلاً من أن تكون سبباً في تحقيق طاعة الله ونيل ثوابه.

حتى إذا ما بلغنا الفصل الخامس والأخير من هذا الباب أكدنا المعنى الذي هدفنا إليه من بداية الأمر، وهو أن العلم هو طريق النجاة الوحيد الذي يمكن أن ينقذ الأمة الإسلامية مما يحيط بها من ظلمات بعضها فوق بعض، بل هو الوسيلة التي يمكن أن تؤدي إلى ظهور هذا الدين وانتشاره حتى يعم العالم وينقذه مما تردى فيه من إثم وبغي وفساد ظهر في البر والبحر.

الفصل الأول

فضل العلم ووجوبه

ألّف كثير من علماء المسلمين كتباً ورسائل في بيان فضل العلم، من أشهرها وأنفعها كتاب «جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته، وحمله» لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي، وكتاب «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية.

وألّف الإمام زين الدين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي رسالة في «شرح حديث أبي الدرداء فيمن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً» أورد فيها بعض الآيات التي جاءت في فضل العلم والعلماء مثل قوله تعالى: **﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾** (الزمر: ٩)، وقوله عز وجل: **﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾** (المجادلة: ١١)، قال ابن رجب: «يعني على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم، كذا قال ابن مسعود وغيره من السلف»[١].

ويقول ابن رجب بعد ذلك: «خواص الرسل إنما فضلوا على غيرهم من الأنبياء بمزيد العلم المقتضي لزيادة المعرفة بالله وخشيته. ولهذا وصف الله في كتابه محمدا ﷺ ومدحه بالعلم الذي اختصه به وامتن به عليه في مواضع كثيرة، وأمره أن يعلمه لأمته. فأول ما ذكره بالعلم وبتعليمه في قصة إبراهيم حين دعا ربه لأهل البيت الحرام أن يبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم

---

(١) شرح حديث أبي الدرداء، ص ٣١.

الكتاب والحكمة ويزكيهم [٣]. ثم امتن علينا بأن بعث فينا رسولاً منا، وهو محمد ﷺ بهذه الصفة، فقال تعالى: ﴿**لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عيهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾ (آل عمران: ١٦٤).

وأول ما أنزل على محمد ﷺ ذكر العلم وفضله، وهو قوله تعالى: ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علّم بالقلم * علّم الإنسان ما لم يعلم**﴾ (العلق: ١ - ٥). وامتن على محمد ﷺ بالعلم في مواضع كقوله تعالى: ﴿ **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً**﴾ (النساء: ١١٣)، وأمره أن يسأل ربه علما فقال: ﴿**وقل رب زدني علماً**﴾ (طه: ١١٤) [٣].

أما الأحاديث النبوية في فضل العلم فمنها حديث أبي الدرداء الذي رواه ابن رجب في أول رسالته فقال: «أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه في كتبهم أن رجلاً قدم من المدينة على أبي الدرداء، وهو بدمشق فقال: ما أقدمك يا أخي قال: حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ. قال: أما جئت لحاجة؟ قال: لا. قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا. قال: ما جئت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله له به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يطلب، وأن العالم ليستغفر له من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وأن العلماء ورثة الأنبياء، وأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» [٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله. ﷺ: «إذا مات

---

(٢) الإشارة هنا إلى الآية رقم ١٢٩ من سورة البقرة.

(٣) شرح حديث أبي الدرداء، ص ٣٦ - ٣٧. وانظر مفتاح دار السعادة، ص ٥٢ - ٦٥، ط. القاهرة، ١٣٥٨/١٩٣٩.

(٤) نفس المرجع، ص ٣.

الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء: من صدقة جارية، أو علم ينتفع به بعده، أو ولد صالح يدعو له» (٥)

وعن ابن عمر وأبي هريرة - وهو في الصحيحين عن معاوية رضي الله عنهم: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» (٦)

وروى أحمد في مسنده عن معاذ بن جبل، وهو في الصحيحين عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمر النعم»(٧).

وعن أبي مسعود الأنصاري البدري، قال، قال: رسول الله ﷺ. «الدّال على الخير كفاعله»(٨). وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الأثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً». قال ابن القيم: «أخبر ﷺ أن المتسبب إلى الهدى بدعوته له مثل أجرى من اهتدى به، والمتسبب إلى الضلالة بدعوته عليه مثل إثم من ضل به»(٩).

وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها» (١٠).

---

(٥) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم ١/١٥، وعلق عليه الشيخ منير الدمشقي بقوله: رواه البخاري في الأدب المفرد ومسلم في صحيحه وأبو داود والنسائي والترمذي.

(٦) جامع بيان العلم ١/١٩ - ٢٠، مفتاح دار السعادة، ص ٦٥.

(٧) مفتاح دار السعادة، ص ٦٧. وانظر تعليق العراقي على الحديث الذي أورده الغزالي في كتاب العلم من «إحياء علوم الدين».

(٨) قال العراقي: رواه مسلم وأبو داود والترمذي وصححه عن أبي مسعود البدري بلفظ: من دل على خير فله مثل أجر فاعله، وانظر جامع بيان العلم ١/١٦.

(٩) مفتاح دار السعادة، ص ٦٧.

(١٠) جامع بيان العلم ١/١٧، مفتاح دار السعادة، ص ٦٧ - ٦٨، والحسد هنا هو حسد الغبطة، وليس الحسد بمعنى تمني زوال نعمة المحسود.

ويشرح ابن عبد البر معنى كلمة الحكمة في الحديث مستشهدا بتفسير قتادة لقوله تعالى: ﴿**واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة**﴾ (الأحزاب: ٣٤)، قال قتادة: من القرآن والسنة، وكذا بتفسير الحسن لقوله تعالى: ﴿**ويعلمهم الكتاب والحكمة**﴾ (البقرة: ١٢٩) قال الحسن: الكتاب القرآن والحكمة السنة.

وأما مالك بن أنس رحمه الله فبعد أن ذكر قول الله تعالى في يحيى عليه السلام: ﴿**وآتيناه الحكم صبيا**﴾ (مريم: ١٢)، وقوله عز وجل في عيسى عليه السلام: ﴿ **قد جئتكم بالحكمة**﴾ (الزخرف: ٦٣) وقوله: ﴿**ويعلمه الكتاب والحكمة**﴾ آل عمران: ٤٨)، وقوله: ﴿**واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة** ﴾ قال مالك: الحكمة في هذا كله: طاعة الله والاتباع لها والفقه في دين الله والعمل به.

وروى الترمذي بسند حسن صحيح عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي» [١١].

وروى ابن عبد البر عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» [١٢].

وقد ساق ابن عبد البر الحديث من ثلاثة عشر وجهاً في بعضها زيادات مثل: «طلب العلم فريضة على كل مسلم، وطالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر» ومثل: «اطلبوا العلم ولو في الصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم» [١٣] ومثل: «طلب العلم فريضة على كل مسلم والله يحب إغاثة اللهفان» [١٤].

---

(١١) أنظر: تعليق العراقي على كتاب العلم من إحياء علوم الدين، مفتاح دار السعادة، ص ٦٨، جامع بيان العلم ١/ ٢١ ـ ٢٢.

(١٢) جامع بيان العلم ١/ ٧. وعلق عليه الحافظ العراقي بقوله: رواه ابن ماجه من حديث أنس وضعفه أحمد والبيهقي وغيرهما.

(١٣) قال العراقي معلقاً على هذه الزيادة: رواه ابن عدي والبيهقي في المدخل والشعب من حديث أنس، قال البيهقي: متنه مشهور وأسانيده ضعيفة.

(١٤) جامع بيان العلم ١/ ٧ ـ ٩.

ونقل ابن عبد البر عن اسحق بن راهويه أنه قال: طلب العلم واجب، ولم يصح فيه الخبر، إلا أن معناه أنه يلزمه طلب علم ما يحتاج إليه من وضوئه وصلاته، وزكاته إن كان له مال وكذلك الحج وغيره. وعلق ابن عبد البر على ذلك بقوله: «يريد اسحاق - والله أعلم - أن الحديث في وجوب طلب العلم في أسانيده مقال لأهل العلم بالنقل، ولكن معناه صحيح عندهم، وإن كانوا قد اختلفوا فيه اختلافاً متقارباً»[١٥].

وقال ابن قيّم الجوزية بعد أن ذكر الحديث عن أبي يعلى الموصلي في مسنده: هذا وإن كان في سنده حفص بن سليمان وقد ضُعِّف فمعناه صحيح، فإن الإيمان فرض على كل أحد، وهو ماهية مركبة من علم وعمل، فلا يتصوّر وجود الإيمان إلاّ بالعلم والعمل. ثم إن شرائع الإسلام واجبة على كل مسلم، ولا يمكن أداؤها إلاّ بعد معرفتها والعلم بها. والله تعالى أخرج عباده من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، فطلب العلم فريضة على كل مسلم وهل تمكن عبادة الله التي هي حقه على العباد كلهم إلاّ بالعلم، وهل ينال العلم إلاّ بطلبه؟»[١٦].

ويتفق ابن عبد البر وابن القيّم على أن من العلم ما هو فرض عين ومنه ما هو فرض كفاية، ويفصّل كل منهما القول في ذلك[٣]. ويقسّم ابن القيّم العلم الذي هو فرض عين إلى أربعة أنواع[١٧].

«النوع الأول: علم أصول الإيمان الخمسة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فإن من لم يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل في باب الإيمان ولا يستحق اسم المؤمن. قال الله تعالى: **﴿ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾** (البقرة: ١٧٧)، وقال: **﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾** (النساء: ١٣٦).

---

(١٥) السابق ١/٩ وانظر ص ٩ - ٢٠.

(١٦) مفتاح دار السعادة: ص ١٧٠.

(١٧) أنظر جامع بيان العلم ١/١٠ - ١١، مفتاح دار السعادة، ص ١٧٠ - ١٧١.

ولما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. قال: صدقت[١٨]. فالإيمان بهذه الأصول فرض معرفتها والعلم بها.

النوع الثاني: علم شرائع الإسلام، واللازم منها علم ما يخص العبد من فعلها، كعلم الوضوء والصلاة والصيام والحج والزكاة وتوابعها وشروطها ومبطلاتها.

النوع الثالث: علم المحرمات الخمسة التي اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الإلهية، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿**قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والأثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾ (الأعراف: ٣٣) فهذه محرمات على كل واحد، في كل حال، على لسان كل رسول، لا تباح قط، ولهذا أتى فيها بإنما المفيدة للحصر مطلقاً، وغيرها محرم في وقت، مباح في غيره، كالميتة والدم ولحم الخنزير ونحوه، فهذه ليست محرمة على الإطلاق والدوام، فلم تدخل تحت التحريم المحصور المطلق[١٩].

النوع الرابع: علم أحكام المعاشرة والمعاملة التي تحصل بينه وبين الناس خصوصاً وعموماً. والواجب في هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم، فليس الواجب على الإمام مع رعيته، كالواجب على الرجل مع أهله وجيرته، وليس الواجب على من نصب نفسه لأنواع التجارات من تعلم أحكام البياعات، كالواجب على من لا يبيع ولا يشتري إلا ما تدعو الحاجة إليه».

أما العلم الذي هو فرض كفاية فيقول ابن القيم أنه لا يعلم فيه ضابطاً

---

(١٨) الإشارة هنا إلى الحديث الذي رواه مسلم عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في أول كتاب الإيمان من صحيحه ـ وفيه بعد قوله: واليوم الآخر: «وتؤمن بالقدر خيره وشره». وقال ابن الأثير في «جامع الأصول» أن الحديث رواه مسلم والنسائي والترمذي، وأبو داود، وذكر رواياته المختلفة. أنظر جامع الأصول ١/١٠/١٢٨ ـ ١٢٦، القاهرة، ١٣٦٨/١٩٤٩.

(١٩) أي أن هذه المحرمات تباح عند الضرورة مثل لحم الخنزير الذي يباح أكله للمشرف على الموت جوعاً.

صحيحاً فإن كل أحد يدخل في ذلك ما يظنه فرضاً [٢٠]، وبعد أن يذكر الآراء المختلفة في ذلك ينتهي إلى أن كل علم تتوقف معرفة العلوم التي هي فرض عين عليه فهو من باب ما لا يتم الواجب إلا به [٢١].

أما ابن عبد البر فهو بعد أن يحدد العلم الذي هو فرض عين تحديداً لا يختلف كثيراً عن تحديد ابن القيم له يقول: «ثم سائر العلم وطلبه والتفقه فيه، وتعليم الناس إياه، وفتواهم به في مصالح دينهم ودنياهم، فهو فرض على الكفاية، يلزم الجميع فرضه، فإذا قام به قائم سقط فرضه عن الباقين، لا خلاف بين العلماء في ذلك، وحجتهم فيه قول الله عز وجل: **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾** (التوبة: ١٢٢)، فلزم النفير في ذلك البعض دون الكل، ثم ينصرفون، فيعلّمون غيرهم. والطائفة في لسان العرب: الواحد فما فوقه» [٢٢].

وعلى ذلك فإن كل علم - ديني أو دنيوي - لا يستغني عنه جماعة المسلمين، فإن تعلمه يكون فرض كفاية على الأمة الإسلامية، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وهذا ما سوف نعرض له في الفصل التالي بإذن الله.

---

(٢٠) مفتاح دار السعادة، ص ١٧١.

(٢١) السابق، ص ١٧١ - ١٧٣.

(٢٢) جامع بيان العلم ١٢/١.

الفصل الثاني

العلاقة بين العلوم التجريبية العصرية وعلوم الدين

إن العالم الإسلامي وقد روّع بالغزو الغربي الصليبي والصهيوني يجتاحه في عقر داره، ويمزق أوصاله، ويستعمر أكثر بلدانه، أدرك بوضوح وجلاء أن من أهم أسباب انهياره واستسلامه ما أصابه من تخلف في ميدان العلوم التجريبية الحديثة.

وقد أحدث ذلك رد فعل شديد عند بعض العرب والمسلمين، فنادوا بوجوب الأخذ بكل حديث في العلوم التجريبية والتكنولوجية، مع إهمال كل العلوم النظرية القديمة، وأدخل بعضهم في هذه العلوم النظرية علوم الدين، وعبر عن وجهة نظرهم أحد أدباء لبنان حينما قال ما معناه: أنا الشرق عندي حكمة ونظريات وفلسفات، من يبيعني بها مدافع ودبابات؟

وكان هؤلاء بذلك أشد حماسة للعلوم الحديثة من الغربيين أنفسهم، فإنهم كانوا يعلمون حق العلم أن تقدمهم العلمي التكنولوجي إنما بني على أسس فكرية نظرية منهجية، وأي دارس للحضارة الغربية الحديثة يعلم أنها قامت على دعامتين: الديانة المسيحية، والتراث الفكري الكلاسيكي (وهو التراث التقليدي المستمد من الحضارتين اليونانية والرومانية). وقد ظلت حضارة الغرب ظافرة منتصرة بسبب هذا الارتباط بين الجانبين الفكري النظري، والعلمي التطبيقي، ولكنها كانت حضارة غير إنسانية لأن الجانب العلمي التطبيقي رجح على الجانب الفكري النظري، فضلاً عن أن هذا الجانب الأخير بما فيه من أصول فاسدة سواء في الدين أو الفكر، لم يتمكن من سد الفراغ النفسي الروحي، والقيام بدور فعال في النواحي الأخلاقية والسلوكية.

وقـابل تـطرف المنادين بـالأخذ بـالعلوم العصرية فقط، تـطرف آخـر من بعض المحافظين المتزمتين الذين قالـوا إن كل علم غـير علوم الدين لا نفـع فيه ولا فائدة منه، وليس هو مما أمرنـا الله بتحصيله، وقد أرسـل الله إلينا الكتـاب وجعله تبيـاناً لكـل شيء. وقد قـال تعالى: ﴿مـا فرطنـا في الكتاب من شيء﴾ (الأنعـام: ٣٨)، وكل علم نـافع فهـو في الكتاب والسنـة، وما لا يـوجد فيهـما فليس بعلم نافع.

وقد رويت أحاديث يستند إليها أصحاب هذا الرأي الأخير ولكنها لا تخلو من مقـال، منهـا مـا رواه ابن عبـد الـبر قـال: حـدثنـا أبـو عبـدالله محمـد بن خليفة. . . . حدثنا عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعـافري عن عبـد الرحمن بن رافع التنوخي عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «العلم ثلاثة فما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة، وسنة قائمة، وفريضة عادلة». قال ابن الديبع الشيباني في كتابه «تيسير الوصول إلى جـامع الأصـول»: أخرجـه أبو داود [1] وشرح الحديث بقولـه: «الآية المحكمـة: هي الآية التي لا اشتبـاه فيها ولا اختـلاف وما ليس بمنسـوخ، والسنة القـائمـة: هي الـدائمـة المستمـرة التي العمل بها متصل لا يترك، والفريضة العـادلة: هي التي لا جـور فيها ولا حيف في قضائها».

وروى الحديث ابن عبد البر في «جامعـه» [2] وروي عن أبي هريـرة رضي الله عنه أن «النبي ﷺ دخل المسجـد فرأى جمعاً من الناس عـلى رجل، فقـال: وما هذا؟ قالوا: يا رسول الله رجل علامة. قال: ومـا العلامـة؟ قالـوا: أعلم النـاس بأنسـاب العربيـة، وأعلم الناس بشعـر، وأعلم الناس بمـا اختلف فيـه العرب. فقال: رسول الله ﷺ: هذا علم لا ينفـع وجهل لا يضر». ثم يقـول ابن عبد البر: «وقال رسول الله ﷺ: العلم ثـلاثة، ومـا خلا فهـو فضل: علم

---

(١) الحديث في سنن ابن ماجه المقدمـة. وهو في سنن أبي داود ١١٤/٣ بتحقيق الشيـخ محمد محيي الدين عبد الحميـد، وذكر المحقق أن في إسنـاده عبد الـرحمن بن زياد بن أنعم الإغريقـي، وفيه مقال، وفيه أيضاً عبد الرحمن بن رافع التنوخي، وقد غمزه البخاري وابن أبي حاتم.

(٢) جامع بيان العلم ٢٣/٢.

آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة» [٣].

ويعلق ابن عبد البر على ذلك تعليقاً يدل على فقهه وعمق علمه فيقول: «في إسناد هذا الحديث رجلان لا يحتج بهما، وهما: سليمان[٤]، وبقية، فإن صح كان معناه أنه علم لا ينفع مع الجهل بالآية المحكمة والسنة القائمة والفريضة العادلة، ولا ينفع في وجه ما، وكذلك لا يضر جهله في ذلك المعنى وشبهه، وقد ينفع ويضر في بعض المعاني لأن العربية والنسب عنصرا علم الأدب» [٥].

ويقول ابن تيمية في كتابه «نقض تأسيس الجهمية» [٦]: «وأما قوله تعالى: **﴿ما فرَّطنا في الكتاب من شيء﴾** فهو بعد قوله تعالى: **﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾** (الأنعام: ٣٨) ولهذا قال أكثر العلماء أن الكتاب هنا هو اللوح المحفوظ».

ويعرض ابن تيمية لتفرقة بعض الناس بين العلوم الشرعية والعلوم العقلية. ويذكر أن من الخطأ الظن بأن العلوم الشرعية هي ما أخبر به الشارع فقط بل كل علم دل عليه الشارع وأرشد إليه يعد علماً شرعياً. ثم يقول: «وبهذا التحرير يتبين لك أن عامة المتفلسفة وجمهور المتكلمة جاهلة بمقدار العلوم الشرعية ودلالة الشارع عليها، وبوهمهم علوّ العلوم العقلية عليها، فإن جهلهم ابتنى على مقدمتين جاهلتين: إحداهما أن الشرعية ما أخبر الشارع بها، والثانية: أن ما يستفاد بخبره فرع للعقليات التي هي الأصول، فلزم من ذلك تشريف العقلية على الشرعية.

وكلا المقدمتين باطلة، فإن الشرعيات ما أخبر الشارع بها وما دل الشارع عليها. وما دل الشارع عليه ينتظم جميع ما يحتاج إلى علمه بالعقل» [٧].

(٣) السابق ٢/ ٢٣ ـ ٢٤.
(٤) وهو: أبو أيوب سليمان بن محمد الخزاعي.
(٥) جامع بياني العلم ٢/ ٢٤.
(٦) وهو مخطوط بمكتبة ليدن بهولندا ومنه نسخة مصورة عندي.
(٧) مجموع ٦٩، مخطوط بمكتبة الظاهرية بدمشق، ورقة ١١٩ وهو مصور عندي.

فإذا علمنا أن العلوم العقلية في عصر ابن تيمية كانت تشمل أكثر العلوم التجريبية مثل الطب والرياضيات والطبيعيات وغير ذلك، فهمنا من كلام ابن تيمية أن هذه العلوم تعد شرعية ما دام الشرع يدلنا عليها، وهو يحدد هذا المعنى ويوضحه بعد ذلك حيث يقول: «وأما إذا أريد بالشرعية ما شرع علمه فهذا يدخل فيه كل علم مستحب أو واجب، وقد يدخل فيه المباح. . . . وما علم بالعقل وحده فهو من الشرعية أيضاً، إذا كان علمه مأموراً به في الشرع»[٨].

ولا ريب أن العلوم التجريبية التكنولوجية الحديثة هي من العلوم التي أمر الشارع بها ودل عليها لأنها الوسيلة الوحيدة للوصول إلى التقدم والحضارة في كافة الميادين، وخاصة في ميدان القوة العسكرية والسياسية، فالحرب اليوم حرب تعتمد أولاً على العلم، وهذا داخل في قوله تعالى: ﴿**وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم**﴾ (الأنفال: ٦٠) وإذا كان إعداد القوة أمراً واجباً، وكان العلم هو من أهم وسائل إعداد القوة، فالعلوم التجريبية العصرية واجبة لأنها داخلة في قاعدة: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

على أن دراستنا للعلوم التجريبية والتكنولوجية يجب ألا ترتبط بالأصول الفكرية للحضارة الأوروبية، ويجب أن يوجد من علمائنا من يتمكن من تحرير هذه العلوم من تلك الأصول، وربطها بأصولنا الإسلامية الإعتقادية والثقافية. وهذا أمر لا يجوز تأخيره أو التقصير فيه، وقد كان خوف بعض القدماء من علوم الأوائل التي جاءت مع اطلاعنا على الحضارة اليونانية وغيرها من الحضارات سبباً في عزوف كثير من العلماء الصالحين عن دراسة تلك العلوم. وقد كانت تلك العلوم من طبيعية ورياضية وغيرها قسماً من أقسام الفلسفة التي بنيت على أصول اعتقادية وثنية، ولذلك حذّر كثير من العلماء من تلك «الفتنة اليونانية» في حين أن بعض الأئمة ـ ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رأى

---

(٨) نفس المرجع ونفس الصفحة.

وجوب تعلم تلك العلوم مع عزلها عن أصولها الفلسفية والاعتقادية، ولا شك أن حاجتنا إلى هذه العلوم أشد بكثير من حاجتنا إليها في الماضي، بل يمكننا القول بأن تعلمنا لها هو من باب فرض الكفاية.

ولا يعني قولنا بضرورة تعلم العلوم التجريبية والتكنولوجية العصرية أنها أهم أو أشرف من علوم الدين، بل إن مثل تلك العلوم كمثل الخبز أو الطعام الذي لا يمكن أن نحيا بدونه، ولكنه مع ذلك ليس أفضل من الشهادتين أو الصلاة، فنحن لا نستغني مطلقاً عن الطعام ولكننا كذلك لا نقدمه على الدين. فبالغذاء يحافظ الإنسان على حياته ويقوي على طاعة ربه، وبالدين يحيا المسلم حياة صحيحة في الدنيا ويسلم في الآخرة.

وقد وضع ابن عبد البر المسألة في وضعها الصحيح عندما قسّم العلوم إلى ثلاثة أقسام: علم أعلى وعلم أوسط وعلم أسفل. يقول ابن عبد البر: «والعلوم عند جميع أهل الديانات ثلاثة: علم أعلى وعلم أسفل وعلم أوسط. فالعلم الأعلى عندهم علم الدين الذي لا يجوز لأحد الكلام فيه بغير ما أنزله[٩] الله في كتبه وعلى ألسنة أنبيائه صلوات الله عليهم نصاً.

والعلم الأوسط هو معرفة علوم الدنيا التي يكون معرفة الشيء منها بمعرفة نظيره، ويستدل عليه بجنسه ونوعه، كعلم الطب والهندسة.

والعلم الأسفل هو أحكام الصناعات وضروب الأعمال، مثل السباحة والفروسية والزي والتزويق والخط، وما أشبه ذلك من الأعمال التي هي أكثر من أن يجمعها كتاب، أو يأتي عليها وصف، وإنما تحصل بتدريب الجوارح فيها»[١٠].

ويذكر ابن عبد البرّ أن تقسيم هذه العلوم هو كذلك عند أهل الفلسفة وأن العلم الأعلى عندهم يرتبط بأمور «قد أغنت عن الكلام فيها كتب الله الناطقة بالحق المنزلة بالصدق وما صح عن الأنبياء صلوات الله عليهم»[١١]. ثم

---

(٩) في الأصل: ما أوله، ولعل الصواب ما أثبته.
(١٠) جامع بيان العلم ٢/٣٧.
(١١) السابق ٢/٣٧ ـ ٣٨.

يقول: «ثم العلم الأوسط والأسفل عندهم على ما ذكرنا عن أهل الأديان، إلاّ أن العلم الأوسط ينقسم عندهم على أربعة أقسام هي كانت عندهم رؤوس العلوم وهي: علم الحساب، والتنجيم، والطب، وعلم الموسيقى»[١٢].

ويرفض ابن عبد البر علم الموسيقى، أما علم الحساب فهو «علم لا يستغني عنه ذو علم من العلوم»[١٣]، وأما علم التنجيم فهو مقبول ومطلوب، ولكن لا يجوز أن يتخذ وسيلة لمحاولة معرفة الغيب، ويستشهد ابن عبد البر بأثر عن عمر رضي الله عنه يقول فيه: تعلّموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم أمسكوا[١٤].

إن على المسلمين اليوم أن يهتموا بعلوم الدين أولاً فيجددوا شبابها، ويرجعوا إلى دراسة دينهم من منابعه الأصلية، وعليهم أن يعيدوا النظر في مناهج العلوم الدينية، ويبحثوا أسباب تقصيرهم فيها.

وعليهم مع ذلك الاهتمام بدراسة علوم الدنيا، حتى يلحقوا بالأمم التي سبقتهم، بل عليهم أن يتفوقوا عليها، مع اصطناع المناهج الفكرية والأصول النظرية الاعتقادية المستمدة من دينهم وشريعتهم.

ولا بدّ لهم من إحداث الصلة والالتقاء بين العلوم الدينية (وما يتبعها من علوم إنسانية) وبين العلوم التجريبية والتطبيقية التقنية، فإن أمكن وجود العلماء الذين يجمعون بين التعمق والتخصص في الجانبين ـ وهو أمر ليس باليسير ـ فبها ونعمت، وإلاّ فلا بدّ من تنظيم وتنسيق التعاون بين العلماء من الجانبين، بحيث نفهم ما في الكتاب والسنّة من حقائق علمية توافق العلم وتفسّر آيات الله سبحانه في الآفاق وفي الأنفس بدون تعسف في التأويل، أو تكلّف في الفهم والتفسير.

كما يجب أن تدرس العلوم الحديثة دراسة تلفت نظر الطلاب إلى قدرة الله

---

(١٢) السابق ٢/٣٨.

(١٣) نفس المرجع ونفس الصفحة.

(١٤) نفس المرجع ونفس الصفحة.

سبحانه، وعظمة الخالق، فيتحقق بذلك الاعتبار والتفكر، ونجد من المسلمين علماء يخشون الله ويتقونه حقّ تقواه ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر ٢٨)

وإزالة الفجوة القائمة بين علماء الدين وعلماء العلوم التجريبية الحديثة إنما يتم باصطناع مناهج موحدة في مراحل التعليم العام (من الابتدائي حتى نهاية الثانوي) تزود الطلاب بعلوم الدين والدنيا معاً، ثم بإيجاد دراسات موسعة في العلوم الدينية، والثقافة الإسلامية لكافة المتخصصين في المجالات العلمية الحديثة، مع تزويد طلبة المعاهد الدينية والمتخصصين في علوم الشريعة بقدر كافٍ من العلوم التجريبية والتقنية الحديثة. ولعل هذا هو أول وأهم ما يحقق النهضة الإسلامية المرجوة بإذن الله.

الفصل الثالث

العلم والعمل

من المشكلات المهمة التي كثر الحديث فيها مشكلة العلاقة بين العلم والعمل، ذلك أن بعض المسلمين اليوم يقولون إن الدين أخلاق وسلوك، وأن المهم العمل قبل العلم، وقد عمل الصحابة رضوان الله عليهم وجاهدوا كثيراً ولم يتعلّموا ويدرسوا إلّا قليلاً، فنحن أحوج إلى الفعل منا إلى القول: وما أكثر من تعلّم العلوم الدينية وتفقه في الدين من طلبة المعاهد الدينية وخرّيجيها ولكنهم لم ينفعوا المسلمين بعلمهم إلّا قليلاً.

وقد أفاض العلماء في الموازنة بين العلم والعمل وأيهما أفضل. وهل العلم غاية أم وسيلة. ولا نريد أن نعرض هنا إلّا لما هو ضروري في توضيح الأمر، إذ إن مما لا خلاف عليه أن العلم والعمل مرتبطان الواحد منهما بالآخر ارتباطاً وثيقاً، إلّا أن «العلم إمام والعمل تابعه» كما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه، ولو ضربنا المثل بالإنسان الحي لكان العمل هو جسم هذا الإنسان، والعلم رأسه، والإيمان الروح الذي يسري في البدن، ولا يمكن لجسد أن يحيا بغير روح أو رأس، وهذه الرأس هي التي توجه البدن، وتسيطر على حركاته، وتقود إلى الخير أو إلى الشر.

والإمام الشاطبي رحمه الله من العلماء الذين يقدمون العمل على العلم، ويرى أن العلم إنما هو وسيلة إلى العمل. وهو يبحث هذا الموضوع في كتابه «الموافقات في أصول الشريعة» حيث يقول: إن أي علم من العلوم الشرعية ليس إلّا وسيلة لعبادة الله تعالى ويذكر عدة أدلة على ذلك:

الأول: أن كل علم لا يفيد عملاً[1] فليس في الشرع ما يدل على استحسانه. ولو كان مستحسناً شرعاً لبحث عنه الأولون من الصحابة والتابعين، وهذا ما لم يحدث.

والثاني: أن الشرع إنما جاء بالتعبّد، وهو المقصود من بعثة الأنبياء عليهم السلام، كقوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس اتّقوا ربكم**﴾ (سورة الحج: ١)، ﴿**الر * كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير * ألاّ تعبدوا إلاّ الله**﴾ الآيات(هود: ١-٣)، ﴿**ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين**﴾(البقرة: ٢) .... وما أشبه ذلك من الآيات التي لا تكاد تحصىٰ ، والتي تدل على أن المقصود التعبّد لله ، وإنما جاءت أدلة التوحيد في القران لكي يتوجه الناس إلى الله المعبود وحده سبحانه لا شريك له . ولذلك قال تعالى : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلاّ الله واستغفر لذنبك** ﴾ (محمد : ١٩) ، وقال : ﴿ **فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلاّ هو فهل أنتم مسلمون** ﴾ (هود : ١٤) وقال ﴿ **هو الحي لا إله إلاّ هو فادعوه مخصلين له الدين** ﴾ (غافر : ٦٥) .

الثالث: ما جاء من الأدلة الدالة على أن روح العلم هو العمل، وهي تدل على أن العلم لا ينتفع به وليس هو إلاّ وسيلة للعمل. فقد قال تعالى: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ (فاطر: ٢٨) وقال: ﴿**وإنه لذو علم لما علّمناه**﴾ (يوسف: ٦٨). قال قتادة: يعني لذو عمل بما علمناه. وقال تعالى: ﴿**أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة**﴾ - إلى أن قال - ﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾ الآية (الزمر: ٩)، وقال تعالى: ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب**﴾ (البقرة: ٤٤)... وعن النبيّ ﷺ : لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس خصال - وذكر فيها - : وعن علمه ماذا عمل فيه[2]... وحديث أبي هريرة في الثلاثة الذين هم أول من تسعَّر بهم النار يوم القيامة، قال فيه: ورجل

---

(١) يقصد الشاطبي بذلك العلوم الجدلية المبتدعة التي لا تستند إلى الكتاب والسنّة مثل الفلسفة وعلم الكلام.

(٢) رواه الترمذي وقال حديث صحيح.

تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت القرآن. قال: كذبت ولكن ليقال فلان قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار[٣]. وقال: إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالماً لم ينفعه الله بعلمه[٤]. وروي أنه عليه السلام كان يستعيذ من علم لا ينفع[٥]».

ثم يقول الشاطبي: «بل قد يحصل العلم مع التكذيب، فإن الله قال في قوم: **﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾** (النمل: ١٤)، وقال **﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنّ فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾** (البقرة: ١٤٦)، وقال: **﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾** (الأنعام: ٢٠)، فأثبت لهم المعرفة بالنبي ﷺ، ثم بيّن أنهم لا يؤمنون، وذلك مما يوضح أن الإيمان غير العلم، كما أن الجهل مغاير للكفر»[٦].

هذا كلام الشاطبي، وهو على دقته وعمقه، إنما يقارن فيه بين العمل والعبادة من جهة، وبين العلم الذي لا ينفع من جهة أخرى، وهي مقارنة غير متكافئة، فإنه لا جدال في أن العلم غير النافع لا يطلب لذاته وليس غاية على الإطلاق، ولكن المقارنة يجب أن تكون بين العبادة والعلم النافع، والسؤال الذي يجب أن نجيب عنه: هل العلم النافع غاية أم لا؟.

---

(٣) قال المنذري في الترغيب والترهيب رواه مسلم والنسائي. ورواه الترمذي وحسنه، وابن حبان في صحيحه، كلاهما بلفظ واحد.

(٤) رواه الطبراني في الأصغر وابن عدي في الكامل والبيهقي في الشعب بلفظ أشد الناس عذاباً، قال المناوي ضعفه الترمذي وغيره، وقال العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء عن أبي هريرة بإسناد ضعيف.

(٥) أنظر الموافقات للشاطبي ١/٦٠ ـ ٦٦ (تحقيق الشيخ عبدالله دوار ط. مصطفى محمد. القاهرة، بدون تاريخ) والإشارة في العبارة الأخيرة إلى قوله ﷺ اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع. . . الحديث مع اختلاف في الألفاظ رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد في مسنده.

(٦) الموافقات ١/٦٦.

ويجيب ابن القيم على ذلك في كتابه «مفتاح دار السعادة» قائلاً: إن العلم النافع غاية مقصودة لذاتها، كما أن العبادة الصحيحة الموافقة للكتاب والسنّة غاية مقصودة لذاتها.

ويقول ابن القيّم في ذلك: إن العالم المشتغل بالعلم والتعليم لا يزال في عبادة، فنفس تعلّمه وتعليمه عبادة. وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: لا يزال الفقيه يصلي. قالوا: وكيف يصلي؟ قال: ذكر الله على قلبه ولسانه. وقال ابن وهب: كنت عند مالك بن أنس فحانت صلاة الظهر - أو العصر - وأنا أقرأ عليه، وأنظر في العلم بين يديه، فجمعت كتبي وقمت لأركع، فقال لي مالك: ما هذا؟ فقلت: أقوم إلى الصلاة. فقال: إن هذا لعجب، ما الذي قمت إليه أفضل من الذي كنت فيه إذا صحت فيه النيّة.

ثم يذكر ابن القيّم أنه إن قيل: فالعلم إنما هو وسيلة إلى العمل ومراد له، والعمل هو الغاية، ومعلوم أن الغاية أشرف من الوسيلة، فكيف تفضل الوسائل على غاياتها؟

فإنه يمكن القول: كل من العلم والعمل ينقسم قسمين: منه ما يكون وسيلة، ومنه ما يكون غاية، فليس العلم كله وسيلة مرادة لغيرها، فإن العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق، وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته: قال الله تعالى: **﴿الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾** (الطلاق: ١٢)، فقد أخبر سبحانه أنه خلق السماوات والأرض، ونزل الأمر بينهن ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة. وقال تعالى: **﴿فاعلم أنه لا إله إلاّ الله﴾** (محمد: ١٩)، فالعلم بوحدانيته تعالى، وأنه لا إله إلاّ هو مطلوب لذاته، وإن كان لا يكتفي به وحده، بل لا بدّ من عبادته وحده لا شريك له، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما. كما أن العلم من أفضل العبادات، فهو متضمن للغاية والوسيلة(٧)

---

(٧) أنظر مفتاح دار السعادة، ص ١٩٤ - ١٩٥.

ويذكر ابن القيّم في موضوع آخر من كتابه أن العلم إمام العمل وقائد له، والعمل تابع له ومؤتم به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتديا به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه، كما قال بعض السلف: من عبدالله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح. ثم يذكر ابن القيّم أن الأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له، فالعلم هو الميزان وهو المحك. وقد قال الله تعالى: **﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾** (الملك: ٢) قال الفضيل بن عياض. هو أخلص العمل وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً، فالخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنّة. وقد قال تعالى: **﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾** (الكهف: ١١٠) فهذا هو العلم المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقاً لسنّة رسول الله ﷺ مراداً به وجه الله، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلاّ بالعلم[٨].

ونخلص من هذه الموازنة بين قيمة العلم والعمل إلى ما سبق أن ذكرناه وهو أن العلم إنما هو أساس العمل وقائده وموجهه، ولكننا نؤكد أيضاً أن العلم النافع هو الغاية المنشودة، وهو العلم الذي يدفع صاحبه إلى العمل. والواقع أن الغاية من العلم والعمل هي رضاء الله واتقاء سخطه عز وجل، ولا بد أن تكون هذه الغاية الأخيرة ماثلة أمام العلماء وأمام العاملين على حد سواء.

وقد بالغ أقوام في الاهتمام بالعلم وأهملوا العبادة، وبالغ آخرون في الاهتمام بالعمل وتركوا العلم، وكلاهما مخطىء حائد عن الحق والصواب. وقد عرض ابن الجوزي في كتاب «تلبيس إبليس» إلى نماذج من النوعين، فحدثنا في باب «ذكر تلبيسه على القراء» عن قارئي القرآن الذين يقضون أعمارهم في دراسة القراءات الشاذة وجمعها وتصنيفها والإقراء بها، حتى يشغلهم ذلك عن

---

(٨) أنظر مفتاح دار السعادة، ص ٨٩ ـ ٩٠.

معرفة الفرائض والواجبات، وقد يكون الواحد منهم إمام مسجد يصلي بالناس ويقرأ القرآن وهو لا يعرف ما يفسد الصلاة، وقد يحمله حب الرئاسة على الامتناع عن الجلوس بين أيدي العلماء للأخذ عنهم، وفي مثل هؤلاء يقول الحسن البصري: أنزل القرآن ليعمل به فاتخذ الناس تلاوته عملاً[٩].

وفي باب «ذكر تلبيس إبليس على الكاملين من العلماء» يحدثنا ابن الجوزي عن طائفة من العلماء علت هممهم فدرسوا علوم الشرع من القرآن والسنة والفقه وغير ذلك، فأتاهم، إبليس يوسوس لهم ويزين لهم الغرور، ويحسن لهم اللذات، ويغريهم بالكف عن بذل الجهد في التعلم والتعليم، وأن يفسحوا لأنفسهم في إشباع شهواتهم، فإن وقع الواحد منهم في المعاصي فالعلم يدفع عنه العقوبة، وأورد عليه فضل العلماء. ثم يقول: «فإن خذل هذا العبد وقبل هذا التلبيس يهلك، وإن وفق فينبغي له أن يقول: جوابك من ثلاثة أوجه:-

أحدها: أنه إنما فضل العلماء بالعمل، ولولا العمل به ما كان له معنى. وإذا لم أعمل به كنت كمن لم يفهم المقصود به، ويصير مثلي كمثل رجل جمع الطعام وأطعم الجياع ولم يأكل، فلم ينفعه ذلك من جوعه.

والثاني: أن يعارضه بما ورد في ذم من لم يعمل بالعلم كقوله ﷺ: أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه. وحكايته ﷺ عن رجل يلقى في النار فتندلق أقتابه[١٠] فيقول: كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه، وقول أبي الدرداء: ويل لمن لا يعلم مرة، وويل لمن علم ولم يعمل سبع مرات.

والثالث: أن يذكر له عقاب من هلك من العلماء التاركين للعمل بالعلم كإبليس وبلعام[١١]. ويكفي في ذم العالم إذا لم يعمل قوله تعالى:

---

(٩) أنظر تلبيس ابليس، ص ١١٢ - ١١٣.
(١٠) في أساس البلاغة للزمخشري: فلان مبعوج يجر اقتابه: امعاءه، جمع قتب بالكسر
(١١) وهو من علماء بني اسرائيل.

﴿كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ (الجمعة: ٥)»[١٢].

والصوفية يمثلون الطائفة التي تهتم بالعمل والعبادة وتترك العلم أو تهمله، وقد أفرد ابن الجوزي باباً في «ذكر تلبيس إبليس على الصوفية في ترك التشاغل بالعلم» قال فيه: «إعلم أن أول تلبيس إبليس على الناس صدهم عن العلم، لأن العلم نور، فإذا أطفأ مصابيحهم خبطهم في الظلم كيف شاء».

ثم يقول ابن الجوزي أن إبليس استطاع أن يلبس على الصوفية ويخدعهم بعدة طرق: أولها: أنه منع أكثرهم من العلم أصلاً، وأراهم أنه يحتاج إلى تعب وكلف، فحسّن عندهم الراحة، فلبسوا المراقع وجلسوا على بساط البطالة. ثم يذكر أن الشافعي كان يقول: أُسِّس التصوف على الكسل.

والطريق الثاني: أنه أقنع بعضهم بالاكتفاء باليسير من العلوم وأن التوسع في دراسة الحديث والتصدي لتعليمه للناس كله رياسة ودنيا، وأن للنفس في ذلك لذة. يقول ابن الجوزي: «وكشف هذا التلبيس أنه ما من مقام عال إلاّ وله فضيلة وفيه مخاطرة، فإن الإمارة والقضاء والفتوى كله مخاطرة وللنفس فيه لذة، كالشوك في جوار الورد، فينبغي أن تطلب الفضائل ويتقي ما في ضمنها من الآفات، فأما ما في الطبع من حب الرياسة فإنه إنما وضع لتجتلب هذه الفضيلة، كما وضع حب النكاح ليحصل الولد، وبالعلم يتقوم قصد العالم، كما قال يزيد بن هارون: طلبنا العلم لغير الله فأبى إلاّ أن يكون لله. ومعناه أنه دلنا على الإخلاص، ومن طالب نفسه بقطع ما في طبعه لم يمكنه».

وأما الطريق الثالث لتلبيس إبليس على الصوفية فهو: أنه أوهم قوماً منهم أن المقصود العمل، مع أن الاشتغال بالعلم من أعظم الأعمال. ثم إن العالم وإن قصر في عمله فإنه على الطريق المستقيم، والعابد بغير علم على غير الطريق.

وأما الطريق الرابع: فإنه أرى خلقاً كثيراً منهم أن العلم إنما هو ما

---

(١٢) تلبيس ابليس، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

اكتسب من البـواطن، حتى إن أحدهم كـان يتـوهم فيقـول: حـدثني قلبي عن ربي. وكان الشبلي يقول:

إذا طالبوني بعلم الورق... برزت عليهم بعلم الخرق[13].

وقـد سموا علم الشريعـة علم الظاهـر، وسموا هـواجس النفوس العلم الباطن[14].

وقـال السهروردي البغـدادي: «قـال أبـو سليـمان الـداراني: ثـلاث من طلبهن فقـد ركن إلى الـدنيـا: من طلب معـاشـاً، أو تـزوج امـرأة، أو كتب الحديث»[15].

وذكر ابن الجوزي «وبلغني عن أبي سعيد الكندي قال: كنت أنزل ربـاط الصوفية وأطلب الحديث في خفية بحيث لا يعلمون، فسقطت الـدواة يومـاً من كمي، فقال لي بعض الصوفية: «استر عورتك». ويعلق إبن الجوزي على ذلك قائلاً: إن ذلك فيه صد عن سبيل الله، لأن منع الناس من العلم فيه معاداة لله ولشرعه. ثم يقول: «وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يرى المحـابر بـأيدي طلبـة العلم فيقول: هذه سرج الإسلام. وكان هو يحمل المحبرة على كـبر سنه، فقـال له رجل: إلى متى يا أبا عبـدالله؟ فقال: المحبرة إلى المقبرة. وقـال في قولـه عليه الصلاة والسـلام: لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خـذلهم حتى تقـوم السـاعـة. فقـال أحمـد: إن لم يكـونـوا أصحـاب الحـديث فـلا أدري من هم[16].

والمسلمـون في طلبهم للعلم اليـوم ينبغي أن يتقـوا كـلا الإنحـرافـين،

---

(١٣) أي. إذا طالبوني بـالعلوم التي تقـرأ وتكتب في الأوراق خـرجت عليهم بمـا اكتسبتـه من علوم صوفية يرمز لها «بعلم الخرق» وهي الملابس المرقعة والخرق التي يلبسهـا الصرفيـة علامـة عل زهدهم.

(١٤) أنظر: تلبيس ابليس، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(١٥) عوارف المعارف، ص ١١٧.

(١٦) أنظر تلبيس ابليس، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

والواقع أننا اليوم قد قصرنا في العلم كما قصرنا في العمل، ولا بد لنا منهما مجتمعين.

ويبين لنا ابن تيمية في كتابه «الإيمان» ارتباط العلم والعمل، والإيمان في كتاب الله كما يبدو ذلك في آيات عديدة مثل قوله في مواضع كثيرة: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ (الكهف: ١٠٧) ويقترن العلم بالإيمان في مثل قوله تعالى: ﴿**الذين أوتوا العلم والإيمان**﴾ (الروم: ٥٦) وقوله: ﴿**والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا**﴾ (آل عمران: ٣) وقوله: ﴿**لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك**﴾ (النساء: ١٦٢)[١٧].

وينقل ابن كثير في مقدمة تفسيره عن الطبري ما يلي: «... وقال الأعمش أيضاً عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل. فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً[١٨].

أما عن قول القائلين: «ما أكثر من تعلم العلوم الدينية وتفقه في الدين من طلبة المعاهد الدينية وخريجيها، ولكنهم لم ينفعوا المسلمين بعلمهم إلّا قليلاً» فالجواب على ذلك يقتضينا أن نفرق بين دور المعاهد الدينية في العالم الإسلامي قبل الاستعمار الغربي وبين دورها بعده، وقد عرضنا لذلك في الفصل الخاص بتغيير نظم التعليم في الباب الأول، وبينا كيف كان علماء الدين هم قادة الحركات الإصلاحية والثورات ضد المستعمرين والطغاة.

وأما بعد الاستعمار فعلى الرغم مما أصاب هذه المعاهد ورجالها إلّا أنها ظلت تقدم الخير الكثير للمسلمين، وحقاً اضطر كثير من العلماء الصالحين إلى

(١٧) كتاب الايمان، ص ٥.
(١٨) تفسير ابن كثير ١/٣.

الاعتزال والفرار بـدينهم عن مواطن الشبهـات والفتن، إلّا أن فريقـاً منهم ظلوا منارات للخير والـرشاد، ولـولاهم لتردت الأمـة الإسلاميـة في هوة سحيقـة من الجهل والضلال.

وبعـد، فـإنـه إذا وجـد بعض العلماء ممن لا يعملون بعلمهم، أو ممن يقولون ما لا يفعلون، فلا يجوز أن يكون ذلك دليلاً على عدم جـدوى العلم أو على قلة نفعه، وإلاّ فهل إذا وجد شخص مريض قد أشرف عـلى الهلاك، حتى أصبح لا ينتفع بأي غذاء يقدم إليه، بل تلفظه معـدته، أيكـون ذلك حجـة لنا على أن الغذاء لا ضرورة له ولا جدوى فيه؟

وهذا هو الإسلام، دين الله الحنيف، يدرسه كثير من اليهـود والنصارى، ويتعمق في دراستـه المستشرقـون، ومـع ذلـك يـظلون عـلى كفـرهم وعـداوتهم للإسلام، فهل نقول ـ وحاشا لنا أن نقول ـ إن الذنب ذنب الدين؟

الفصل الرابع

العلم والجهاد

إن من المسائل التي تتفرع من موضوع العلم والعمل العلاقة بين العلم والجهاد، فالجهاد هو أعظم تحقيق للعمل بالدين، وهو كما سماه النبي ﷺ: «ذروة سنام الإسلام»[1]، وهو الدليل على صدق إيمان المؤمن كما يدلنا على ذلك قوله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون**﴾ (الحجرات: ١٥).

ولا ريب أن قيام الدين لا يتم إلّا بالعلم والجهاد، ولا ريب أيضاً أن الجهاد مع الجهل أو العلم القليل أو المنحرف قد يؤدي إلى عكس المقصود منه تماماً.

ويظن البعض أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يكتفون بقليل العلم وكان دأبهم الجهاد والعمل، ولقد أجبنا عن هذا الأعتراض من قبل[2]، ونزيد هنا على ما سبق أن الصحابة رغم أنهم لم يكونوا على درجة واحدة من العلم والفقه، إلّا أن كثيراً منهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ كانوا على قدر كبير من العلم.

---

(١) كما جاءت بذلك الأحاديث: أنظر الترمذي، كتاب الإيمان، ابن ماجه، كتاب الفتن، المسند، جـ ٥ في مواضع عديدة.

(٢) انظر فصل: الفهم الخاطىء لمعنى أمية الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، ص ٩٨ ـ ١٠٦.

وكان أكثر قوادهم في الحروب يجمعون بين العلم الحربي العسكري وبين العلم بالدين والفقه فيه. وهذا هو سعد بن أبي وقاص ـ أحد العشرة المبشرين بالجنة ـ كان فقيهاً مع كونه من أكبر قادة المسلمين. روى البخاري عن جابر بن سمُرة: «شكا أهل الكوفة سعداً إلى عمر فعزله واستعمل عليهم عماراً فشكوا، حتى ذكروا أنه لا يحسن يصلي، فأرسل إليه فقال: يا أبا اسحاق إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي؟ قال أبو اسحاق: أما أنا والله فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ ما أخرم عنها: أصلي صلاة العشاء فأركد في الأوليين وأخف في الأخرين. قال: ذلك الظن بك يا أبا اسحاق فأرسل معه رجلاً أو رجالاً إلى الكوفة، فسأل عنه أهل الكوفة، ولم يدع مسجداً إلّا سأل عنه ويثنون معروفاً، حتى دخل مسجداً لبني عبس، فقام رجل منهم يقال له أسامة بن قتادة ـ يكنى أبا سعدة ـ فقال : أما إذا ناشدتنا الله فإن سعدا كان لا يسير بالسرية، ولا يقسم بالسوية ، ولا يعدل في القضية. قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً قام رياء وسمعة، فأطل عمره وأطل فقره وعرضه للفتن. وكان بعد يقول: شيخ مفتون أصابتني دعوة سعد. قال عبد الملك: فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وأنه ليتعرض للجواري في الطريق يغمزهن»[٣].

وهكذا ترى أنه كان ـ رضي الله عنه ـ فقيهاً عالماً، وانظر إلى أهمية العلم والفقه، حتى ليطعن فيه ـ ظلماً ـ بأنه لا يحسن الصلاة، فيعزله عمر لذلك حتى يتبين وجه الحق.

والمجاهد في سبيل الله قد يخطىء إذا لم يكن عالماً فقد يمثل بأعدائه رغم النهي عن المثلة، وقد يأخذ من الغنائم ما ليس له أخذه، وقد أشار ابن الجوزي في باب «ذكر تلبيس إبليس على الغزاة» إلى ذلك، وأورد حديثاً جاء في

---

(٣) الحديث في البخاري، كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، وهو في مسلم، كتاب الصلاة، ١٥٨، النسائي، كتاب الافتتاح، المسند ٤/٢٦٤. وقال ابن حجر في فتح الباري ٢/٣٧٩ ـ ٣٨٠ (ط. الحلبي ١٣٧٨/ ١٩٥٩) ما أخرم: بفتح أوله وكسر الراء أي لا أنقص. وأركد في الأولين. أي أطيل فيهما القراءة.

الصحيحين عن أبي هريرة قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر ففتح الله علينا، فلم نغنم ذهباً ولا ورقاً (٤) غنمنا المتاع والطعام والثياب. ثم انطلقنا إلى الوادي، ومع رسول الله ﷺ عبد له، فلما نزلنا قام عبد رسول الله ﷺ يحل رحله فرمي بسهم فكان فيه حتفه. فلما قلنا له: هنيئاً له الشهادة يا رسول الله، فقال: كلا والذي نفس محمد بيده إن الشملة لتلتهب عليه ناراً أخذها من الغنائم يوم خيبر لم تصبها المقاسم. قال: ففزع الناس، فجاء رجل بشراك أو شراكين، فقال: أخذته يوم خيبر. فقال رسول الله ﷺ: شراك من نار أو شراكان من نار» (٥).

وقد كان الخوارج من أشد الناس اجتهاداً في العبادة، ومن أكثرهم جلداً وشجاعة في القتال، ومع ذلك فقد مرقوا من الإسلام كما يمرق السهم من الرّمية، كما أخبر عنهم رسول الله ﷺ، وذلك لجهلهم وسوء تأويلهم للكتاب والسّنة. أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري حديث الخوارج وجاء فيه أن النبي ﷺ قال عنهم: «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» (٦). كما ذكر ﷺ: «يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان» (٧) وقد كفّر الخوارج من خالفهم، وكفّروا أصحاب الكبائر ـ كما ذكرنا من قبل ـ وأباحوا قتل النساء والصبيان من المسلمين واستحلوا دماء مخالفيهم من المسلمين وأموالهم، وعدوا كل من أقام في دار مخالفيهم مقيماً في دار الشرك. ولما

---

(٤) أي فضة.

(٥) تلبيس ابليس، ص ١٤٧.

(٦) حديث الخوارج ـ مع اختلاف في الألفاظ ـ في البخاري (كتاب المناقب، باب علامات النبوة)، مسلم (كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، وباب التحريض على قتل الخوارج، وباب الخوارج شر الخلق والخليقة). وجاءت الأحاديث عنهم في سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وفي الدارمي والمسند. ومعنى الحديث أن المسلمين يحتقرون أعمالهم بجانب اجتهاد الخوارج في عباداتهم. والرمية: الصيد الذي ترميه فينفذ فيه السهم.

(٧) هذه العبارة جزء من حديث أبي سعيد الخدري السابق، وانظر جامع الأصول لابن الأثير الجزري ١٠/١٣٨.

أراد الحسن رضي الله عنه أن يصالح معاوية خرج عليه منهم الجراح بن سنان وطعنه في أصل فخذه وقال له : أشركت كما أشرك أبوك [٨].

وقد اعتزل ستة آلاف منهم علياً بن أبي طالب رضي الله عنه واعتزموا الخروج عليه في بادىء أمرهم، فطلب عبدالله بن عباس رضي الله عنهما من علي أن يأذن له بنقاشهم، فأذن له بعد تردد خوفاً منهم عليه، فلما دخل عليهم ابن عباس وصفهم قائلاً: «لم أر قط أشد منهم اجتهاداً، جباههم قرحة من السجود، وأياديهم كأنها ثفن الإبل [٩]، وعليهم قمص مرحضة مشمرين، مسهمة وجوههم من أثر السجود». وذكر لهم ابن عباس أنهم خالفوا علياً ـ صهر رسول الله ﷺ ـ خالفوا المهاجرين والأنصار «وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله» وطالبهم بأن يذكروا له نقمتهم على علي رضي الله: «قالوا: ثلاثا. قال: هاتوا. قالوا: أمّا إحداهن فإنه حكّم الرجال في أمر الله، وقد قال عز وجل: ﴿**إنِ الحكم إلا الله**﴾ (الأنعام: ٥٧) فما شأن الرجال والحكم بعد قول الله عز وجل؟ فقلت: هذه واحدة، وماذا؟ قالوا: وأما الثانية، فإنه قاتل وقتل ولم يسب ولم يغنم، فإن كانوا مؤمنين فلم حل لنا قتالهم وقتلهم ولم يحل لنا سبيهم؟ قلت: وما الثالثة؟ قالوا: فإنه محا عن نفسه أمير المؤمنين، فإنه إن لم يكن أمير المؤمنين فإنه لأمير الكافرين».

ورد عليهم ابن عباس قائلاً: «أما قولكم حكّم الرجال في أمر الله، أنا أقرأ عليكم في كتاب الله ما ينقض هذا. . . . فإن الله قال في كتابه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم**﴾ (المائدة: ٩٥) وقال في المرأة وزوجها: ﴿**وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها**﴾ (النساء: ٣٥) فنشدتكم الله هل تعلمون حكم الرجال في إصلاح ذات بينهم وفي حقن دمائهم أفضل أم حكمهم في أرنب وبضع امرأة [١٠]، فأيها ترون

(٨) أنظر: جامع الرسائل، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢، تلبيس إبليس، ص ٩٥
(٩) أي أنها غليظة خشنة من أثر السجود مثل ركبة البعير .
(١٠) أي فرج امرأة.

أفضل؟ قالوا: بل هذه فقلت: خرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

قلت: وأما قولكم قاتل ولم يسب ولم يغنم أفتسبون أمكم عائشة رضي الله تعالى عنها؟ فوالله لئن قلتم ليست بأمنا لقد خرجتم من الإسلام. ووالله لئن قلتم لنسبينها ونستحل منها ما نستحل من غيرها لقد خرجتم من الإسلام. فأنتم بين ضلالتين، لأن الله عز وجل قال: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾ (الأحزاب: ٦) أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

قلت: وأما قولكم محا عن نفسه أمير المؤمنين فأنا آتيكم بمن ترضون، إن النبي ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين أبا سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو، فقال لعليّ رضي الله عنه: أكتب لهم كتاباً، فكتب لهم عليّ: هذا ما اصطلح عليه رسول الله. فقال المشركون: والله ما نعلم أنك رسول الله، لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك. فقال رسول الله ﷺ: اللهم إنك تعلم أني رسول الله، أمح يا عليّ. اكتب: هذا ما اصطلح عليه محمد ابن عبدالله.

فوالله لرسول الله خير من عليّ، وقد محا نفسه. قال: فرجع منهم ألفان، وخرج سائرهم فقتلوا»[11].

وقد قارن بعض العلماء بين فضل العلم وفضل الجهاد، وخصص ابن عبد البر بابا في تفضيل العلماء على الشهداء، أورد فيه حديثاً عن عثمان قال: قال رسول الله ﷺ: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»، كما روى حديثاً آخر عن أبي الدرداء قال، قال رسول الله ﷺ: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء» كما ذكر أحاديث وآثار أخرى في هذا الموضوع[12].

ولا ريب أن العالم الصادق إذا أدى أمانة العلم ولم يكتم شيئاً منه ولم يرهب مخلوقاً في قيامه بواجبه من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر كان من أعظم

---

(١١) أنظر هذه الرواية كاملة في: تلبيس ابليس، ص ٩١ - ٩٣، جامع بيان العلم ٢/١٠٣ - ١٠٤.

(١٢) أنظر جامع بيان العلم ١/٣٠ - ٣٢.

المجاهدين وأفضلهم. ويروي ابن القيم عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع». قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. ويعقب على ذلك ابن القيم قائلاً: «وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله لأن به قوام الإسلام، كما أن قوامه بالجهاد، فقوام الدين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهاد نوعين: جهاد الخاصة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين لعظم منفعته وشدة مؤونته وكثرة أعدائه. قال تعالى في سورة الفرقان وهي مكية: ﴿**ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً**﴾ (الفرقان: ٥٢) وهو جهاد المنافقين أيضاً... قال تعالى: ﴿**يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم**﴾ (التوبة: ٧٣) ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن [١٣].

ويذكر ابن القيم عن شيخه ابن تيمية: «هذه الأمور الثلاثة التي فضل كل واحد من الأئمة بعضها وهي: الصلاة والعلم والجهاد هي التي قال فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لولا ثلاث في الدنيا لما أحببت البقاء فيها: لولا أن أحمل أو أجهز جيشاً في سبيل الله، ولولا مكابدة هذا الليل، ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقي أطايب التمر لما أحببت البقاء فيها. فالأول الجهاد، والثاني قيام الليل، والثالث مذاكرة العلم، فاجتمعت في الصحابة بكمالهم وتفرقت فيمن بعدهم» [١٤].

وقد كان أئمة المسلمين من كبار المجاهدين، فالإمام أحمد بن حنبل سجن طويلاً وضرب بالسياط لكي يقول بخلق القرآن فلم يخضع وتمسّك برأي أهل السنة حتى نصره الله ونصر أهل السُنة، وروي عن الشافعي قبله أنه لما قدم مصر سافر إلى الاسكندرية ورابط في ثغرها سبعة أيام ووجهه إلى البحر في مراقبة الخطر، وشيخ الإسلام ابن تيمية سجن مرات عديدة حتى مات في سجنه

---

(١٣) مفتاح دار السعادة، ص ٧٤ - ٧٧.

(١٤) نفس المرجع، ص ١٣٠.

الأخير، وحارب التتار بنفسه وطلب أن يضعوه في موقف المـوت في معركـة مرج الصفر ففعلوا ذلك وقاتل حتى انتصر المسلمـون [١٥] والأمثلة على جهـاد العلماء أكثر من أن تحصى.

(١٥)أنظر العقود الدرية في مناقب ابن تيمية لابن عبد الهادي، ص ١٧٧.

الفصل الخامس

العلم ومستقبل الأمة الإسلامية

إن ما مر بالأمة الإسلامية من أخطاء وانحرافات في العلم والعمل قديماً، وما منيت به من غزو فكري وحضاري غربي حديثاً، أدى إلى تبديل أحوالها وتغيير قيمها، حتى أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وعاد الدين غريباً كما بدأ غريباً.

وقد أخبر رسول الله الصادق المصدوق ﷺ بذلك فحدثنا في أحاديث عديدة عما سوف يطرأ على المسلمين من تغيير وتبديل. وذكر لنا أن أول علامات ذلك قلة العلم وزيادة الجهل، وضعف العلماء الصالحين وقوة الفاسقين الظالمين.

وقد أوردنا من قبل حديث قبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا [1].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «إن لكل شيء إقبالاً وإدباراً، وإن لهذا الدين إقبالاً وإدباراً، وإن من إقبال هذا الدين ما بعثني الله به حتى أن القبيلة لتتفقه من عند أسرها ـ وقال: آخرها ـ حتى لا يكون فيها إلا الفاسق أو الفاسقان ، فهما مقموعان ذليلان. إن تكلما أو نطقا قمعا وقهرا واضطهدا. ثم ذكر من إدبار هذا الدين أن تجفو القبيلة كلها العلم من عند أسرها حتى لا يبقى إلا الفقيه أو الفقيهان، فهما مقموعان ذليلان، إن تكلما أو نطقا قمعا وقهرا واضطهدا وقيل أتطغيان علينا، وحتى تشرب الخمر في

---

(١) انظر ما سبق، ص ١١٠.

ناديهم ومجالسهم وأسواقهم، وتنحل الخمر إسماً غير اسمها، وحتى يلعن آخر هذه الأمة أولها، ألا فعليهم حلت اللعنة» [٢].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «تعلموا العلم وعلموه الناس، وتعلموا الفرائض وعلموها الناس فإني امرؤ مقبوض، وإن العلم سيقبض وتظهر الفتن، حتى يختلف الإثنان في الفريضة لا يجدان أحداً يفصل بينهما» [٣].

وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويبث الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا» [٤].

وروى مسلم عن أبي وائل قال: كنت جالساً مع عبدالله وأبي مسلم فقالا: قال رسول الله ﷺ : «إن بين يدي الساعة ـ أياماً يرفع فيها العلم، وينزل فيها الجهل، ويكثر فيها الهرج، والهرج القتل» [٥].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء. قيل ومن الغرباء؟ قال. النزاع من القبائل» [٦].

---

(٢) جامع بيان العلم ١/١٥٣ ـ ١٥٤.

(٣) جامع بيان العلم ١/١٥٤.

(٤) الحديث في: البخاري (في مواضع عديدة)، مسلم (كتاب العلم)، الترمذي (كتاب الفتن)، ابن ماجة (كتاب الفتن)، وهو في مسند احمد، ج ٣ في مواضع عديدة.

(٥) الحديث بمعناه مع اختلاف الألفاظ في: البخاري والترمذي وابن ماجه والمسند.

(٦) الحديث بهذه الرواية عن عبدالله بن مسعود في مسند أحمد، وقال الشيخ أحمد شاكر في شرحه للحديث وتعليقه عليه في المسند ٥/٢٩٦ (ط. المعارف) النزاع: من القبائل: في النهاية جمع نازع ونزيع وهو الغريب الذي نزع عن أهله وعشيرته أي بعد وغاب، أي طوبى للمهاجرين الذين هجروا أوطانهم في الله تعالى. قال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح من حديث ابن مسعود وقال أحمد شاكر إسناده صحيح. والحديث بمعناه في مسلم كتاب الإيمان والترمذي كتاب الإيمان وابن ماجه كتاب الفتن ٢/٣١٩ ـ ٣٢٠ (ط فؤاد عبد الباقي) ومسند الدارمي، الرقاق، وهو في مسند أحمد ١/٣٩٨ ـ ٣٢٠ (ط فؤاد عبد الباقي) ومسند الدارمي، الرقاق، وهو في مسند أحمد ١/٣٩٨، ٤/٧٣.

وروى ابن عبد البر عن المقدام بن معدي كرب قال قال رسول الله ﷺ: «يوشك رجل منكم متكئاً على أريكته يحدّث بحديث عني فيقول بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل الذي حرّم الله»[7].

هذه الأحاديث وغيرها ـ وقد تحقق أكثرها ـ تدفع بعض المؤمنين إلى اعتزال الدنيا والناس، وتملأ قلوبهم باليأس والقنوط، وتقنعهم بعدم جدوى الجهاد لإصلاح الأمة الإسلامية، وتشعرهم بقرب قيام الساعة مما يوجب عليهم الفرار بدينهم من الفتن ولو اعتزلوا في شعاب الجبال.

على أن اعتزال الدنيا والناس هو نوع من الهروب من تحمل الأمانة والمسؤولية، وهو أيسر من مخالطة الناس والصبر على أذاهم، ومن جهاد الكفار والمنافقين والعصاة الفاسقين الذين يريدون أن يسيطروا على المسلمين وأن يشيعوا بينهم الفاحشة وأن يردّوهم عن دينهم، ولا شك أن بعض الضعفاء من المسلمين يعذرون لفرارهم بدينهم، أما من كانت لديه القوة على الجهاد فلا عذر له، بل عليه أن يثبت وأن يصبر ويصابر، وله على ذلك الأجر العظيم إن شاء الله.

وقد نهانا الله تعالى نهياً شديداً عن اليأس والقنوط. قال تعالى: **﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلّا الضالون﴾** (الحجر: ٥٦) وقال عز وجل: **﴿ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون﴾** (يوسف: ٨٧). وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله»[8].

والمؤمن يجب أن يؤدي واجبه من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر والنصح للمسلمين ومحاولة الإصلاح بدون انتظار للنتائج فإن الله هو الهادي، وأداء

(٧) الحديث في جامع بيان العلم ٢/١٩٠ وروى حديث آخر في الصفحة السابقة ٢/١٨٩ نفس المعنى والحديث معناه في: سنن أبي داود (كتاب السنة، وكتاب الإمارة)، الترمذي (كتاب العلم)، ابن ماجه (المقدمة)، وهو في مسند الدارمي ومسند الإمام أحمد.

(٨) كتاب التوحيد، ص ٩٤. وروح الله ـ رحمة الله.

الواجب هو قيام بالأمانة التي يجب أن نحملها بحقها، وقد علّمنا رسول الله ﷺ درساً قيّماً حينما أمرنا إن قامت الساعة على أحدنا وفي يده فسيلة أن يغرسها[٩] فهو يغرس فسيلة الزرع ويعلم أن الزرع لن ينبت ولن يجنى حصاده ولكنه يؤدي واجبه ويعمل عملاً صالحاً يلقى ثوابه في الآخرة وإن لم يثمر في الدنيا.

على أن تلك النصوص التي أوردناها تقابلها نصوص أخرى يجب أن توضع بإزائها حتى تكتمل الصورة، بل وحتى نعلم أن الأمل أقوى من اليأس، وأن الرجاء أعظم من القنوط. ونحن بما سبق أن ذكرناه رجحنا أن الحضارة الغربية في طريقها إلى أفول سريع، وأن المستقبل لحضارة جديدة نرجو أن تكون هي حضارة الإسلام بإذن الله، خاصة والنصوص الكثيرة في الكتاب والسنّة تؤكد أن هذا الدين سوف يظهر على كل الأديان وسوف ينتشر في الأرض كلها بإذن الله.

يستشهد ابن القيّم بأثر عن علي رضي الله عنه قال فيه: «اللهم بلى لن تخلو الأرض من مجتهد قائم لله بحجج الله» ويعقب على ذلك قائلاً: «ويدل عليه الحديث الصحيح عن النبيّ ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك[١٠]. ويدل عليه أيضاً ما رواه الترمذي... عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: مثل أمتي مثل المطر لا يدري أوله خير أم آخره. قال: هذا حديث حسن غريب[١١]... فلو لم يكن في أواخر الأمة قائم بحجج الله مجتهد لم يكونوا موصوفين بهذه الخيرية. وأيضاً فإن هذه الأمة أكمل الأمم، وخير أمة أخرجت للناس، ونبيّها خاتم النبيين لا نبيّ بعده، فجعل الله العلماء فيها كلما هلك عالم خلفه عالم، لئلا تطمس معالم الدين وتخفى أعلامه. وكان بنو إسرائيل كلما هلك نبي خلفه

---

(٩) الحديث في مسند أحمد (ط. الحلبي ٣/١٨٤، ١٩١).

(١٠) الحديث بروايات متعددة وألفاظ مختلفة في: البخاري، ومسلم وأبي داود الترمذي وابن ماجة ومسند أحمد.

(١١) الحديث في: الترمذي (كتاب الأدب)، مسند أحمد ٣/١٣٠، ١٤٣، ٤/٣١٩.

نبي، فكانت تسوسهم الأنبياء، والعلماء لهذه الأمة كالأنبياء في بني إسرائيل. وأيضاً ففي الحديث الآخر: يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وهذا يدل على أنه لا يزال محمولاً في القرون قرناً بعد قرن. وفي صحيح أبي حاتم من حديث الخولاني قال: قال رسول الله ﷺ: لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم في طاعته[١٢]. وغرس الله هم أهل العلم والعمل، فلو خلت الأرض من عالم خلت من غرس الله»[١٣].

ويفسّر ابن كثير رحمه الله قوله تعالى: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾ (التوبة: ٣٣) فيقول إن الهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع. ودين الحق: هو الأعمال الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة.

ثم يقول: «﴿**ليظهره على الدين كله**﴾ أي على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها» ثم روى ابن كثير عن الإمام أحمد حديثاً عن مسعود بن قبيصة (أو قبيصة بن مسعود) يقول: صلى هذا الحي من محارب الصبح، فلما صلوا قال شاب منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وأن عمالها في النار إلّا من اتقى الله وأدى الأمانة». ويروي الإمام أحمد أيضاً عن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلّا أدخله هذا الدين، يعز عزيزاً ويذل ذليلاً، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر». فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان كافراً منهم الذل والصغار والجزية.

---

(١٢) الحديث في: ابن ماجه (المقدمة)، ورواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم ١٣٣/٢. وعلق عليه بقوله: قال أبو يعقوب: بلغني عن أحمد بن حنبل قال: هم أصحاب الحديث.

(١٣) مفتاح دار السعادة، ص ١٥٦.

ويروى الإمام أحمد أيضاً حديثاً مشابهاً عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يبقي الله على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلاّ دخلته كلمة الإسلام يعز عزيزاً ويذل ذليلاً، إمّا يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وإمّا يذلهم فيدينون لها»[١٤].

فهذه النصوص من آيات الكتاب الكريم وأحاديث النبيّ ﷺ تفتح أبواب الأمل للمسلمين، ويضاف إليها ما روي من أحاديث عديدة عن النبيّ ﷺ تنبأ فيها عن انتصار المسلمين على اليهود قال في واحد منها: «تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم»[١٥]. وقال في حديث آخر رواه مسلم في صحيحه: «لتقاتلن اليهود فلتقتلنهم»[١٦]. كما ذكر ﷺ أن الحجر والشجر يحدثان المسلم فيقولان له ما معناه: أن هذا يهودي فاقتله»[١٧].

وروى مسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ: قال «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود كما بدأ، ويأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها» ورواه الترمذي عن عمرو بن عوف المزني بلفظ: «إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها، وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأروية من رأس الجبل. إن الدين بدأ غريباً ويرجع غريباً فطوبىٰ للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدي من سنتي»[١٨].

---

(١٤) أنظر رسالة دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين لمالك بن نبي، (ط. بيروت) ١٩٦٧. وقد تكلّم فيها عن قوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله﴾ الآية (سورة الصف: ٩).. أنظر ص ٢١ وما بعدها.

(١٥) أنظر: البخاري (كتاب المناقب)، مسلم (كتاب الفتن)، الترمذي (كتاب الفتن) المسند ج ٢ في مواضع عديدة (ط. الحلبي).

(١٦) مسلم (كتاب الفتن). وروى أحمد في مسنده حديثاً بنفس المعنى ج ٢ ص ٤١٧ (ط. الحلبي).

(١٧) أنظر: البخاري (كتاب المناقب)، مسلم (كتاب الفتن)، ابن ماجه (كتاب الفتن)، المسند ج ١، ٢ (في مواضع كثيرة).

(١٨) نقل الشيخ منير الدمشقي في جامع بيان العلم ٢/١١٩ عن هامش الاعتصام: الأروية في حديث الترمذي بضم الهمزة وكسر الواو وتشديد الياء أنثى الوعول أي تيوس الجبل، وهي

ونحن لا نريد أن نغرق في الأمل والتفاؤل حتى نعيش في الوهم والخيال، ولكننا أيضاً لا نريد أن نركن إلى اليأس الذي يقعدنا عن العمل، وإنما ينبغي أن نعلم أن الطريق أمام المسلمين واضح مستقيم، يجب أن يبدأ بالعلم الذي يتبعه العمل والدعوة إلى الله تعالى والجهاد في سبيله عز وجل، والنصر عندئذ محقق مؤكد بإذن الله ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾(الحج :٤٠).

تعتصم في أعلى الجبال. وأرز: كعلم وضرب.... والمعنى أن الدين سيعتقل ويعتصم في الحجاز ويتجمع فيه عندما يكون غريباً، فيعود إلى الحجاز كما بدأ منه ويكون عزيزاً قوياً فيه كالأروية في شناخيب الجبل، ثم يمتد وينتشر منه ثانية فيتم صدق الرسول ﷺ في كونه عاد كما بدأ.

القسم الثاني

مبادئ الإسلام العامة

الباب الأول: الإسلام: البناء وأساس البناء .

الباب الثاني: خصائص الإسلام .

مقدمة

نعرض في هذا القسم لمبادئ الإسلام العامة التي نرجو أن نفحصها بنظرة كلية شاملة تحاول الإحاطة بالأسس والكليات دون الدخول في التفصيلات والدقائق، بحيث ننتهي - إن شاء الله - إلى تصور عام نرجو أن يعطينا فكرة صحيحة عن هذا الدين وعن أصوله وقواعده العامة.

وسينقسم هذا القسم إلى بابين: الأول عنوانه «الإسلام: البناء وأساس البناء» وينقسم هذا الباب إلى فصلين، عنوان الأول منهما: بناء الأسلام، سنحاول فيه إن شاء الله النظر إلى الإسلام من حيث هو بناء متكامل، وأما الفصل الثاني وعنوانه «العقيدة أساس البناء» فسنبيّن فيه منزلة العقيدة من هذا البناء ونوضح عناصرها الرئيسية مستمدة من الكتاب والسنّة.

ويأتي بعد ذلك الباب الثاني وعنوانه «خصائص الإسلام» وسنحاول فيه بإذن الله التعرف على أهم خصائص هذا الدين القيّم، وسنعرض لهذه الخصائص في ستة فصول هي كالتالي:

الأول: الإسلام دين عام عالمي باق إلى يوم القيامة.
الثاني: الإسلام دين شامل متكامل.
الثالث: الإسلام دين فطري.
الرابع: الإسلام دين موافق للعقل.
الخامس: الإسلام دين يسر وبساطة.
السادس: الإسلام دين كامل حق ثابت.

ولسنا هنا في مجال تفصيل الكلام على هذه الخصائص وقد لا نتمكن

فيها من الإحاطة بجميع الخصائص العظيمة التي تميّز هذا الدين، ولكننا سنجتهد ما استطعنا أن نجمل القول في أهم هذه الخصائص، ونرجو أن ننجح بعون الله في أن نجلو لشبابنا المسلم حقائق هذا الدين بحيث يظهر سموّه وعلوّه وتفوّقه على جميع المبادئ والنظم والمذاهب الإنسانية قديماً وحديثاً، ونسأله تعالى أن ييسر ويوفق إنه سميع مجيب .

القسم الثاني

الباب الأول

الاسلام : البناء وأساس البناء

الفصل الأول: بناء الإسلام .

الفصل الثاني: العقيدة أساس البناء .



الإسلام: البناء وأساس البناء

إن هذا الباب يتناول النظر إلى الإسلام من حيث هو بناء كامل متكامل. له أساس يقوم عليه هو العقيدة أو التوحيد، وله أركان هي الصلاة والصوم والزكاة والحج، والصلاة هي من هذه الأركان عمود هذا البناء، وفيه لبنات أو أحجار نستطيع أن نقول أنها الأخلاق والفضائل، ويعلوه سطح أو سقف يقابل الحكم أو الدولة. ونريد أن نبين في الفصل الأول من هذا الباب وهو الفصل الذي عنوانه «بناء الإسلام» إن هذا البناء قد شرع الله سبحانه أن يبني كما ينبغي أن يبني كل بناء، فشرع أن يكون لهذا البناء أساسه القوي المتين، ثم شرع أن تشيد له الأركان والعمد، وقد أمر بعد ذلك أن توضع فيه الحجارة واللبنات، وأخيراً أمر بأن يبني السقف أو السطح. وسنبين ما يقابل كل جزء من الأجزاء في بناء الإسلام، كما سنذكر الأخطاء والانحرافات في تصور هذا البناء عند كثير من المسلمين قديماً وحديثاً، وننتهي بعد ذلك إلى النتيجة المقصودة وهي أن هذا البناء يجب أن يكون مبنياً بالترتيب الصحيح الذي ذكرناه وأن تتكامل أجزاؤه وتترابط.

وأما في الفصل الثاني «العقيدة أساس البناء» فسوف نبين إن شاء الله أهمية العقيدة وسبب كونها أساس البناء، ثم نذكر عناصرها الرئيسية وأدلة هذه العناصر كما يمكن استنباطها من الكتاب والسنة مسترشدين بمنهج أهل السنة والجماعة متجنبين ما قد يتصل بذلك من جدل نظري لا يفيد.

الفصل الأول

بناء الإسلام

إن كثيراً من الإنحرافات التي وقع فيها المسلمون قديماً وحديثاً إنما نشأ من الخطأ في تصور الإسلام تصوراً صحيحاً، إذ اهتم بعض المسلمين بجانب منه دون سائر الجوانب، وجعل بعضهم ما هو فرعي منه في منزلة الأساسي والرئيسي، واهتم آخرون بما هو أساسي ولكنهم أهملوا كل شيء سواه، وحصروا الدين فيه فلم يعبأوا مطلقاً بغيره.

فمن هذه الانحرافات ما وقع فيه كثير من المسلمين في عصرنا هذا من الظن بأن الدين هو الأخلاق الحسنة فقط، أو كما يقولون «الدين المعاملة»، فلو حسنت أخلاق المسلم - فيما يرون - وكان طيباً في معاملته لإخوانه وجيرانه والناس حوله فلا بأس بما قد يفعله بعد ذلك، حتى غالى بعضهم فبرروا وقوعهم في بعض المعاصي أو ارتكابهم لبعض المحرّمات، أو التمسوا لأنفسهم العذر في تقصيرهم في أداء بعض فرائض الدين وواجباته بأن القصد من العبادات إنما هو حسن الخلق وأنه لا قيمة لتلك العبادات إن لم تكن مصحوبة بحسن الخلق وطيب المعشر. أما وقوعهم في المعاصي فهوّنوا من شأنه وقالوا إن الله واسع المغفرة، وأنهم سيظفرون بشفاعة نبيهم ﷺ، وأن الله قد ضمن للمؤمنين دخول الجنة وإن اقترفوا الذنوب والآثام.

وعلى عكس ذلك اهتم بعض المسلمين بالعقيدة والتوحيد، أو بالعبادة والطاعة ولكنهم لم يقرنوا ذلك بثمرة العقيدة والعبادة وهي الأخلاق الحسنة والمعاملة الطيبة، فتجد في بعضهم غلظة وجفوة وتعالياً وقسوة، بل قد تجد نفراً منهم مع معرفتهم بالعقيدة الصحيحة أو مع حرصهم على العبادة الظاهرة لا يجدون بأساً من الكذب أو الغش، أو التطفيف في الكيل والميزان، أو أخذ

الرشوة، أو أكل الربا، وقد يزين لهم الشيطان أعمالهم فيبررون معاصيهم بأن هذه ضرورات لا غنى للمرء عنها في هذا الزمان، أو أن طبيعة عملهم تضطرهم إلى ذلك، وقد يجتنب بعضهم المعاصي والمحرمات الظاهرة، ولكنهم يقترفون أنواعاً من الذنوب والآثام التي لا تعرف إلّا عند المعاملة والتي قد تخفي على أكثر الناس.

وسنبين فيما يلي أن أخلاق الطائفة الأولى ليست هي الأخلاق الحسنة، وأن عقيدة الطائفة الثانية أو عبادتها ليست هي العقيدة الخالصة ولا عبادتهم هي العبادة الصحيحة، لأن حسن الخلق مرتبط بصدق الإيمان، كما أن العقيدة الخالصة والعبادة الصحيحة لا بد وأن تثمرا الاستقامة في القول والعمل.

ونوع آخر من الإنحرافات في عصرنا ما نجده عند بعض المتحمسين من المسلمين من اهتمام بالقضايا السياسية الوطنية والشؤون العامة والاجتماعية، مع ما يتبع هذا الاهتمام من الدعوة إلى الإسلام والعمل على نشره وجهاد أعدائه، وهم يرون أن هذا هو الدين الحقيقي، ولا يهتمون بما يجب أن يسبق ذلك ثم يصحبه من تصحيح للاعتقاد، وعلم وعمل بالدين،واهتمام بالعبادة وتزكية الأخلاق.

وقد أساء فريق منهم فهم عبارات ذكرها بعض الدعاة إلى الإسلام، مثل قولهم: الإسلام دين ودولة، فظنوا أولاً أن الإسلام ينقسم إلى قسمين متساويين متكافئين: الأول هو العقيدة (أو الدين) ويكفي فيه الإيمان السطحي العاطفي، والثاني هو الدولة، ثم رتبوا على ذلك نتيجة خاطئة وهي أن الإيمان أو الدين أمر يسير، لا يحتاج إلى علم أو عمل، أما الدولة وما يتصل بها من تشريع وسياسة واقتصاد فهذا هو الذي يجب أن تتوجه إليه جهود كافة المسلمين بأن يكافحوا ويقاوموا كل من يقف في سبيل تطبيق الحكم بالإسلام، ولذلك وجهوا كل جهودهم إلى المعارك السياسية، الحزبية وغير الحزبية، وأهملوا ما سوى ذلك.

بل إن فريقاً آخر غلا وتطرف حتى زعم أن الدين لا قيام له إلّا بعد وجود الدولة، وذهب بهم الغلو والانحراف حتى فسروا قوله تعالى: **﴿الذين إن**

مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ (الحج: ٤١) بأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لا يجبان على المسلم حتى يمكّن في الأرض، وذلك بقيام الدولة المسلمة التي تُحكم بالقرآن والشريعة الإسلامية!.

وهذه الانحرافات الحديثة والمعاصرة حدث ما يشبهها قديماً في الفرق التي تفرق إليها بعض المسلمين قديماً. من هذه الفرق فرقة المرجئة الذين قدموا الإيمان وأهملوا العمل حتى زعم بعضهم بأنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الشرك طاعة. ومنها فرقة من الصوفية الذين غالوا في الزهد والعبادة، واعتزل فريق منهم الناس ولجأوا إلى التبتل أو الانقطاع عن الزواج، ثم تطرف بعضهم - ممن خلط التصوف بالفلسفة - فزعموا أن خواصهم لا يحتاجون إلى العبادة بل تسقط عنهم التكاليف الشرعية، لأنهم وصلوا إلى الغاية المطلوبة من العبادة وهي الإخلاص والتقوى، فلا حاجة بهم بعد ذلك إلى الالتزام بأوامر الشرع ونواهيه، وقد كفر هؤلاء بذلك وفارقوا كل ملة ودين.

هذه الانحرافات القديمة والحديثة إنما نشأت من التصور الناقص لبناء الإسلام المتكامل، مع أن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فيهما ما يدل على هذا التصور بوضوح، وما ينفي كل هذه الإنحرافات نفيا تاماً، ولكن الجهل والهوى - أو الشبهات والشهوات - هما سبب هذه الانحرافات كما سبق أن قدمنا.

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان»[1].

وفي الحديث المعروف الذي سأل فيه جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن ماهية الإسلام والإيمان والإحسان أجاب النبي ﷺ قائلاً: » الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً... قال: فأخبرني عن الإيمان.

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي واحمد.

قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره... قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٢].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب «الإيمان»: «وحديث جبرائيل يبين أن الإسلام المبني على خمس هو الإسلام نفسه، ليس المبني غير المبني عليه، بل جعل النبي ﷺ الدين ثلاث درجات: أعلاها الإحسان وأوسطها الإيمان ويليه الإسلام: فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وليس كل مؤمن محسناً، ولا كل مسلم مؤمناً»[٣].

وعلى ذلك فإن معنى قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس» أن المرء لا يوصف بأنه مسلم إلّا إذا أقر بهذه الأركان الخمسة واعتقد وجوبها وأدّاها. فمن لم ينطق بالشهادتين ويؤمن بمقتضاهما، ومن لم يقر بوجوب سائر الأركان الأربعة ويؤديها (ما كان واجباً عليه منها) فليس بمسلم، أو أن إسلامه يكون ناقصاً. وهو يخرج من الإسلام إلى الكفر إذا أنكر وجوب ركن من هذه الأركان أو شك في وجوبه - وذلك باتفاق جميع علماء الإسلام، وكذلك إذا لم ينطق بالشهادتين (مع القدرة على ذلك)[٤]. أما إذا ترك ركناً من هذه الأركان الأربعة ففي تكفيره أقوال لعلماء الإسلام: منهم من كفّر من ترك ركناً من الأركان الأربعة حتى الحج، ومنهم من قال أنه لا يكفر بترك شيء من هذه الأركان ما دام مقراً بوجوبها (وإن كان يفسق بذلك)، ومنهم من قال أنه لا يكفر إلّا بترك الصلاة، وهذه رواية عن أحمد وهو «قول كثير من السلف وطائفة من أصحاب مالك والشافعي وطائفة من أصحاب أحمد» كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، ومن العلماء من قال أن المسلم يكفر بترك الصلاة وترك الزكاة فقط، ومنهم من يكفره

---

(٢) الحديث أخرجه الشيخان، وهو في أول كتاب الإيمان من صحيح مسلم وفي كتاب الإيمان من صحيح البخاري مختصراً. وقال ابن الأثير في جامع الأصول ١/١٢٨ أن الحديث رواه مسلم والنسائي والترمذي وأبو داود. وذكر ابن الأثير رواياته المختلفة ١/١٢٨ - ١٣٦.

(٣) كتاب الإيمان لابن تيمية، ص ٤، ط. المكتب الإسلامي بدمشق، ١٢٨١/ ١٩٦١.

(٤) كتاب الإيمان الأوسط، مجموع فتاوي شيخ الإسلام ٧/٦٠٩، ط. الرياض، ١٣٨٢.

إذا ترك الصلاة والزكاة إذا قاتل الإمام عليها دون ترك الصيام والحج[٥].

فعلماء الأمة - مع هذا الاختلاف فيما بينهم - قد اتفقوا على أن المسلم لا يكمل إسلامه إلاّ إذا أقرّ بهذه الأركان الخمسة وأدّى الأركان الأربعة: الصلاة والزكاة والصوم والحج، وقد اتفقوا على كفر من جحد أو أنكر شيئاً من هذه الأركان بعد بلوغ الحجة «وكذلك من جحد تحريم شيء من المحرمات الظاهرة المتواتر تحريمها كالفواحش والظلم والكذب والخمر ونحو ذلك» وأما من لم تقم عليه الحجة لجهل أو لعذر «فإنهم يستتابون وتقام الحجة عليهم، فإن أصرّوا كفروا حينئذ ولا يحكم بكفرهم قبل ذلك»[٦].

وقد ذهب أكثر علماء الأمة إلى تكفير من ترك الصلاة عامداً لما جاء من نصوص تقضي بذلك مثل قوله تعالى: ﴿**ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين**﴾ (المدثر: ٤٢ - ٤٤). وقد أمر الله عز وجل في كثير من آيات كتابه الكريم بالمحافظة على الصلوات كما في قوله تعالى: ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى** ﴾ (البقرة : ٢٣٨) وتوعد الله سبحانه المنافقين الذين يسهون عن صلاتهم كما في قوله تعالى: ﴿**فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون**﴾ (الماعون: ٤، ٥) وقال النبي ﷺ: بين الرجل والكفر ترك الصلاة فمن تركها فقد كفر»[٧].

والأيمان بهذه الأركان وأداء فرائضها - ولو بغير زيادة إلاّ أن يتطوع الإنسان - يكفي لدخول المسلم الجنة. كما جاءت بذلك الأحاديث الكثيرة[٨]. وهذا لا يتعارض مع وجوب الأمتناع عن المحرمات التي اتفق على تحريمها وأداء

---

(٥) أنظر المرجع السابق، ٦٠٩/٧ - ٦١١.

(٦) المرجع السابق ٦١٠/٧.

(٧) الحديث صحيح رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه والدارمي واحمد. وأنظر ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الإيمان الأوسط ٦١١/٧ - ٦١٦. وأنظر كتاب ابن القيم «الصلاة وحكم تاركها».

(٨) أنظر مثلاً صحيح مسلم ٣١/١ - ٢٤ (ط. المكتب التجاري - بيروت) وأنظر كتاب الإيمان الأوسط، مجموع فتاوي الرياض ٦١٠/٧ - ٦٠٣.

الواجبات التي أجمعت الأمة على قبولها. والدليل على ذلك حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان عن رسول الله ﷺ قال: «أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها وحسابهم على الله»[٩].

ولذلك كان إقام الصلاة وإيتاء الزكاة من الأمور التي تعصم دم المسلم، وكان الامتناع عنهما سبباً في قتاله وقتله. وفي حديث أبي هريرة قال: «لما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلاّ بحقه وحسابه على الله. فقال أبو بكر: والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه. فقال عمر بن الخطاب: فوالله ما هو إلاّ أن رأيت الله عز وجل قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق»[١٠].

وقد يسلم المرء بأن يقر بالأركان الخمسة ويؤديها ولكن ذلك لا يجعله مؤمناً، قال تعالى: ﴿**قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم**﴾ (الحجرات: ١٤)، وقد كان المسلمون على عصر النبي ﷺ يدخلون في الإسلام ثم يقبلون على العبادة والجهاد والفقه والعلم فيحسن إسلامهم ويقال عن الواحد منهم: أسلم سنة كذا ثم حسن إسلامه... والإيمان عند أهل السنة والجماعة لا يكون بمجرد الإقرار كما هو مذهب المرجئة، بل الإيمان عند أهل السنة والجماعة: قول واعتقاد وعمل، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص المعصية، فمجرد العلم لا يكفي المسلم بل لا بد من أن يتبعه بالعمل[١١].

---

(٩) صحيح مسلم ١/٣.

(١٠) صحيح مسلم ١/٣٨.

(١١) أنظر تفصيل هذه المسائل في المجلد السابع من فتاوي شيخ الإسلام (ط. الرياض) وانظر سنن ابن ماجه (المقدمة) وراجع فصل العلم والعمل في القسم الأول من هذا الكتاب.

والإيمان هو أفضل أنواع الإسلام كما في حديث النبي ﷺ أنه قال لأحد أصحابه: «أسلم تسلم. قال: وما الإسلام؟ قال: أن تسلم قلبك لله وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك. قال: فأي الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان. قال: وما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت... الحديث»[١٢] فالإيمان هو رسوخ هذه العقائد في قلب المسلم ولكنه يتضمن أيضاً الأعمال الطيبة التي يشير إليها حديث شعب الإيمان. يقول ابن تيمية: «وإذا ذكر اسم الإيمان مجرداً دخل فيه الإسلام والأعمال كقوله في حديث الشعب: الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق[١٣]. وكذلك سائر الأحاديث التي يجعل فيها أعمال البر من الإيمان»[١٤]

وقد أوضح النبي ﷺ أن أقوى عناصر الإيمان هو التوحيد الصحيح، ونفي الشرك (وهذا هو معنى قوله: لا إله إلاّ الله)، ولذلك كان أول ما أوصى به النبيّ أحد أصحابه وقد سأله عن العمل الذي يدخله الجنة ويبعده عن النار هو قوله ﷺ: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً»[١٥].

وقد يؤمن كثير من الناس بالله ولكن إيمانهم يخالطه الشرك، قال تعالى: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون**﴾ (يوسف: ١٠٦). ولذلك كان إخلاص الدين لله يقتضي ترك جميع الأمور التي تؤدي إلى الشرك مثل تعظيم غير الله وطاعتهم فيما يخالف طاعة الله ودعاء غير الله والتوسل به توسلاً بدعياً والذبح لغير الله وغير ذلك مما بيّنه أئمة المسلمين مثل شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن قيّم الجوزية، وقد فصل الإمام محمد بن عبد الوهاب في عصرنا الحديث القول في هذه الموضوعات وأوضحها خير إيضاح[١٦].

---

(١٢) كتاب الإيمان لابن تيمية ص٤.

(١٣) الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد.

(١٤) كتاب الإيمان، ص ١٠ ـ ١١.

(١٥) أنظر صحيح مسلم ١/٣٣.

(١٦) كما في كتبه المعروفة مثل كتاب التوحيد وكتاب كشف الشبهات. وأنظر مجموعة التوحيد، ط. المطبعة السلفية، بالقاهرة.

والشرك هو أهم أسباب دخول العباد النار، وهو الذي لا يغفره الله لأنه أعظم الذنوب. وهو إنكار لحقيقة الربوبية كما أنه جهل بحقيقة الإنسانية - أو بعبارة أصح العبودية - ولذلك يقول تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ (النساء: ٤٨). وعلى العكس فإن الإيمان هو سبب دخول العبد المسلم الجنة حتى ولو عصى الله. وقصر في طاعته، فإن الله سبحانه وتعالى يعاقبه على معاصيه وتقصيره ولكنه يدخله بعد ذلك الجنة. وهذا هو معنى قول النبي ﷺ لأبي ذر الغفاري: «ما من عبد لله قال لا إله إلاّ الله ثم مات على ذلك إلاّ دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق. قال: وإن زنى وإن سرق، ثلاثا. ثم قال في الرابعة: على رغم أنف أبي ذر»[١٧].

وهذا الحديث يقابله حديث آخر، يقول ابن تيمية نقلاً عن محمد بن نصر المروزي: «.... عن أبي جعفر محمد بن علي أنه سئل عن قول النبيّ ﷺ: لا يزني الزاني حين يزني، وهو مؤمن[١٨]. قال أبو جعفر: هذا الإسلام، ودور دارة واسعة، وهذا الإيمان، ودوّر دارة صغيرة في وسط الكبيرة، فإذا زنى أو سرق خرج من الإيمان إلى الإسلام، ولا يخرجه من الإسلام إلاّ الكفر بالله»[١٩].

ثم نقل ابن تيمية عن محمد بن نصر المروزي: «**ومثل الإيمان والإسلام أيضا كفسطاط قائم في الأرض له ظاهر وأطناب**[٢٠]**، وله عمود في باطنه، فالفسطاط مثل الإسلام له أركان من العلانية والجوارح، وهي الأطناب التي تمسك أرجاء الفسطاط. والعمود الذي في وسط الفسطاط مثله كالإيمان، لا**

(١٧) الحديث في صحيح مسلم ١/٦٦. ورواه البخاري والترمذي وأحمد.

(١٨) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الفتن من سننه وهو صحيح وانظر شرح ابن تيمية له وللحديث الذي رواه أبو داود والترمذي ونصه: «إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظلة، فإذا خرج من ذلك العمل عاد إليه الإيمان» مجموع فتاوي شيخ الإسلام ٧/٦٧٠ - ٦٧٦.

(١٩) كتاب الإيمان، ص ٢٧.

(٢٠) الطنب (بضمتين) حبل الخباء.

قـوام للفسطاط إلاّ بـه[٢١]. فمحمد بن نصر يشبّـه الإسلام بـالخيمة الكبـيرة، ويجعل الأركان هي الحبال التي تشدها وتثبتها، وأمـا العمود الـذي يتوسط هـذه الخيمة فهو الإيمـان، وهو الـذي لا تقوم الخيمـة إلاّ به ولـو سقط أو زال تسقط الخيمة وتنهار.

وقد جاء لفظ «العمـود» في عدة أحـاديث مثل قـوله ﷺ في حـديث معاذ رضي الله عنـه: «... ألا أخـبركم بـرأس الأمـر كله وعمـوده وذروة سنـامـه؟ قلت: بـلى يا رسـول الله. قال: رأس الأمـر كله الإسلام، وعمـوده الصـلاة. وذروة سنامه الجهاد»[٢٢].

ويشرح الشيـخ المبار كفـوري الحـديث فيقـول: «(رأس الأمـر) أي أمـر الدين (الإسلام) يعني الشهـادتين، وهـو من باب التشبيـه المقلوب، إذ المقصود تشبيه الإسلام برأس الأمر ليشعر بأنه من سائر الأعمال بمنزلة الـرأس من الجسد في احتياجه وعدم بقائه دونه، (وعموده الصلاة) يعني الإسلام هو أصل الدين إلاّ أنه ليس له قوة وكمال كالبيت الذي ليس له عمود، (وذروة سنـامه الجهـاد) وفيه إشعار إلى صعوبة الجهاد وعلو أمره وتفوقه على سائر الأعمال»[٢٣].

فالصلاة بما فيها من قـراءة للفاتحـة وآيات القـرآن بعدهـا، وبما فيهـا من نطق بالشهادتين وذكر لله تعالى في القيام والركوع والسجود، وبما فيها من اجتماع للمسلمين خمس مرات كل يوم في المساجد تعد عمود الدين الذي لا يقـوم بناؤه إلاّ بوجوده.

---

(٢١) كتاب الإيمان، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٢٢) الحديث في: الترمذي، كتـاب الإيمـان، ابن مـاجـه، كتـاب الفتن، المسنـد (ط. الحلبي) ٥/٢٣١، ٢٣٧. ويقـول ابن حجر في فتـح الباري ١٦/٥٨ (ط. الحلبي، ١٣٧٨/١٩٥٨): «العمود ما ترفع به الأخبية من الخشب، ويطلق على مـا يرفـع به البيـوت من حجارة كـالرخـام والصوان، ويطلق على ما يعتمد عليه من حديد ونحوه».

(٢٣) الشيـخ محمد المبـار كفوري: تحفـة الأحـوذي شرح جـامـع الـترمـذي ٧/٣٦٢ ـ ٣٦٥، نشر الكتبي، القاهرة، ١٣٨٧/١٩٦٧.

وروى عن النبيّ ﷺ أنه قال: «الجهاد عمود الإسلام»[٢٤]. وهو حديث ضعيف في سنده ومتنه، ولكن حتى على فرض صحته فإنه يمكننا أن نقول إن الصلاة عمود الدين بالنسبة لأفراد المسلمين، وهو الذي يحفظ دين كل واحد منهم، وأن الجهاد عمود الإسلام. ذكر الرسول ﷺ في الحديث الأول الصحيح أن الجهاد ذروة سنام الإسلام، فهو من أسمى العبادات لأنه يقتضي جهداً وتضحية بالأنفس والأموال، وهو الذي يقيم جماعة المسلمين ويحفظها، وهذا كله يعني أن المسلمين لو صلوا واكتفوا بالصلاة وتركوا الجهاد فإنهم يكونون بذلك قد أهملوا عبادة من أرفع العبادات، وطاعة من أعظم الطاعات، كما أنهم يتركون بذلك أهم عامل يكفل وحدتهم وقوتهم وتماسكهم أمام هجمات الكفار والمنافقين.

والإيمان حب وبغض، حب للحق وبغض للباطل، والمؤمن يحب إخوانه ويكره ما عليه الكفار من كفر وباطل وإن كان يدعو لهم بالهداية، فهو لا يكرههم لذواتهم ولكن يكره ما هم عليه من الباطل. يقول الله تبارك وتعالى في وصف أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿**أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ (الفتح: ٢٩)، وإقامة بناء الإسلام يقتضي هدم بناء الكفر، ولا مهادنة في ذلك ولا تهاون، وقد حاول المشركون أن يساوموا رسول الله ﷺ كما ذكر الله سبحانه ﴿**ودوا لو تدهن فيدهنون**﴾ (القلم: ٩) ولكن رسول الله جاهدهم حتى هدم كل بقايا الشرك وآثاره الظاهرة والباطنة. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نوعان من الجهاد، وهما من أهم ما يتصف به المؤمنون: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾ (آل عمران: ١١٠).

وفي مسند أحمد عن النبي ﷺ: «لينقضنَّ الإسلام، عرى الإسلام، عروة

(٢٤) المسند (ط. الحلبي) ٥/٢٣٤.

عروة، فأولها نقضا الحكم وآخرها الصلاة»[٢٥]. وهذا الحديث يكمل الصورة ويوضحها، فبناء الإسلام هو كالخيمة التي تشدها حبال في آخر كل حبل عروة ملفوفة حول وتد من الأوتاد، فكلما تقضت عروة مال جانب من الخيمة وانهار، ثم تفك العرى واحدة بعد الأخرى، وتكون الصلاة هي العروة الأخيرة التي تمسك الإسلام فهي آخر دين المسلمين.

ونلاحظ في هذا الحديث إشارة بليغة وحكيمة إلى موضع الحكم ومكانه في بناء الإسلام، فالحكم هو الذي يضبط أمور المسلمين وينظم شئون حياتهم، ويمكننا أن نشبهه بسقف البيت أو سطح البناء ولا يمكن للسطح أن يقوم إلّا على أساس البناء وأركانه، وعمده وجدرانه ولذلك كان من الخطأ الفاحش ظن بعض المسلمين أن بناء الإسلام قد تقوض عندما تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض، فهذا التحول سبّب تصدعاً في سطح البناء أو أوجد ثغرات وشقوقاً في ذلك السطح ولكن سائر أجزاء البناء ظلت سليمة (وإن لحقها الضرر واحدة بعد الأخرى وشيئاً بعد شيء).

ويرتبط بذلك الخطأ ما يقع فيه بعض من يفسرون التاريخ الإسلامي تفسيراً أساسه أن بناء الإسلام قد تهدَّم بعد استشهاد علي رضي الله عنه وانتهاء الخلافة الراشدة بذلك، ثم يستخلصون من ذلك عدة نتائج منها أن المسلمين بعد ذلك انتكسوا إلى الجاهلية، وعاد الدين فيهم غريباً، وقد يزين لهم الشيطان أنهم هم الذين سيعيدون الدين إلى نقائه من جديد، وأنهم بذلك أفضل من جميع المسلمين منذ بداية العصر الأموي حتى عصرنا الحديث وقد تسمع منهم هجوماً على علماء المسلمين وفقهائهم وقضاتهم وقادتهم، وقد يتهمونهم بالنفاق وبممالأة الحكام، وذلك كله لأنهم التفتوا إلى ما أصاب الحكم من خلل وفساد، ونسوا أن البناء ظلّ سليماً شامخاً، وغفلوا عما قام به علماء

---

(٢٥) الحديث في المسند (ط. الحلبي) ٤/٢٣٢، ٥/٢٥١. وفي «الجامع الصغير» للسيوطي أنه مروي عن أبي إمامة رضي الله عنه في صحيح ابن حبان والمستدرك للحاكم، وعروة الدلو والكوز ونحوه مقبضه، وعروة القميص أو الثوب الفتحة المعقودة حول الأزرار، وعروة الحبل العقدة حول الوتد أو الحلقة في آخر الحبل التي تشد الحبل وتثبته بوتد أو نحوه.

الأمة وفقهاؤها من نشر للعلم وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وجهلوا أو تجاهلوا ما أقبل عليه المسلمون في تلك العصور من جهاد في سبيل الله ونشر لدينه القويم وإقامة للحضارة وتشييد للعمران، ولا شك أن حرص المسلمين على وحدة الأمة وامتثالها لأمر نبيها ﷺ بعدم الخروج على الحكام بالسيف، وعدم شق عصا الطاعة كان من أهم أسباب إغضائهم عن بعض الأخطاء التي وقع فيها الحكام، ولكن ذلك لا يعني أنهم قصروا في الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، أو أنهم أطاعوا في المعصية، إذ أنهم ظلوا مدة طويلة بعد الصدر الأول يصدعون بالحق ويتمسكون بالكتاب والسنة، ولكن الشر زاد رويداً رويداً، وجرى على الأمة ما جرى على سائر الأمم من ضعف وفساد. ومع ذلك فإن تاريخ أمتنا الإسلامية في مجموعه هو أنصع تاريخ، ولا ريب أن الإنسانية لم تشهد في تاريخها الطويل أمة عاشت عمراً طويلاً حافلاً بالخير والبركة مثل أمة المسلمين، ورغم كل ما أصاب المسلمين من تأخر وفساد إلّا أن طوائف من هذه الأمة ظلوا إلى يومنا هذا وسيظلون إلى يوم القيامة بإذن الله كما أخبر نبيّنا ﷺ - على الحق ينفون تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين(٢٦).

ويرتبط بهذا الفهم الخاطئ لبناء الإسلام اهتمام بعض المسلمين - كما ذكرنا في أول هذا الفصل - بإقامة الدولة الإسلامية وحصر جهودهم في العمل السياسي الذي يوصلهم إلى الحكم، وقد يقرنون ذلك بدعوات تقوم على إثارة الحماس العاطفي في نفوس الجماهير، مع عدم الاهتمام بما يجب أن يسبق ذلك من إعداد أنصارهم إعداداً صحيحاً يقوم على تصحيح العقيدة وتطهيرها من الشرك والنفاق، وعلى العلم الواسع بكتاب الله وسنّة رسوله وبعلوم المسلمين المختلفة وبتاريخهم وتراثهم، كما يقوم على العمل بأركان الإسلام المختلفة، ثم على استكمال شعب الإيمان الكثيرة التي تتضمن أداء الطاعات والتحلي بالأخلاق والفضائل، والانتهاء من المنهيات واجتناب المكروهات.

ولا يعني ما قلناه أنه لا يجوز لحاكم مسلم أو رجال دولة مسلمة أن

---

(٢٦) أنظر القسم الأول، ص ١٥٩.

يشرعوا في إقامة نظم الدولة أو تطبيق الشريعة الإسلامية حتى يتم تعليم المسلمين وتربيتهم «كما لا يعني مطلقاً التقليل من أهمية وجود الدولة التي تحكم بالكتاب والسنة، فإن وجود مثل هذه الدولة هو أمل كل المسلمين في هذا العصر الذي حلّت فيه قوانين الكفار محل شريعة الله، وإقامة هذه الدولة واجب على كل المسلمين». إن ما قصدناه هو ألا نظن أنه بمجرد العودة إلى بعض التشريعات الإسلامية أو إقامة بعض نظم الإسلام في الاقتصاد أو السياسة أو غير ذلك، نكون قد عدنا إلى بناء الإسلام الكامل، فالإسلام كل لا يتجزأ، ولا يمكن أن نأخذ بجزء منه ونترك سائر الأجزاء، لأننا نكون بذلك قد فعلنا كما فعل بنو إسرائيل الذين ذمهم الله تعالى بقوله: ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب**﴾ (سورة البقرة: ٨٥).

إن إقامة التشريع الإسلامي في السياسة والاقتصاد، وفي الحدود والعقوبات، يعتمد على وجود المؤمنين الذين يخشون الله ويتجنبون محارمه في السر والعلن، وأن التطبيق الكامل لنظم الدولة يتحقق في أتم صوره عندما يعود المسلمون إلى البناء الإسلامي الكامل، وعلى الذين يؤلفون الكتب في نظم الإسلام السياسية والاقتصادية أن يلتفتوا إلى هذا الارتباط الوثيق بين أجزاء البناء المختلفة وإلى ضرورة تشييد البناء على أساس العقيدة، كما سبق أن بيَّنا.

إن ما يجب أن يتجه إليه المسلمون اليوم هو العمل بأركان الإسلام الظاهرة أولاً، ثم الإقبال على الطاعات واجتناب المحارم، فيصلون بذلك إلى درجة الإيمان، إذ الإيمان ـ كما أسلفنا ـ قول واعتقاد وعمل، وهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وكلما ازدادوا إيماناً اقتربوا من الإحسان واستحقوا بذلك نصر الله وتأييده.

والذين يأخذون جانباً من الدين ويتركون جانباً إنما يهدمون جزءاً من البناء، ولو صدق إيمان المؤمنين لصلحت أعمالهم ولوصلوا إلى الإحسان، يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ «فعُلِمَ أن القلب إذا صلح بالإيمان صلح الجسد

بالإسلام ـ وهو من الإيمان ـ يدل على ذلك أنه قال في حديث جبرائيل: هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم، فجعل الدين هو الإسلام، والإيمان والإحسان، فتبين أن ديننا يجمع الثلاثة»[٢٧].

كتاب الإيمان، ص ٧.

الفصل الثاني

العقيدة أساس البناء

تبينا من الفصل السابق أن الإسلام بناء له أركان خمسة هي الشهادتان (أي النطق والإقرار بهما) والصلاة والزكاة والصوم والحج.

وإن أفضل أنواع هذا البناء وأعظمها شأناً هو الإيمان، وهو لا يقوم على هذه الأركان فقط بل يمتاز بوجود أساس قويٍ له وهذا الأساس يتكون من مواد أو عناصر رئيسية هي الاعتقاد الجازم بالله بوجوده ووحدانيته وصفاته والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، كما أن **هذا الأساس** يتكون من مواد وعناصر أخرى تشمل جميع أنواع البر والتقوى.

والعقيدة الصحيحة هي أهم ما يطلب من الإنسان، لأن العمل إنما يتبع الاعتقاد، وعلى قدر ما تصح عقيدة المسلم وتقوى تستقيم أعماله وتزكو أخلاقه.

ولقد أخبرنا الله سبحانه في كتابه الكريم أنه إنما خلق الثقلين: الجن والإنس لعبادته: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ (الذاريات: ٥٦). قال المفسرون أي ليعرفون ويوحدون [١].

وجعل الله تبارك وتعالى معرفة البشر له أمراً مغروزاً في فطرهم، وقد

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (ط. دار الفكر الطبعة الثانية، بيروت، ١٣٨٩/١٩٧٠) ٦/٤٢٥: «قال ابن جريج: إلا ليعرفون. وقال السدي: من العبادة ما ينفع ومنها مالا ينفع (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله) هذا منهم عبادة وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون».

أشهدهم على أنفسهم أنه ربهم فشهدوا بذلك: ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنا عن هذا غافلين**﴾ (الأعراف: ١٧٢). يقول ابن تيمية إن هذه الآية بيِّنة في إقرارهم وشهادتهم على أنفسهم بالمعرفة التي فطروا عليها: أن الله ربهم [٢].

والإسلام هو الفطرة، وعلى هذا فسّر العلماء معنى كلمة الفطرة في حديث النبي ﷺ الذي رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء. ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾ (الروم: ٣٠) ... الحديث »[٣].

فكل مولود من بني آدم يولد على الإسلام، وهو الفطرة ـ ولكن أبواه أو من يحيطون به يغيرون فطرته إلى أديان أخرى، كما هو الأمر في الناقة أو البهيمة التي تولد سليمة كاملة الأعضاء لا نقص فيها، وإنما يحدث الجدع فيها بعد الولادة بأن يقطع بعض الناس أذنها أو أنفها أو غير ذلك من أعضائها.

إن كل البشر ـ بل كل المخلوقات في هذا الكون ـ تعرف ربها وتسلم له وتقنت له وتسبحه وتسجد له طوعاً أو كرهاً [٤]، ولذلك لا يشك في الله سبحانه إلا من فسدت فطرته: ﴿**أفي الله شك فاطر السماوات والأرض**﴾ (إبراهيم: ١٠)، ولا ريب أن أولئك الذين يشركون بالله أو ينحرفون عن معرفته وتوحيده إنما يتنكرون لحقيقة العبودية التي خلقوا من أجلها، وهم يعرضون عن هداية الرسل الذين جاءوا لتذكيرهم بما في فطرتهم من إيمان وتوحيد ـ إما عناداً واستكباراً، وإما اتباعاً للهوى، وهم بذلك يقترفون أعظم الذنوب وأكبر الكبائر كما قال تعالى ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم**﴾ (لقمان: ١٣)

---

(٢) أنظر جامع الرسائل لابن تيمية، ص ١١ ـ ١٣.
(٣) الحديث عن أبي هريرة رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد وابن حبان، وهو مروي عن صحابة آخرين في مواضع أخرى. وأنظر تعليقي في منهاج السنة ٢/٢٣٤ـ ٢٣٥.
(٤) أنظر رسالة في قنوت الأشياء كلها لله تعالى لابن تيمية، جامع الرسائل ص ٣ ـ ٤٥.

وكما قال سبحانه في حق النصارى: ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئاً إدّاً. تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا. أن دعوا للرحمن ولدا. وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا. إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدَّهم عدّا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾ (مريم: ٨٨ـ ٩٥).

وقد روى البخاري والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: كذّبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يكذّبني، وشتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يشتمني. أما تكذيبه إياي فقوله إني لا أعيده كما بدأته، وليس آخر الخلق بأعز علي من أوله، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد. ولم يكن لي كفوا أحد»[٥].

فإنكار البعث تكذيب لله، وإنكار الوحدانية شتم له سبحانه وتعالى، وهذا بلا ريب ـ أعظم جرم يرتكبه الإنسان، وهذا هو ما ذكره النبي ﷺ - عن عبدالله ـ وهو ابن مسعود ـ قال: سألت النبي ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك. قلت: إن ذلك لعظيم... الحديث[٦].

إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين يجزون في الآخرة بالخلود في النار، وهو جزاء يستحقونه نتيجة كفرهم وشركهم وعدم توقيرهم لله سبحانه. وقد ذكر الله سبحانه ما خاطب به نوح عليه السلام قومه المشركين الذين أصروا واستكبروا استكباراً: ﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقاراً. وقد خلقكم**

---

(٥) هذه رواية النسائي (بشرح السيوطي، ط. المكتبة التجارية، القاهرة) ٤/١١٢ (كتاب الجنائز كتاب ارواح المؤمنين). وروى البخاري الحديث عن أبي هريرة بالفاظ مقاربة في صحيحه ط. مكتبة الجمهورية العربية، القاهرة بدون تاريخ) ٤/١٢٩ (كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده) وعن ابن عباس ٦/٢٤ (كتاب التفسير، سورة البقرة، باب وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه).

(٦) البخاري ٦/٢٢ (كتاب التفسير، سورة البقرة).

أطواراً﴾ (نوح: ١٣ـ ١٤) يقول ابن عباس رضي الله عنهما: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته أي لا تخافون من بأسه ونقمته، وقد خلقكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة [٧]. . . . .

إن الله تبارك وتعالى فطر بني آدم على الإسلام أو الدين الصحيح، وهذا ما نلمس آثاره في جميع الشعوب والأمم، فإن عقيدة التوحيد الصحيحة هي العقيدة التي انتشرت في كل الأمم وفي كافة الأزمان،، ولكن ينحرف الناس عنها قليلاً أو كثيراً حيناً من الزمن فيرسل الله تعالى إليهم الرسل ليعيدوهم إلى التوحيد الصحيح.

وقد قال العلماء المحققون ـ كما يذكر معجم (لاروس) للقرن العشرين «إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية، حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية. . . وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسان» [٨] ويقول المفكر الفرنسي هنري برجسون: «لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لم توجد قط جماعات بغير ديانة» [٩].

ولقد أخطأ الذين ظنوا أن المجتمعات البشرية بدأت بعقائد الشرك ثم تطورت وترقّت إلى التوحيد [١٠]، بل إن الأدلّة العلمية الصحيحة تثبت أن عقيدة التوحيد قديمة بقدم الإنسان، وأن آثارها موجودة عند القبائل الهمجية كما توجد عند الشعوب المتحضرة.

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز في كتابه «الدين» إن نظرية فطرية التوحيد وأصالته قد انتصر لها جمهور من علماء الأجناس وعلماء الإنسان وعلماء

---

(٧) أنظر تفسير ابن كثير لآيات سورة نوح.

(٨) كتاب الدين للدكتور محمد عبدالله دراز، ص ٨٢ (ط. دار القلم، الكويت، ١٣٩٠/١٩٧٠).

(٩) نفس المرجع، ص ٨٢.

(١٠) كما فعل الأستاذ عباس العقاد في «فصل: أطوار العقيدة الإلهية» ص ٢٨ ـ ٤٠ من كتاب «الله» (الطبعة الرابعة)، ط. المعارف. القاهرة، ١٩٦٤.

النفس. ومن أشهر مشاهيرهم لانج الذي أثبت وجود عقيدة «الإله الأعلى» عند القبائل الهمجية في أوستراليا وأفريقيا وأمريكا، ومنهم شريدر الذي أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة، وبروكلمان الذي وجدها عند الساميين قبل الإسلام، ولرواه وكاترفاج عند أقزام أواسط أفريقيا، وشميدت عند الأقزام وعند سكان أوستراليا الجنوبية الشرقية. وقد انتهى بحث شميدت هذا إلى أن فكرة «الإله الأعظم» توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية[11]

إن المسلمين يؤمنون بأن الله علّم آدم الأسماء كلها وأنه كان نبياً علم ذريته التوحيد الصحيح، وقد وقع الكثيرون من بني آدم في الشرك ولكنهم مع ذلك لم ينسوا عقيدة التوحيد التي فطروا عليها، بل ظلت آثارها عميقة في نفوسهم حتى أنهم إذا ألمت بهم شدة دعوا الله مخلصين له الدين، وقد بعث الله رسله إلى الناس في أزمان متعاقبة حتى يخلصوهم من الشرك ويردوهم إلى التوحيد [12].

ونستطيع أن نتبين مدي فطرية عقيدة الإيمان بالله من ملاحظة سلوك الأطفال ومدى استجابتهم لمسائل الدين والاعتقاد وكيف يهتمون اهتماماً بالغاً بكل ما يتصل بأمور العقيدة من ألوهية وبعث وجزاء وغير ذلك، وهذا أمر مشترك بين الأطفال جميعاً في كل الشعوب والأمم [13].

ونحن نلاحظ أن أمور العقيدة والدين كانت أهم محور تدور حوله حياة الناس على مدى قرون طويلة، حتى إن الحروب الطاحنة التي نشبت فيما يسمى بالعصور الوسطى بين المسلمين والمسيحيين إنما كان الدين أهم أسبابها.

(١١) الدين لدراز ص ١٠٧ ـ ١٠٨. ونلاحظ أن بعض هذه الشعوب الهمجية تقول بإله أعلى أو آله أعظم، وهذا لا يعني التوحيد الصحيح ولكنه يدل على أن ما هم عليه من شرك سبقه توحيد صحيح. وانظر كتاب: نشأة الدين» للدكتور علي سامي النشار، ط دار نشر الثقافة، الاسكندرية، ١٩٤٩.

(١٢) الدين لدراز، ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

(١٣) أنظر كتاب «تطور الشعور الديني عند الطفل» للدكتور عبد المنعم المليجي، ط. المعارف، القاهرة.

أما في عصرنا الحديث فقد تغيرت القيم وتبدلت، وأصبح النزاع الآن بين الدول الكبرى على التوسع المادي وامتلاك مصادر الثروة. وبعبارة أخرى أصبح الحصول على المتعة والرفاهية هو محور الصراع.

وهذا يتضمن بلا شك انحداراً كبيراً في نوع القيم التي يؤمن بها الإنسان إذ أنه أعرض عن أهم القيم التي تميزه من حيث هو إنسان بين سائر المخلوقات وجعل كل اهتمامه منحصراً في الأمور التي يشاركه في الإهتمام بها جميع أنواع الحيوان وهي القيم التي تتعلق بالبحث عن المتعة المادية من مطعم ومشرب وملبس ولذة جنسية. وقد ارتد الناس في عصرنا هذا بذلك إلى العصور التي انتكست فيها البشرية من الإيمان والتوحيد إلى الكفر والشرك، وقد وصف الله تعالى هذا الصنف من الناس في كتابه أبلغ وصف حيث قال سبحانه: **﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾** (محمد: ١٢٠).

والعقيدة الإسلامية تمتاز على سائر العقائد التي آمن بها البشر قديماً وحديثاً بوضوحها ويسرها وسلامتها وصحتها، وليس هذا هو مجال المقارنة بالتفصيل ولكن النظرة العاجلة إلى الأديان القديمة في الهند أو مصر القديمة أو فارس أو عند اليونانيين أو الرومان أو الديانة اليهودية والنصرانية ـ بعد ما أصابهما من تحريف وتبديل ـ ترينا بجلاء ما في عقائدهم من وثنية وشرك وسوء اعتقاد في الله سبحانه (١٤).

أما العقيدة الإسلامية فهي ناصعة واضحة ميسّرة تغزو القلوب ويستجيب لها الناس ـ عالمهم وجاهلهم ـ استجابة سريعة، ومن أوضح الأدلة

(١٤) أنظر في ذلك: كتاب «الدين» المذكور آنفاً، وأنظر أيضاً: عباس العقاد باب الله كتاب حقائق الإسلام وأباطيل خصومه. وأحمد شلبي: مقارنة الأديان، ط. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة. ول ديوارنت: كتاب قصة الحضارة» ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة. ابن تيمية الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ط. المدني، القاهرة. محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٩٢/١٩٧٢. د. علي عبد الواحد وافي: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة على الإسلام ط. مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٣٨٤/١٩٦٤. سيف الله أحمد فاضل: إنجيل برنابا دراسات حول وحدة الدين، دار القلم الكويت، ١٣٩٣/١٩٧٣.

على هذا تتبع انتشار الإسلام في الماضي والحاضر [١٥].

وسنعرض فيما يلي لأهم مسائل العقيدة الإسلامية راجعين إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مع اجتناب ما يتصل بذلك من جدل كلامي أو فلسفي.

إن أهم دليل على وجود الله يعتمد على أقوى قانون يؤمن به الناس جميعاً وتعتمد عليه كل العلوم الإنسانية في حقائقها ونظرياتها وهو قانون السببية وهو القائل بأن لكل مسبب سبباً، وهو قانون يتوصل إليه الطفل الصغير إذا لمس بيده جسماً ساخناً فاحترقت يده، إذ يعلم بذلك أن هناك علاقة سببية بين ذلك الجسم وبين احتراق يده فيتجنب لمس نفس الشيء بعد ذلك. وقد آمن بهذا القانون البدوي الأمي وعبر عن ذلك بقوله: «إن البعرة تدل على البعير، وإن آثار الأقدام تدل على المسير، فكيف بسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدلان على اللطيف الخبير!».

وآمن بهذا القانون علماء البشرية قديماً وحديثاً، ومع ما وجهه إليه بعض الفلاسفة من نقد [١٦] فإن تطور كل العلوم وتقدمها، بل تطور البشرية وتقدمها إنما هو رهن بالتسليم بهذا القانون.

يقول الله تعالى: ﴿ **أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون**﴾ (الطور: ٣٥، ٣٦).

يذكر ابن تيمية الآيتين ثم يورد حديث جبير بن مطعم الذي حدثنا فيه بأنه سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب سورة الطور فلما بلغ قوله تعالى (أم خلقوا... الآية) قال: لما سمعتها أحسست بفؤادي قد تصدع» [١٧]

---

(١٥) أنظر الإسلام في القرن العشرين للعقاد.

(١٦) وجه الأشاعرة - ومنهم الغزالي - قديماً، وبعض الفلاسفة المحدثين - وعلى رأسهم دافيد هيوم - نقداً لقانون السببية لا يقوم في أساسه على إنكار هذا القانون، وإنما على نوع العلاقة بين السبب والمسبب.

(١٧) أنظر مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية (ط. الرياض) ٢/١١ - ١٢ وقد أورد ابن كثير هذا الأثر في تفسير آيات سورة الطور، وذكر أن البخاري رواه عن محمد بن جبير بن مطعم عن نبيه، وفيه: كاد قلبي ان يطير ثم يذكر ابن كثير أن جبيراً كان مشركاً لما سمع سورة الطور وأن سماعه لها كان من جملة ما حمله على دخول الإسلام.

وفي هاتين الآيتين استفهام إنكار: يقول الله تعالى للمشركين إنهم خلقوا بعد أن لم يكونوا مخلوقين، فهل خلقوا من غير خالق؟ أم هل خلقوا أنفسهم؟ والجواب على هذين السؤالين بالنفي، أي لا هذا ولا هذا، فمن المستحيل أن يخلقوا من غير خالق، ومن المستحيل أن يكونوا قد خلقوا أنفسهم. يقول ابن قيم الجوزية «فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة، كيف يكون خالقاً لنفسه؟ [١٨].

وإذا سلّم الكافرون بعدم إمكان الأمرين فإن النتيجة الحتمية هي وجود خالق خلقهم، وهذا أمر فطري يعرفه كل إنسان من غير حاجة إلى أدلة جدلية وفلسفية،، كما يعرف أن خلق السماوات والأرض يدل على وجود خالق: ﴿**أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون**﴾. يقول ابن كثير: «وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له، ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك»[١٩].

ودليل الخلق جاء في أول آيات انزلت على رسول الله ﷺ وهي الآيات الأولى من سورة العلق[٢٠]، بل يرى أبن تيمية ذلك في أول آيتين من السورة وهما قوله تعالى: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق**﴾. يقول ابن تيمية في رسالة «تفسير أول سورة العلق»[٢١] إن الله سبحانه ذكر خلق الإنسان من علق - وهو جمع علقة وهي القطعة الصغيرة من الدم، لأن ما قبل ذلك كان نطفة، والنطفة قد تسقط من الرحم قبل أن تصير علقة، أما العلقة فإنها تثبت في الرحم وتكون هي مبدأ خلق الإنسان، ثم تحدث تطورات في الجنين فيتحول إلى مضغة مخلّقة وغير مخلّقة إلى أن يكتمل وتتم ولادته، ثم

---

(١٨) مختصر الصواعق المرسلة ١/٧٢، ط. مطبعة الإمام، القاهرة، ١٣٨٠ -

(١٩) تفسير ابن كثير ٦/٤٣٧.

(٢٠) في ارجح الأقوال، وأنظر مثلاً ما ذكره السيوطي في كتابه «الإتقان» في علوم القرآن أو الزرقاني في كتابه «مناهل العرفان في علوم القرآن» في أول ما نزل من القرآن.

(٢١) مجموعة تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٩٣ وما بعدها، ط. المطبعة القيمة، بومباي. الهند، ١٣٧٤/١٩٥٤.

يتطور بعد الولادة في مراحل مختلفة ذكرها الله تعالى في كثير من الآيات القرآنية.

ويقول ابن تيمية أن الله سبحانه بدأ بقضية عامة فقال: **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾** فأطلق الخلق وهذا يتناول كل مخلوق، ثم جاء بالدليل على ذلك في قوله تعالى: **﴿خلق الإنسان من علق﴾** وهذه قضية خاصة أو دليل خاص ببني الإنسان وجميع بني آدم يعرفون بالضرورة أن كل إنسان خلق بعد أن لم يكن وأن خلقه حدث في بطن أمه، كما قال تعالى: **﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾** (مريم: ٩)، وقال عز وجل: **﴿أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾** (سورة مريم: ٦٧) أليس هذا مما يستدل عليه.

إن كثيراً من الناس يعرفون ما يطرأ على الجنين من تطورات عجيبة تنتهي بولادة الإنسان، ثم يمر بعد ولادته بأطوار أخرى في حياته من طفولة وشباب وكهولة وشيخوخة حتى يموت، وهذا كله لا يد للإنسان فيه، وهو يدل على أنه من صنع إله قادر خالق هو ربنا الذي خلق.

وإذا كانت هذه الأطوار التي يمر بها الجنين يعرفها عامة الناس معرفة إجمالية، فإن العلماء يدرسونها دراسة مفصلة، وقد أصبحت هذه الدراسة اليوم موضوعاً لعلم من العلوم الطبية هو علم تكوين الأجنة Embryology.

وقد ذكر الله سبحانه، هذه الأطوار في آيات كثيرة يمكن أن يستدل منها على أمرين أساسيين: الأول: على وجود الخالق سبحانه، والثاني: على البعث بعد الموت. من هذه الآيات قوله تعالى: **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين. ثم إنكم بعد ذلك لميتون. ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾** (المؤمنون: ١٢ - ١٦). ومنها قوله سبحانه: **﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً**

ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون ﴾ (غافر: ٦٧)[٢٢].

ويحدثنا العلماء عن إعجاز الخلق الإلهي الذي يظهر في تطورات الجنين منذ بدايته في المرحلة الأولى بعد التقاء واحد من ملايين الحيوانات المنوية الموجودة في مني الذكر ببويضة الأنثى وحدوث التلقيح فتتكون النطفة ثم تتطور إلى العلقة التي تعلق في أنسجة جدار الرحم المتشابكة بحيث يتعذر سقوطها من الرحم ثم تتعاقب الأطوار المختلفة والجنين في الرحم الذي تحميه عظام حوض المرأة ويحاط الجنين فيه بالمشيمة وبمواد سائلة تحميه من الصدمات التي قد تتعرض لها الأم بحيث يكون في قرار مكين، وفي ظلمات ثلاث كما جاء في قوله تعالى: **﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾** (الزمر: ٦) قال بعض المفسرين: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة[٢٣].

وعندما يحل موعد الولادة يحدث المخاض، وهو نوع من الانقباض والدفع التلقائي يحدث في رحم المرأة حتى تتم الولادة، ويساعد على خروج المولود من عنق الرحم حدوث تمدد واتساع في أنسجة العنق، فإذا خرج الطفل تبدأ رئتاه في العمل فور خروجه. ويبقى الطفل في أيام ولادته الأولى معتمداً في غذائه على سائل يخرج من ثديي أمه قبل نزول اللبن، ويكون ذلك السائل مناسباً لحالة معدته، في تلك الأيام. وبعد ذلك يدر ثديا الأم اللبن الذي يتغذى عليه الطفل مدة طويلة والذي يتضمن كل العناصر الغذائية وهو يزداد كثافة بصورة متناسبة مع تقدم عمر الرضيع. ويودع الله الحنان في قلب الأم التي تضم طفلها الضعيف العاجز إلى صدرها كل يوم وتغذيه بلبنها حتى يقوى ويشب على قدميه، ثم يمر الطفل بالمراحل التي أشارت إليها الآيات الكريمة إلى أن يتوفاه الله عز وجل عند حلول أجله.

---

(٢٢) أنظر أيضاً: سورة المرسلات: ٢١ ـ ٢٤. وأنظر هذا الكتاب فيما يلي ص ١٨٠ـ١٨١.
(٢٣) أنظر مثلاً تفسير ابن كثير للآية ٦/ ٧٩ (ط. دار الفكر، بيروت).

إن قضية الخلق هذه هي أقوى دليل على وجود الله سبحانه، والخلق أمر تفرد به الله تبارك وتعالى، وهو يقرر ذلك في كتابه حيث يقول عز وجل: **﴿أيشركون ما لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون﴾** (الأعراف: ١٩١) ويقول: **﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾** (النحل: ١٧) ،ويقول تبارك وتعالى: **﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾** (لقمان: ١١).

وقد تحدى الله سبحانه الكفار وبين عجز الآلهة التي يعبدونها، وعجزهم هم من باب أولى، عن أن يخلقوا أحقر المخلوقات وهو الذباب، فقال تعالى: **﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب. ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز﴾** (الحج: ٧٣، ٧٤).

يستشهد ابن كثير في تفسيره للآيتين بالحديث المروي في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: قال الله عزل وجل: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة». ويذكر ابن كثير أن الأصنام والأنداد التي يعبدها الكفار عاجزة عن خلق ذباب واحد، بل عاجزة عن مقاومته والدفاع عن نفسها لو سلبها شيئاً من الأشياء، قال تعالى**﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾**قال ابن عباس: الطالب الصنم والمطلوب الذباب، وقال السدي وغيره: الطالب العابد والمطلوب الصنم .

وقد عرض الدكتور محمد عبدالله دراز في كتابه «الدين» معظم المذاهب التي قال بها المفكرون لإثبات وجود الله، وهي المذاهب الكونية أو الطبيعية والمذاهب الروحية أو الحيوية والمذاهب النفسية والمذاهب الأخلاقية والمذهب الاجتماعي والمذهب التعليمي ثم حللها ونقدها[٢٤] وعقب على ذلك بقوله: «إن الذي يستعرض أساليب الهداية القرآنية إلى عقيدة الألوهية يجدها قد أحاطت بأطراف هذه المسالك، وأشبعت تلك النزعات جميعاً، بل ربما زادت في

---

(٢٤) أنظر كتاب الدين، ص ١٠٤ ـ ١٦٦.

كل منهج عناصر جديدة لم يفطن إليها الباحثون المذكورون»[٢٥].

ذلك قول مجمل في عقيدة الألوهية أو الايمان بوجود الله سبحانه وسنعرض فيما يلي بإيجاز لمسألة صفات الله تعالى.

إن الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته عز وجل يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإيمان بوجود الله سبحانه وقد كانت مسألة صفات الله مثار جدل طويل بين المتكلمين الذين زعموا أنهم يتبعون النظر العقلي والأدلة العقلية وأنهم لذلك لجأوا إلى «التأويل» رغبة في تنزيه الله سبحانه عما لا يليق به. وقد ذكرنا من قبل كيف أوّل المعتزلة استواء الله على العرش فقالوا إن المقصود بذلك هو الاستيلاء[٢٦] وهكذا فعلوا ـ وفعل غيرهم من نفاة الصفات ـ في سائر صفات الله إذ أنكروا بعضها أصلاً مثل صفة الكلام، وأولوا البعض الآخر: أي صرفوها عن معناها الحقيقي كقولهم إن معنى السمع والبصر هو العلم.

وفهم مسألة صفات الله على الوجه الصحيح يرتبط بأمور عدة: الأول منها أن الإيمان بصفات الله متوقف على الإيمان بإعجاز القرآن ومقتضى ذلك أنه ما من كلمة في كتاب الله إلا وقد وضعت في موضعها الصحيح بحيث لا يمكن استبدالها بكلمة غيرها، فلو أن الله تبارك وتعالى عنى بالسمع ـ مثلاً ـ مجرد العلم لما قال غير ما يعني ولكنه لما قال عز وجل: **﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾** (المجادلة: ١) فلا ريب أن معنى السمع هنا يختلف عن مجرد العلم.

وكذلك في قوله: **﴿وكلّمَ الله موسى تكليماً﴾** (النساء: ١٦٤) لايجوز أن يقال ـ كما قال بعض المعتزلة ـ أن الله خلق كلاماً في شجرة فسمعه موسى!!

والأمر الثاني أن معرفة الله سبحانه وعبادته عز وجل على الوجه الصحيح لا يتحققان إلّا إذا عرفنا أسماءه وصفاته، وآمنا بها إيماناً تاماً، فمعرفتنا بأن الله

---

(٢٥) المرجع السابق، ص ١٦٧، وأنظر الآيات التي أوردها الأستاذ المؤلف للبرهنة على كلامه، ص ١٦٧ - ١٧٢.

(٢٦) أنظر ما سبق في هذا الكتاب ص ٨٧.

هو «الناصر» تؤكد لنا أنه هو الذي ينصر عباده المؤمنين إذا صدقوا وأخلصوا في جهادهم وقد ضمن لهم سبحانه النصر حينذاك، وإيماننا بأن الله هو «الرازق» و«الرزاق» يدفعنا ـ مع السعي والكدح في سبيل الرزق ـ إلى الاعتقاد بأن الله هو الذي يجزينا على ما بذلناه من جهد وعمل بأن يرزقنا ما قدره لنا من المال أو صنوف رزقه التي جعلنا مستخلفين فيها. واعتقادنا بأن الله هو المحيي والمميت يؤكد لنا بأننا سوف نموت عند حلول الأجل الذي كتبه الله علينا مهما توقينا الموت وحاولنا الفرار منه، وهذا كفيل بأن يجعلنا لا نخشى غير الله ولا نخضع لغيره حتى لو هددنا الناس بالموت لأنهم لن يغيروا ما قدره الله لنا (ولا يعني ذلك بالطبع أن نفرط في حياتنا أو نعرض أنفسنا للموت لغير سبب من الأسباب المشروعة مثل الجهاد في سبيل الله).

وأمر ثالث يتعلق بمسألة الصفات وهو أن معرفتنا بصفات الله سبحانه إنما نستمدها من ألفاظ اللغة التي نتكلم بها، وهذه الألفاظ إنما تدل على موجودات مخلوقة، وهذه المدلولات تختلف كل الاختلاف عن مدلولات الألفاظ التي نطلقها في وصف الله عز وجل، فنحن نصف الله بأنه عالم ونصف الإنسان بأنه عالم مع علمنا بأن علم الله يختلف كل الاختلاف عن علم الإنسان، وكذلك نصفه سبحانه بأنه حي ونصف الإنسان أو غيره من الأحياء ـ بأنه حي، وحياته تبارك وتعالى غير حياة الأحياء المختلفة.

وهذا كما أننا إذا قلنا أن رائد الفضاء كان يمشي على سطح القمر فإننا نستعمل كلمة «يمشي» مع علمنا اليوم بأن المشي على سطح القمر غير المشي على سطح الأرض لاختلاف الضغط الجوي، ولكننا لا نجد في ألفاظ اللغة لفظاً آخر للتعبير عن تلك الحركة التي حدثت على سطح القمر والتي تشبه المشي على الأرض.

وكذلك يستشهد أهل السنة والجماعة بعبارة قالها ابن عباس رضي الله عنهما وهي: «ليس في الجنة مما في دنياكم إلاّ الأسماء» ومعنى ذلك أننا نعلم من الكتاب والسنة أن في الجنة عسلاً ولبناً وخمراً وغير ذلك، ولكن هذه الأشياء جميعها وإن اشتركت في الأسماء مع أشياء أخرى في حياتنا الدنيا إلاّ أنها تختلف

عنها اختلافاً تاماً في حقيقتها وكنهها.

ولذلك كانت القاعدة الأساسية التي يعتمد عليها أهل السنة والجماعة في معرفة صفات الله سبحانه وتعالى مستمدة من قوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ (الشورى: ١١) فمع إثباتنا لصفات الله عز وجل التي وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ فنحن ننزهه عن مماثلة أي شيء أو مخلوق من المخلوقات فهو سبحانه يتكلم ولكننا لا نعلم كيف يتكلم لأنه (ليس كمثله شيء) وهو يستوي على العرش ولكن: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة» كما قال مالك بن أنس رحمه الله.

وقد رفض النفاة قبول بعض الصفات خوفاً من التشبيه - بزعمهم - وقبلوا بعض الصفات، فقال المعتزلة إن الله «عالم بذاته حي بذاته قادر بذاته» وهذا يتضمن قبولاً لصفات العلم والحياة والقدرة ونحن نعلم أن الحياة تعني النمو والإحساس والحركة وغير ذلك مما يميز الحي عن الميت فهل يجوز أن نفهم من قولنا أن الله حي أنه - تنزه وتعالى عن ذلك - ينمو أو أن له حواسّ أو غير ذلك من صفات الأحياء من المخلوقات؟!.

إننا إذا سرنا مع نفي الصفات إلى النهاية تنتهي إلى نفس النتيجة التي انتهت إليها فرقة الإسماعيلية التي قالت إننا لا نقول إن الله موجود إلا اضطراراً وأنه لا يجوز أن نصف الله بأية صفة خوفاً من الاشتراك والتشابه مع المخلوقات[٢٧]. وهذا الموقف هو عكس موقف المشبهة أو المجسمة الذين أثبتوا المعنى الحرفي الظاهر للصفات فقال بعضهم إن الله - سبحانه وتعالى - له صورة وأن وجهه وجه شاب[٢٨] ولذلك قال أهل السنة: «إن المعطلة (الذين ينكرون

---

(٢٧) أنظر كتاب راحة العقل لحميد الدين الكرماني، ص ٥٥، وأنظر كتاب منتخبات اسماعيلية تحقيق الدكتور عادل العوا ص ٩٥ - ٩٦ ط، كتاب طائفة الأسماعيلية للدكتور محمد كامل حسين ص ١٥٧، ط مكتبة النهضة العربية القاهرة ٥٩.

(٢٨) أنظر مقالات الإسلاميين للأشعري (ط ريتر استانبول ١٩٢٩ م) ١/٢٠٧ - ٢٠٩، الملل والنحل للشهرستاني (ط الانجلو، القاهرة ١٣٧٥/ ١٩٥٦) ٩٦ - ٩٩، الفرق بين الفرق لابن طاهر البغدادي (ط. القاهرة ١٣٦٧/ ١٩٤٨) ص ١٣٨/١٤١.

الصفات) يعبدون عدماً وإن المجسمة يعبدون صنماً».

وأمر رابع في مسألة الصفات يرتبط بالتأويل فإننا إذا أجزنا تأويل نصوص الكتاب والسنة حسب الآراء الشخصية نكون بذلك قد جعلنا عقيدتنا خاضعة للآراء والأهواء الشخصية فبعض المعتزلة - كما سبق أن رأينا - أوّل كلمة استوى بمعنى استولى[٢٩]، وبعضهم قال إنها بمعنى ملك أو قهر، وقالت فرقة منهم بل معنى ذلك قصد وأقبل على خلق العرش وقالت فرقة أخرى يحتمل خمسة عشر وجهاً كلها لا يعلم أيها المراد[٣٠]، وقال بعض الناس الاستواء هو القعود والتمكن[٣١].

والعقيدة من الأمور الثابتة في الدين والتي لا تؤخذ إلاّ عن طريق الوحي، ولا يجوز أن تفهم النصوص المتعلقة بها إلاّ كما فهمها صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم من السلف الصالح، وهو الفهم الصحيح الموافق لمعاني لغة العرب، ولذلك كان منهج أهل السنة فيها هو أن «يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسله نفياً وإثباتاً، فيثبت لله ما أثبته لنفسه، ويُنفي عنه ما نفاه عن نفسه، وقد عُلم أن طريق سلف الأمة وأئمتها: إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل»[٣٢] وفتح باب التأويل يؤدي إلى إلغاء الشريعة كلها، ونحن نرى ونسمع العجائب اليوم من الذين يريدون تأويل حقائق الشريعة وتحريفها بدعوى التطور حتى جعلت بعض البلاد الإسلامية ميراث الذكر كميرات الأنثى مدعية أن المرأة تعمل وهي في حاجة إلى المال مثل الرجل، مع معارضة هذا القول لقوله تعالى: ﴿**للذكر مثل حظ الأنثيين**﴾ (النساء: ١١)[٣٣] ومع العلم بأن الرجل ما زال مسئولاً عن الإنفاق على أسرته في كل بلدان العالم.

---

(٢٩) مقالات الإسلاميين ١/١٥٧.

(٣٠) مختصر الصواعق المرسلة ٢/٣٢٠.

(٣١) مقالات الإسلاميين ١/٢١١.

(٣٢) العقيدة التدمرية لابن تيمية، ص ٤، ط. المنار، القاهرة.

(٣٣) وانظر أيضاً نفس السورة الآية ١٧٦.

إن منهج أهل السنة والجماعة في مسألة صفات الله قد استمد من الكتاب والسنّة، وقد استنبطوا منهما ما فيه الرد على الفرق المبتدعة، مع ملاحظة أن كتاب الله يوجه المؤمنين إلى التعرّف على صفات الله سبحانه بواسطة النظر في الآيات النفسية والكونية، وبعبارة أخرى بواسطة نظر الإنسان إلى نفسه وإلى ما يحيط به من مخلوقات الله المنبثة في الكون.

وخير مثال على ذلك ما نجده في آيات سورة الواقعة حيث يقول الله عزَّ وجلّ: ﴿**أفرأيتم ما تمنون[٣٤]. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون. نحن قدّرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين[٣٥]. على أن نبدِّل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون. ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكّرون. أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاماً[٣٦] فظلتم تفكهون[٣٧]. إنا لمغرمون[٣٨]. بل نحن محرومون. أفرأيتم الماء الذي تشربون. أأنتم أنزلتموه من المزن[٣٩] أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه أجاجاً[٤٠]. فلولا تشكرون. أفرأيتم النار التي تورون[٤١]. أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون. نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين[٤٢]. فسبح باسم ربك العظيم**﴾ (الواقعة ٥٨ ـ ٧٤).

ففي هذه الآيات نجد أن الله سبحانه يعرفنا ببعض صفاته العلية عن طريق النظر إلي آياته النفسية والكونية والاعتبار بما فيها من دلائل على تلك الصفات فنحن إذا ما تأملنا في طريقة خلق الإنسان التي تبدأ بالمني الذي يقذف

---

(٣٤) ما تقذفون من المني في الأرحام.
(٣٥) بمغلوبين عاجزين.
(٣٦) هشيماً لا ينتفع به.
(٣٧) تندمون وتعجبون من سوء حاله ومصيره.
(٣٨) معذبون لهلاك رزقنا.
(٣٩) السحاب.
(٤٠) شديد الملوحة.
(٤١) توقدون بقدح الزناد.
(٤٢) للمسافرين الذين لا زاد معهم.

في أرحام النساء (وما يعقب ذلك من أطوار) علمنا أنه سبحانه هو الخالق، وإذا اعتبرنا بتقدير الله تبارك وتعالى لآجالنا وكتابته لها عرفنا أنه هو المحيي المميت، وإذا تفكرنا فيما ترشدنا إليه الآيات من كيفية إنبات النبات بعد نزول الماء العذب من السماء وهو الذي يشربه الناس ويسقون به زرعهم وأنعامهم، ونظرنا إلى النار التي نوقدها من الحطب الذي كان شجراً أخضر وهي النار التي تذكرنا بنار الآخرة، علمنا أن الله تعالى هو المنعم الوهاب الرزاق وهو القادر العظيم وهو الرحمن الرحيم الحكيم وأن إليه الرجعى.

إن المجال هنا لا يتسع لمزيد من التفصيل في مسألة الصفات وغيرها من مسائل العقيدة وسنكتفي بعرض أدلة الكتاب والسنّة على البعث، وذلك أن الإيمان بالله واليوم الآخر هو أساس اعتقاد المسلم، وأود أن أنبه إلى أن أدلة البعث - مثل كثير من أدلة العقيدة - أدلة شرعية وعقلية في وقت واحد فهي شرعية نقلية لأن الشارع سبحانه جاء بها في كتابه ووردت بها سنة نبيّه ﷺ وهي منقولة عنهما وهي أدلّة عقلية لأنها توافق العقل السليم الصريح، وهي تقنع الإنسان العاقل إذا نظر إليها بعقله المجرد.

وإدراك هذا كفيل بأن يقنعنا ببطلان رأي أهل الكلام الذين يشترطون وجوب النظر العقلي على كل مسلم بحيث لا يصح إيمانه قبل النظر العقلي، وذلك أن الإيمان فطري كما قدمنا، كما أن نصوص الكتاب والسنّة تغنينا عن الأدلة الجدلية التي يزعم المتكلمون أن معرفتها ضرورية للإيمان.

وأول دليل - شرعي وعقلي - على البعث هو أن إعادة الحياة إلى الإنسان بعد موته مثل - بل أسهل في منطق العقل - من ابتداء الحياة فيه بعد أن كان عدماً، كما في قوله تعالى: ﴿**وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم**﴾ (يس: ٧٨، ٧٩) وقوله: ﴿**كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين**﴾ (الأنبياء: ١٠٤)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿**وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى**﴾ (الروم: ٢٧)[٤٣].

(٤٣) أنظر أيضاً. سورة ق آية ١٥، سورة الإسراء: ٤٩ - ٥١.

ودليل آخر هو دليل مستمد من الطبيعة ومن النظر إلى الكون، فنحن ننظر إلى الأرض الجرداء التي لا نبات فيها فنراها أرضاً ميتة لا حياة فيها ثم ينزل عليها المطر فتدب فيها الحياة وينبت فيها الزرع بأنواعه وألوانه. وهذا مثال واضح ونموذج جيد لما سيحدث عند البعث، وهذا ما يذكره الله تعالى في قوله: **﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾** (الحج: ٥ - ٧). وفي قوله تعالى: **﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾** (فاطر: ٩)[٤٤].

ودليل ثالث نجده في كتاب الله مستمد من وجود الموجودات فإن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق الإنسان، والله الذي خلقها قادر على كل شيء وقادر على إحياء الإنسان بعد موته، كما في قوله تعالى: **﴿أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم. إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾** (يس: ٨١ - ٨٣) وقوله سبحانه: **﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾** (الأحقاف: ٣٣)[٤٥].

ودليل رابع نستنبطه من الأطوار المختلفة التي يمر بها خلق الإنسان وهو جنين في بطن أمه ثم بعد ولادته حتى يتوفاه الله - وقد أشرنا إلى ذلك من قبل[٤٦] كما في قوله تعالى: **﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدّكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد**

---

(٤٤) وانظر أيضاً سورة ق: ٩ - ١١.

(٤٥) وانظر أيضاً سورة الإسراء: ٩٨، ٩٩ سورة غافر: ٥٧.

(٤٦) انظر ما سبق، ث ١٩٣ - ١٩٥.

علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾ (الحج: ٥ - ٧)[٤٧]، وفي قوله سبحانه: **﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى. ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾** (القيامة: ٣٦ - ٤٠).

ودليل خامس يمكن لأي عاقل أن يلاحظه كل يوم في الصباح وفي المساء وهو دليل مستنبط من نوم الإنسان ويقظته، فإن النوم أخو الموت واليقظة تشبه البعث، كما في قوله تعالى: **﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضىٰ عليها الموت ويرسل الأخرىٰ إلى أجلٍ مسمى إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون﴾** (الزمر: ٤٢). ولذلك أردا لنا النبي ﷺ أن تتحول هذه الحقيقة الاعتقادية إلى أمر واقعي عملي نتذكره كل صباح ومساء حتى لا نغفل يوما واحداً عن مصيرنا، فأمرنا أن نقول عند النوم (فيما رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ): «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فاغفر لها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[٤٨] أما عند اليقظة فندب رسول الله ﷺ المسلمين إلى هذا الذكر - وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة: «الحمد لله الذي عافاني في جسدي ورد عليّ روحي وأذن لي بذكره». أو أن نقول - كما جاء في الصحيح عن حذيفة وأبي ذرّ: «الحمد لله الذي أحياناً بعد ما أماتنا وإليه النشور»[٤٩].

ودليل سادس نجده في كتاب الله في الآيات التي يذكرنا بها الله سبحانه بأنه قادر على أن يخرج الشيء من ضده وأنه في حياتنا الدنيا وأمام أعيننا يخرج

---

(٤٧) قسم من الآية الخامسة وهو الذي يبدأ بقوله تعالى: (وترى الأرض هامدة....) يتبع الدليل الثالث.

(٤٨) وفي دعاء آخر رواه مسلم عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ: «اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفاها لك مماتها ومحياها إن أحييتها فاحفظها وإن أمتها فاغفر لها اللهم إني أسألك العافية».

(٤٩) وذلك بعد أن نقول عند النوم: «باسمك اللهم أحيا وأموت».

الحي من الميت ويخرج الميت من الحي كما في قوله تعالى: ﴿**وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي**﴾ (آل عمران: ٢٧) قال ابن جرير الطبري أن أفضل تفسير لهذه الآية هو قول من قال إن الله تعالى يخرج الإنسان الحي والبهائم الحية من النطفة الميتة، ويخرج النطفة الميتة من الإنسان الحي والبهائم الأحياء. ومثّل ابن كثير لذلك بإخراج الزرع من الحب والحب من الزرع والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة»[٥٠].

وكما في قوله تبارك وتعالى: ﴿**الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون**﴾ (يس: ٨٠). قال ابن قيّم الجوزية: «فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشيء من ضده هو الذي يفعل ما أنكره الملحد من إحياء العظام وهي رميم»[٥١].

ودليل سابع نستمده من تنبيه الله سبحانه وتعالى البشر إلى أنه يعلم ما يتحلل من جسم الإنسان بعد موته، وأنه ما من جزء من أجزائه إلاّ وهو معلوم لديه ومحفوظ عنده سبحانه وإن اختلط بالأرض وامتزج بالتربة، وهذا ما يفهم من قوله عز وجل: ﴿**بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب. أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد. قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ**﴾ (ق: ٢ - ٤).

ومن العجيب أنه في الوقت الذي قرر فيه العلماء أن المادة لا تفنى ومع ما نعلمه من قدرة علماء البشر على استخلاص العناصر والمواد البسيطة من المركبات ما يزال هناك من يشك في قدرة الله سبحانه - وله المثل الأعلى - على إرجاع الأجسام الميتة إلى حالتها التي كانت عليها - بكل تفصيلاتها - قبل الموت ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾ (الملك: ١٤).

ولعل في آيتي سورة القيامة ما يشير إلى قدرته سبحانه على إعادة أدق

---

(٥٠) أنظر تفسير الطبري (ط. المعارف) ٣٠٩/٦ وتفسير ابن كثير ٢٦/٢.

(٥١) مختصر الصواعق المرسلة ٦٦/١.

أجزاء الجسم إلى حالتها السابقة قبل الموت مهما أصابها من تغيير وتبديل وذلك في قوله تبارك وتعالى: **﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلىٰ قادرين على أن نسوي بنانه﴾** (القيامة: ٣، ٤). فذكر البنان (وهي أطراف الأصابع) يرتبط - والله أعلم - بما نعلمه من اختلاف بصمات الأصابع البشرية بحيث لا تتشابه بصمات إنسان مع بصمات إنسان آخر.

ودليل ثامن يستند إلى أن إنكار البعث يتنافى مع الإيمان بحكمة الله تعالى وأنه يعني أن الإنسان لم يخلق لحكمة معينة بل كان خلقه عبثاً وهو بذلك لن يحاسب ولن يعاقب أو يثاب، وهذا ما ينزه الله سبحانه عنه كما في قوله تعالى: **﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون. فتعالى الله الملك الحق لا إله إلاّ هو رب العرش الكريم﴾** (المؤمنون: ١١٥، ١١٦) وكما في الآية التي سبق ذكرها: **﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾** (القيامة: ٣٦).

ولا شك أن الدليلين السابع والثامن يرتبطان بالإيمان بالله سبحانه فلا يقتنع بهما غير المؤمن، أما الأدلة الستة الأولى فهي أدلة يقبلها العقل المجرد لأي إنسان حتى مع افتراض أنه لم يسبق له إيمان بالله سبحانه.

وهناك دليل تاسع يرتبط بالإيمان بكتب الله المنزلة على أنبيائه وهي الكتب التي حدثتنا بما حدث في عصور الأنبياء والرسل السابقين من إحياء للموتى خلال حياتهم الدنيا.

وقد أخبرنا الله سبحانه بما كان بين إبراهيم عليه الصلاة والسلام وبين الملك النمرود الذي رد على قول إبراهيم إن الرب تعالى هو الذي يحيي ويميت بقوله: «أنا أحيي وأميت» فأفحمه إبراهيم بأن قال له: **﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فَأْتِ بها من المغرب﴾** ولم يملك الملك رداً على إبراهيم كما ذكر الله تعالى: **﴿فبهت الذي كفر﴾**.

كما أخبر الله سبحانه في الاية التي تليها من سورة البقرة بالذي مر على قرية وقد خربت وأصبحت أطلالاً فتساءل متعجباً كيف يحي الله هذه القرية بعد خرابها، فأراه الله كيفية ذلك في نفسه وفيما كان معه من طعام وشراب إذ

أماته مائة عام وأمات حماره معه، ثم أحياهما بعد موتهما وسأله كم لبثت ؟ فرد قائلاً لبثت يوماً أو بعض يوم، فقال له الله سبحانه : بل لبثت ميتاً مائة عام، فانظر إلى طعامك وشرابك تجدهما لم يتغيرا أو يفسدا مع مرور السنين، وانظر إلى حمارك كيف نرفع عظامه ونحركها ونردها إلى أماكنها من الجسم ثم نكسوها لحماً كما فعلنا مع عظامك وجسدك، فأقر بقدرة الله سبحانه على كل شيء.

وفي الآية الثالثة يذكر الله سبحانه ما كان من إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما طلب من الله عز وجل أن يريه كيف يحيي الموتى فأمره الله أن يأخذ أربعة من الطير ثم يقطعهن إلى أجزاء ويفرق تلك الأجزاء على رؤوس عدة جبال ثم يدعوهن إليه فلما فعل ذلك تجمعت الأجزاء المتفرقة، ودبت الحياة في الطيور وأقبلت طائرة نحوه[٥٢].

وقد أخبرنا الله سبحانه كيف طلب بنو إسرائيل من موسى أن يريهم الله جهرة فأماتهم بالصاعقة ثم أحياهم بعد موتهم[٥٣].

كما أخبرنا عز وجل عن عيسى عليه السلام وكيف كان يجعل الطين على هيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وكيف كان يدعو للأعمى والأبرص فيشفيان بإذن الله ويدعو للميت فيحيا بإذن الله[٥٤].

وقد أخبرنا الله تبارك وتعالى خبر أصحاب الكهف[٥٥] وغيره من الأخبار عمن أحياهم بعد موتهم في حياتهم الدنيا، وكلها أخبار تدل المؤمنين بالقرآن وبكتبه المنزلة على صدق عقيدة البعث وعلى أن الله سيبعث الموتى يوم القيامة.

---

(٥٢) انظر سورة البقرة: الآيات ٢٥٨ ـ ٢٦٠ وانظر تفسير الطبري (ط المعارف) ٥/٣٤٢ ـ ٥١٢.

(٥٣) أنظر تفسير آيتي ٥٥ ـ ٥٦ من سورة البقرة في تفسير الطبري (ط المعارف) ٢/٨٠ ـ ٩٠.

(٣) أنظر تفسير آية ٣ من سورة آل عمران في تفسير الطبري ٦/٤٢٣ ـ ٤٣٢. وانظر سورة المائدة آية ١١٠.

(٤) في سورة الكهف.



القسم الثاني
الباب الثاني

خصائص الإسلام

الفصل الأول: الإسلام دين عام عالمي باق إلى يوم القيامة .
الفصل الثاني: الإسلام دين شامل متكامل .
الفصل الثالث: الإسلام دين فطري .
الفصل الرابع: الإسلام دين موافق للعقل .
الفصل الخامس: الإسلام دين يسر وبساطة .
الفصل السادس: الإسلام دين كامل وحق ثابت .

خصائص الإسلام

حاولنا في الباب السابق أن ننظر إلى الإسلام بنظرة كلية تقوم على اعتباره بناء،له أساس هو العقيدة، أما في هذا الباب فسننظر في أهم خصائص الإسلام، وقد اقتصرنا على ست خصائص نعرض لها في ستة فصول.

الفصل الأول منها هو: الإسلام دين عام عالمي باق إلى يوم القيامة ونقصد بذلك أنه ليس خاصاً بقوم دون قوم أو أمة دون سائر الأمم بل هو دين البشرية كلها وقد نسخ الرسالات السابقة عليه، وقد أرسل محمد ﷺ إلى الناس كافة على اختلاف أجناسهم وألوانهم، وهو آخر الأديان لا يجوز لأحد أن يؤمن بغيره إلى يوم القيامة.

والفصل الثاني هو: الإسلام دين شامل متكامل، أي أنه يتناول جميع جوانب الحياة الفكرية والنفسية والمادية، الخاصة والعامة، الفردية والاجتماعية في صورة متكاملة متزنة لايطغي فيها جانب على جانب آخر.

والفصل الثالث هو: الإسلام دين فطري - أي يوافق الفطرة الإنسانية، بل هو الفطرة الصحيحة ذاتها، فهو لا يصادم الفطرة في أي أمر من الأمور بل يوافقها ويكملها ويتسق معها.

والفصل الرابع عنوانه: الإسلام دين موافق للعقل، فهو دين يرفض التقليد ويحرر العقل من الأوهام والخرافات، ويحض على النظر العقلي الصحيح، ولايمكن أن يتعارض مع الحقائق العقلية الصريحة الثابتة، بل النقل الصحيح لا بد أن يوافق العقل الصريح.

والفصل الخامس الذي يليه هو: الإسلام دين يسر وبساطة، فقد جاءت

الشريعة لترفع عن الناس إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، ولتنفي الحرج والعنت والمشقة عن الناس واختار رسول الله ﷺ الأيسر من الأمور ، ولذلك كان يسر الإسلام وبساطته من الأمور التي أعانت على دخول الناس فيه أفواجاً .

والفصل السادس والأخير هو: الإسلام دين كامل حق ثابت فقد أكمل الله به ما أنزله من أديان سابقة، وضمن حفظه وصيانته من التحريف والتبديل الذي لحق بأديان أهل الكتاب،والإسلام دين الحق وهو في عقيدته وشريعته حق لا زيف ولا خطأ فيه، وقد وصل إلينا كتاب الله سليماً صحيحاً بألفاظه وحروفه ومعانيه، كما بلغتنا السنّة الصحيحة مدونة محررة محققة، بل إن سيرة النبي ﷺ وعلوم الإسلام المختلفة دونت وسجلت أدق تدوين وتسجيل .

وسبق أن ذكرنا في أول القسم الثاني أننا لا نقصد بهذه الفصول الإحاطة والاستقصاء وإنما اجتهدنا في أن نذكر أهم الخصائص وأبرزها بحيث يبدو لنا سمو هذا الدين وعظمته وعلوه على كل العقائد والنظم والمذاهب ما مضى منها وما هو قائم وما سوف يأتي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

الفصل الأول

الإسلام دين عام عالمي باق إلى يوم القيامة

الإسلام هو دين الله الذي بعث به الرسل جميعاً، فهو دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصىّ به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾ (الشورى: ١٣)، وقال عز وجل: ﴿**يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم. وإنّ هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاتقون**﴾ (المؤمنون: ٥١، ٥٢).

والإسلام دين الأنبياء جميعاً يقوم على توحيد الله ونفي الشرك كما قال عز وجل: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إلـه إلاّ أنا فاعبدون**﴾ (الأنبياء: ٢٥).

وقد قال نوح عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿**وأمرت أن أكون من المسلمين**﴾ (يونس: ٧٢)، وقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿**يا بَني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون**﴾ (البقرة: ١٣٢)، وقال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿**يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين**﴾ (يونس: ٨٤)، وقال حواريو عيسى عليه السلام: ﴿**قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون**﴾(آل عمران: ٥٢).

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة:

والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[1].

فالإسلام - دين الأنبياء جميعاً - دين واحد وإن اختلفت الشرائع، وذلك أن الله يشرع في وقت معين أمراً معيناً لحكمة ثم ينسخ هذا الأمر ويشرّع غيره لحكمة، وقد يكون النسخ في حياة النبي نفسه أو بعد وفاته وفي شريعة نبي آخر يعقبه، وكل ذلك هو الإسلام، ولا يجوز لمسلم أن يتمسك بالمنسوخ بعد نسخه، فقد كان السبت لموسى من دين الإسلام ولكنه لما نسخ لم يعد من دين الإسلام، وكذلك شرع الله في أول الإسلام الصلاة إلى بيت المقدس ثم نسخ ذلك وأمر بالصلاة إلى الكعبة، فمن تمسك بالمنسوخ فقد ترك دين الإسلام، ولهذا كفرت اليهود والنصارى لأنهم تمسكوا بشرع منسوخ.

ومع أن الإسلام هو دين الأنبياء جميعاً فقد تعارف الناس على أن كلمة الإسلام يقصد بها اليوم الدين الذي أنزل على محمد ﷺ[2].

وعلى ذلك فالإسلام دين عام لأنه دين البشرية كلها في كل زمان ومكان، بل هو دين الثقلين: الإنس والجن، والإسلام بصورته الأخيرة الكاملة التامة هو الدين الذي أنزل على محمد ﷺ وهو خاتم الرسل ورسالته آخر الرسالات فلا يقبل الله من الناس ديناً سواه.

وقد كان الرسل قبل محمد ﷺ يرسلون إلى قومهم خاصة كما قال تعالى: **﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾** (الأعراف: ٥٩) وقال **(وإلى عاد أخاهم هودا)** (الأعراف: ٦٥) وقال: **﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾** (الأعراف: ٧٣) وقال سبحانه **﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا﴾** (الاعراف: ٨٥) وأرسل الله عز وجل موسى إلى فرعون وملئه وإلى بني إسرائيل كما في قوله تعالى: **﴿ثم بعثنامن بعدهم موسى إلى فرعون وملئه فظلموابها﴾** (الأعراف: ١٠٣) وقوله **﴿وإذ قال موسى**

---

(١) الحديث في صحيح البخاري ١٦٧/٤ (كتاب الأنبياء، باب واذكر في الكتاب مريم) وهو بمعناه بألفاظ مقاربة في مسلم وأبي داود ومسند أحمد ومسند الطيالسي وأنظر جامع الرسائل ١/ ٢٨٣ تعليق (١) وبنو العلات أولاد الرجل من نسوة شتى.

(٢) أنظر ابن تيمية: جامع الرسائل ٢٨٣/١ - ٢٨٤، الجواب الصحيح (ط. المدني) ١/ ٢ - ١٣. وأنظر الدين للدكتور دراز. ص ١٧٥ - ١٨٥.

لقومه ، **اذكروا نعمة الله عليكم** (إبراهيم : ٦). وأرسل الله عيسى إلى بني إسرائيل: **﴿ورسولاً إلى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم﴾** (آل عمران: ٤٩)، وهذه قاعدةعامة ذكرها الله تعالى في قوله **﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم﴾** (سورة الروم: ٤٧).

وأما محمد عليه الصلاة والسلام فقد أُرسل إلى الناس كافة،وجاء النص على ذلك في كتاب الله في آيات عديدة مثل قوله تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾** (سبأ: ٢٨) وقوله: **﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾** (الأنبياء :١٠٧) وقوله: **﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾** (الأعراف: ١٥٨) وقوله: **﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾** (الفرقان: ١).

وفي الحديث الصحيح عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود. . . الحديث»[٣] وفي رواية: «فليس أحمر ولا أسود يدخل في أمتي إلاّ كان منهم»[٤] وفي رواية البخاري عن جابر «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[٥] وفي رواية مسلم عن أبي هريرة: «وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون»[٦].

قال ابن حجر في شرح الحديث: «قيل المراد بالأحمر العجم وبالأسود العرب، وقيل الأحمر الإنس والأسود الجن»[٧].

فهذا الحديث يصدق الآيات السابقة، وفيها وفي هذا الحديث الدليل على أن محمداً ﷺ أرسل إلى الناس جميعاً ـ بل وإلى الجن أيضاً ـ كما في أول سورة

---

(٣) مسلم ٦٣/٢ (كتاب المساجد). والحديث مروي بمعناه عن جابر وابي هريرة وابن عباس في: البخاري ومسلم والترمذي والنسائي والدارمي ومسند احمد.

(٤) المسند (ط. المعارف) ٦٥/٤.

(٥) البخاري: أول كتاب التيمم وهو في كتب: الصلاة والجهاد والتعبير والاعتصام.

(٦) مسلم ٦٤/٢.

(٧) فتح الباري ٤٣٩/١ (شرح كتاب التيمم، الباب الأول) (ط. السلفية) وأنظر شرح الحديث كله ٤٣٥/١ ـ ٤٤٠.

الجن: ﴿**قل أوحيَ إليَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنـا سمعنا قـرآناً عجبـاً. يهدي إلى الرشدفآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً**﴾ (الجن: ١، ٢).

وقد تحققت عالمية الإسلام بإرسال محمـد ﷺ إلى العالمـين بشيراً ونـذيراً، كما تحققت هذه العـالمية واقعيـاً نتيجة نـظرة الإسلام إلى النـاس نظرة تقـوم على أسـاس وحـدة الجنس الإنسـاني وعـلى التسـويـة بـين النـاس جميعـاً والنهي عن العصبية للون أو الجنس أو غير ذلك.

يقـول الله تعالى: ﴿**يـا أيها النـاس اتقـوا ربكم الـذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونسـاء**﴾ (النساء: ١)، وقـال سبحانه: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلنـاكم شعوبـاً وقبائـل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ (الحجرات: ١٣) وقال: ﴿**يا أيها الرسل كلوا من الـطيبات واعملوا صـالحاً إني بمـا تعملون عليم. وإنّ هذه أمتكم أمـة واحدة وأنا ربكم فاتقون**﴾ (المؤمنون: ٥١، ٥٢).

وقد سوّى الله تبـارك وتعالي بـين المؤمنين فقـال: ﴿**إنما المؤمنـون إخوة**﴾ (الحجرات: ١٠) وقال: ﴿**فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكـاة فإخوانكم في الدين**﴾ (التوبة: ١١).

وقال النبي ﷺ وسلم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوتداعىٰ له سائرالجسد بالسهر والحمَّى»[٨].

ولما بلغ النبي ﷺ استهانة أحد المنافقين بسلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي قام مغضبـاً وخطب النـاس في المسجد فقـال: «يا أيهـا الناس إن الرب واحد والأب واحد وإن الدين واحد وليست العربية بأحـدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي»[٩].

(٨) الحديث رواه مسـلم في كتاب البر والصلة والآداب باب تراحم المؤمنين وتعـاطفهم وهو في مسـند أحمد.

(٩) ذكر السـيد محمد رشيد رضا أن هذا الحـديث رواه ابن عسـاكـر عن ابي سلمة ابن عبـد الرحمن، أنـظر الوحي المحمـدي، ص ١٢٢ ـ ١٢٣، وأنظر مـا ذكره في مـوضوع الـوحدة التي دعـا إليها الإسلام، ص ١١٩ ـ ١٢٤، ط. المنارالقاهرة، ١٣٥٢/ ١٩٢٢.

وقد حققت شعائر الإسلام المختلفة معنى الوحدة بين المسلمين، ونرى ذلك واضحاً في جميع العبادات وخاصة الصلاة والصوم والحج، إذ يلتقي فيها جميع المسلمين لا فرق بين غني أو عظيم وحقير، ولعل في قصة جبلة بن الأيهم أثناء حجه خير دليل على ذلك.

كان جبلة من ملوك آل جفنة وأسلم على زمن عمر رضي الله عنه، ولما قدم جبلة على عمر أحسن استقباله، وخرجا إلى الحج، فبينما كان جبلة يطوف بالبيت إذ وطىء رجل من بني فزارة إزاره فانحل فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزاري فلما علم عمر بذلك خيّره بين أن يرضي الرجل أو يقتص الرجل منه، فما كان من جبلة إلا أن فرّ مع قومه إلى القسطنطينية وتنصر لما رأى صدق عمر رضي الله عنه وعلم أنه لا سبيل له إلى غير عدل الإسلام ومساواته بين الناس، وقد ندم على ارتداده بعد ذلك ندماً شديداً»[١٠].

وقصة محمد بن عمرو بن العاص مع المصري - فيها دليل آخر على عدل المسلمين وتحقيقهم لمعاني المساواة والحرية الكاملة التي أمر بها الله ورسوله ﷺ.

ضرب محمد بن عمرو رجلاً من أهل مصر بالسوط لأن فرسه سبق فرس محمد وقال له وهو يضربه: خذها فأنا ابن الأكرمين، فشكا المصري محمدا إلى عمر رضي الله عنه، فأرسل إلى عمرو بن العاص وابنه أن يحضرا إذا جاءهما كتابه، فلما جاءا أمر عمر المصري أن يضرب محمدا بالدرة، فضربه كثيراً وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين. ثم قال: أجلها على صلعة عمرو فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه. قال: يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربني. فقال عمر: أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه، ثم قال لعمرو: أيا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احراراً»[١١].

وقد عرض الدكتور عثمان خليل في كتيب عنوانه «الديمقراطية الإسلامية»

---

(١٠) أنظر تفصيل الخبر في أخبار عمر للأستاذين علي وناجي الطنطاوي، ص ٢٤٣ - ٢٤٨، دار الفكر، دمشق ١٣٧٩/١٩٥٩.

(١١) المرجع السابق ص ١٨٢ - ١٨٤.

للأمور التي جاء بها الأعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في عام ١٩٤٨ ثم بين سبق الإسلام وسمو تشريعه في جميع تلك الأمور مثل المساواة أمام القانون وأمام القضاء، والمساواة في التوظيف وفي التكاليف العامة وتحقيق الحريات الشخصية وهي التملك وحرية العقيدة والعبادة وحرية العمل والمحافظة على الحرمات [١٢].

وقد حققت مبادىء الإسلام عالمية هذا الدين. إذ انتشر الإسلام شرقاً وغرباً ودخل الناس فيه أفواجاً بلا إكراه، بل أحياناً بمجهود ضئيل من الدعوة إليه أوبغيردعوة مطلقاً. يقول توماس أرنولد في كتابه «الدعوة إلى الإسلام»[١٣] وفي هذه اللحظات التي تطرق فيها الضعف السياسي إلى قوة الإسلام نرى أنه حقق بعض غزواته الروحية الرائعة. فهنالك حالتان تاريخيتان كبريان، وطىء فيهما الكفار من المتبربرين بأقدامهم أعناق أتباع الرسول، أولئك هم الأتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر والمغول في القرن الثالث عشر، وفي كلتا هاتين الحالتين نرى الفاتحين يعتنقون ديانة المغلوبين. وقد حمل دعاة المسلمين الذين كانوا خلوا كذلك من أي مظهر من مظاهر السلطان الزمني عقيدتهم إلى أفريقية الوسطى والصين وجزائر الهند الشرقية. وتمتد العقيدة الإسلامية اليوم من مراكش إلى زنجبار، ومن سيراليون إلى سيبريا والصين، ومن البوسنه إلى غينيا الجديدة».

والإسلام هو آخر الرسالات الإلهية وبه أكمل الله تعالى الدين، ومحمد ﷺ هو خاتم النبيين.

قال تعالى: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ (آل عمران: ١٩) وقال: ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ (آل عمران: ٨٥) وقد تم الدين وكمل ونزلت آية سورة المائدة في حجة الوداع

---

(١٢) أنظر: الديمقراطية الإسلامية للدكتور عثمان خليل، خاصة، ص ٣٤-٥٦ سلسلة الثقافة الإسلامية، القاهرة، ١٩٥٨.

(١٣) ص ٢٦، ط. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٧.

نعلن ذلك في قوله تعالى: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ (المائدة: ٣).

وقال تعالى: ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ (التوبة: ٣٣).

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» [١٤].

وروى ابن ماجه في سننه عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: «خطبنا رسول الله ﷺ فكان أكثر خطبته حديثاً حدثناه عن الدجال وحذرناه، فكان من قوله أن قال: إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال، وأن الله لم يبعث نبياً إلا حذّر أمته الدجال، وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة... الحديث» [١٥]

وقد ذكرنا من قبل أحاديث النبي ﷺ التي جاء فيها أن هذا الدين سوف يبلغ ما بلغ الليل والنهار وأنه لن يبقى بيت على وجه الأرض إلا دخلته كلمة الإسلام، وهذا كله يؤكد بقاء هذا الدين إلى يوم القيامة، كما يؤكد ما على المسلمين من مسؤولية عظيمة لأنهم هم الشهداء على الناس وهم المسؤولون عنهم يوم الحساب.

وإذا كانت الدول الكبيرة قد أيقنت أن أية حرب عالمية جديدة تعني دمار العالم، ولذلك اتفقت على تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ بينها، فإن المستقبل

---

(١٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ح ٣، ص ١٢٢، ط. عيسى الحلبي، القاهرة، ١٣٦٨/١٩٤٩. وانظر حديثاً آخر بمعناه عن جابر رضي الله عنه ١٢٣/٣.

(١٥) سنن ابن ماجه ٢/١٣٦٠ (كتاب الفتن، باب فتنة الدجال) ط. فؤاد عبد الباقي، القاهرة ١٣٧٣/١٩٥٤. وانظر الأحاديث التي أوردها أبو الأعلى المودودي في كتاب البيانات، ص ١٧١-١٧٤، دمشق ١٣٧٤/١٩٥٤.

سوف يشهد ـ فيما نحسب ـ يقظة الدول الصغيرة وقيامها لاستخلاص حقوقها.

ولا نظن أن نظاماً يمكن أن يحقق نوعاً من الوحدة الإنسانية العالمية يتضمن تحقيق العدالة بين الشعوب والدول غير دين الإسلام الشامل المتكامل، فالعالم لن يجد مناصاً من الاتجاه إليه وبذلك يتحقق له الظهور على الدين كله كما أخبرنا بذلك سبحانه في كتابه الكريم وحدثنا به النبي ﷺ في أحاديثه الشريفة.

الفصل الثاني

الإسلام دين شامل متكامل

ذكرنا في الفصل الأول من الباب الأول، وهو الفصل الذي اخترنا له عنواناً «بناء الإسلام» أن الإسلام يمكن النظر إليه على أنه بناء كامل متكامل، له أساس يقوم عليه هو العقيدة، وله عمود هو الصلاة، وله أركان معروفة، وفيه لبنات أو أحجار هي الأخلاق، وله سقف أو سطح هو الحكم.

ولا شك أن هذا التصور إنما هو اجتهاد أردنا به أن نبين شمول الإسلام وتكامله، وقد حرصت على بيان خطر الاهتمام بجانب من جوانب البناء دون سائر الجوانب، وضربت أمثلة لكثير من الانحرافات التي نجمت عن ذلك [١].

وفي هذا الفصل أود أن أفصل القول في هذه النقطة وأن أوضح جوانب الشمول والتكامل في ديننا العظيم.

لقد رفضت فيما سبق [٢] قول من يذهب إلى تفسير قوله تعالى: ﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيء﴾ (الأنعام: ٣٨) على أنها تعني أن كل العلوم النافعة موجودة في كتاب الله وعلى أن ما لا يوجد في الكتاب فليس بعلم نافع، ونقلت عن ابن تيميه قوله أن أكثر العلماء يفسرون كلمة الكتاب هنا على أنها اللوح المحفوظ.

على أن هناك من الآيات ما يشير إلى شمول كتاب الله لكل شيء. ولكن

---

(١) أنظر ما سبق، القسم الثاني ص ١٤٩-١٦٢.

(٢) أنظر ما سبق، القسم الأول، ص ١١٤-١١٥.

هذا الشمول يعني أن الله أنزل لنا دينه كاملاً يشمل ما هو ثابت غير متغير من أمور العقائد والأخلاق والعبادات وشرع لنا الأسس والكليات في الأمور القابلة للتغير أو التطور، وأرشدنا لما فيه صلاحنا في الأمور الدنيوية، مع ترك المجال فسيحاً للإجتهاد الإنساني مما يحقق التطور والمرونة واليسر في التشريع.

يقول الله تعالى: ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء**﴾ (النحل: ٨٩) يقول الطبري في تفسيره [٣]: «يقول نزل عليك يا محمد هذا القرآن بياناً لكل ما بالناس إليه الحاجة من معرفة الحلال والحرام والثواب والعقاب».

إن هذه الآية ومثيلاتها من الآيات الكريمة ترتبط بما نفهمه من أن الدين قد تم وكمل في صورته الأخيرة في دين الإسلام المنزل على محمد ﷺ، وقد ذكرنا من قبل آية سورة المائدة التي أنزلت في حجة الوداع والتي أعلنت ذلك.

كما ذكرنا في الفصل السابق أن الله لا يقبل لذلك من إنسان ديناً غير الإسلام، وأن الإسلام قد نسخ الأديان كلها وسوف يظل ظاهراً على الدين كله إلى قيام الساعة.

وهذا كله يعني أن في الإسلام ما يغني الناس عن كل دين أو تشريع أو نظام آخر ـ اللهم إلا في الأمور المتغيرة المتطورة كما سبق ذكره.

ولسنا في مجال البحث الأصولي ولكننا نشير إشارة سريعة إلى ما ذكره علماء أصول الفقه من أن المقصد العام للشارع من تشريعه الأحكام هو تحقيق مصالح الناس بكفالة ضرورياتهم وتوفير حاجياتهم وتحقيق ما فيه تحسين لأحوالهم [٤].

وهذا يعني بعبارة أخرى أن الشريعة شملت كل ما يحقق الخير للناس في جميع أمور الحياة سواء في أمور العقيدة أو العبادات أو الأخلاق أو المعاملات.

---

(٣) ج ١٤ ص ١٠٨، ط. بولاق، ١٣٢٨.

(٤) أنظر علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف، ص ٢٣١ (وانظر بيان) ذلك ص ٢٣١ ـ ٢٤١)، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٣٦٩/١٩٥٠.

وفي حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه قيل له: لقد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة. قال: أجل، لقد نهانا ﷺ أن نستقبل القبلة بغائط أو بول، وألاَّ نستنجي باليمين، وألاَّ يستنجي أحدنا بأقل من ثلاثة أحجار أو نستنجي برجيع أو عظم (٥).

ونحن إذا طالعنا كتاب الله نجده قد تناول هذه الأمور جميعاً أعظم تناول، ولعل مزج الأمور الأعتقادية بالتشريعية والأخلاقية في السورة الواحدة يراد به - والله أعلم - بيان التكامل والارتباط بين هذه الجوانب جميعها، بل إن الآية الواحدة قد تشمل هذه الأمور كلها مثل آية البر في سورة البقرة وهي التي يقول الله تعالى فيها: ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم والآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبة ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**﴾ (البقرة: ١٧٧).

وإن التكامل ليظهر كاملاً في الآيات القرآنية فالعبادات ترتبط إرتباطاً وثيقاً بالأخلاق إذ أن الصلاة والزكاة فيهما ما ينهىٰ عن الفحشاء والمنكر وما يزكي النفس، كما في قوله تعالى: ﴿**وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾ (العنكبوت: ٤٥) وقوله: ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**﴾ (التوبة: ١٠٣) وكذلك الصوم والحج قصد منهما تقوى الله. والأحكام والتشريعات ترتبط بتذكير المسلمين بالآخرة وتخويفهم من عذاب الله وترغيبهم في ثوابه كما في قوله تعالى: ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا**﴾ (النساء: ١٠) وبعد أن يذكر أحكام المواريث يقول: ﴿**تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم**﴾ (النساء: ١٣).

(٥) الحديث جاء في كتاب الطهارة في كل من: مسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة كما رواه أحمد.

والسنة النبوية فيها بيان وتفصيل لما في القرآن وهي تتصف بما يتصف به من شمول وتكامل، بل إن السيرة النبوية تدل دلالة واضحة على هذا الشمول والتكامل، وقد كان النبي ﷺ ـ كما حدثتنا عائشة رضي الله عنها متمثلاً بأخلاق القرآن: «كان خلقه القرآن». وقد كان ﷺ إماماً في العبادات، مشرعاً ومجتهداً، حاكماً وقائداً ومحارباً، ومثلاً أعلى في الأخلاق.

ونحن إذا تناولنا أي كتاب من كتب الفقه الإسلامي نجد شمول الإسلام وتكامله بارزاً واضحاً، إذ أن أول ما يطالعنا فيه باب العبادات بما فيه من أحكام الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج، ثم نجد أبواب فقه الأسرة المختلفة التي تشمل أحكام الأسرة من زواج وطلاق ووصية وميراث وأبواب المعاملات التي تتضمن أحكام البيوع المختلفة وأمور العقوبات وأحكام الحرب والجهاد والعلاقات الدولية.

وكل هذه الأحكام إنما ترتبط بمعاني الإيمان وبالجوانب الأخلاقية كما قدمنا وهذا يتصل بمفاهيم معنى العبادة، إذ أن العبادة في الإسلام ليست مجرد رسوم وطقوس كما هو الحال في الأديان المحرفة، بل إن المسلم يعبد الله تعالى في كل عمل يعمله، سواء الأعمال المادية الدنيوية أو الأعمال التي يتفرغ فيها لذكر الله وعبادته.

وقد أشار إلى ذلك حديث النبيّ ﷺ الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان»[٦].

وقد ألّف العلماء كتباً في بيان هذه الشعب وحصرها مثل كتاب «شعب الإيمان» للبيهقي، كما ألّفوا كتباً في الأذكار والأدعية التي يقولها المسلم عند كل عمل يعمله مثل كتاب «الأذكار» للنووي أو «الكلم الطيب» لابن تيمية، أو في

---

(٦) الحديث رواه البخاري (كتاب الإيمان) ومسلم (كتاب الإيمان) وأبو دواد (كتاب السنة) والنسائي (كتاب الإيمان).

الآداب التي يجب أن يتحلى بها المسلم في كل شئون حياته مثل كتاب «الأدب المفرد» للبخاري.

وفي هذه الكتب ما يبيِّن أن المسلم يعبد الله في كل عمل من أعماله فهو يذكر الله عند مطعمه وملبسه ومشربه ونومه ويقظته، بل إنه يذكر الله عند أكثر الأمور الدنيوية اتصالاً بالجسد وهو الجماع، ففي الصحيحين عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فقُضي بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً»[٧].

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات، يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم. قال: أوليس قد جعل لكم ما تصدقون إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[٨].

ولذلك فإنه لا يجوز الفصل في الإسلام بين الدين والدنيا، أو الروح والمادة، أو العقيدة والتشريع، إذ الإسلام ـ كما قدمنا ـ دين متكامل وكل لا يتجزأ، فهو كالجسد الحي لا يمكن أن نفصل عنه أعضاءه أو أن نقسمه إلى أجزاء منفصلة.

وهذا يرتبط بإدراك الاتزان أو «الوسطية» في الإسلام، إذ أن الإسلام دين اعتدال يتحقق فيه تجنب الإفراط والتفريط. ويذكر ابن تيمية أن أهل السُّنة والجماعة وسط في النحل كما أن ملة الإسلام وسط في الملل. فالمسلون لم يغلوا في

---

(٧) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن قيِّم الجوزية، ص ١١٤، ط. السلفية، القاهرة، ١٣٧٦.

(٨) هذه رواية مسلم في صحيحه (كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف) وهو في سنن أبي داود بمعناه (كتاب الأدب، باب في إماطة الأذى).

أنبياء الله ورسله وعباده الصالحين كما غلت النصارى في المسيح وفي الرهبان، ولا جفوا فيهم كما فعل اليهود الذين كانوا يقتلون الأنبياء والصالحين بغير حق. وكذلك المسلمون وسط في شرائع دين الله لم يحرموا النسخ كما فعلت اليهود ولا جوزوا لعلمائهم أن يغيروا الشريعة كما فعلت النصارى. والمسلمون أيضاً لم يصفوا الله بصفات النقص كما فعل اليهود الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء وقالوا يد الله مغلولة، ولم يفعلوا فعل النصارى الذين وصفوا المخلوق (عيسى عليه السلام) بصفات الخالق سبحانه، وهم في أمر الحلال والحرام لم يتشددوا مثل اليهود الذين حرموا ما أحل الله لهم، ولم يستحلوا المحرمات كما فعلت النصارى[٩].

والإسلام يتناول جميع جوانب الحياة الإنسانية في شمول من ناحية، وتكامل واتزان من ناحية أخرى.

فهو يتناول شئون «الروح» و«المادة» أو «النفس» و«البدن» بحيث لا يطغى جانب على جانب آخر، فهو قد حث على الاجتهاد في العبادة والإخلاص لله وطلب الآخرة وإيثارها على الدنيا، ولكن هذا لا يعني جواز اعتزال الناس والتبتل والرهبنة كما فعل النصارى، ولا تعذيب الجسد ومحاربة نوازع النفس وغرائزها كما فعل نساك الهنود من البراهمة وغيرهم.

والإسلام يهتم بالفرد كما يهتم بالجماعة ويقر جميع الحريات ويكفلها ويحقق الكرامة والعزة لأبنائه ولكن هذا في حدود تحقيق مصلحة الأمة والجماعة، ومع الحرص على الوحدة وطاعة أولي الأمر بالمعروف، فالحرية لا تعني الفوضى، والحرص على الوحدة والجماعة في الإسلام لا يؤدي إلى الاستبداد والطغيان.

والإسلام يبيح التملك ويسمح بالإرث ويدعو للكسب الحلال الطيب ولكنه يكفل الحياة الكريمة للمسلمين جميعاً عن طريق العدالة الاجتماعية والتكافل والبر والتراحم، فضلاً عن تدخل الدولة التي تجمع الزكاة وتمنع كل

---

(٩) أنظر عقيدة أهل السنة والفرقة الناجية لابن تيمية، ط. أنصار السنة المحمدية القاهرة، ١٣٥٨.

وسائل الكسب الحرام غير المشروع مثل الرِّبا والاحتكار والغصب والرشوة .

والإسلام يدعو للوحدة والتآخي والسلام، ويرفض العدوان والظلم، ولكنه كذلك يشرع حق الدفاع عن النفس ورد العدوان وجهاد أعدائه الذين يريدون الفتنة ويحاربون الدعوة إلى الله .

وهذا التوازن والعدل والقصد والوسطية هو الموافق للفطرة، والفطرة هي دين الإسلام، وتفصيل الكلام في ذلك هو موضوع الفصل التالي، إن شاء الله .

الفصل الثالث

الإسلام دين فطري

سبق أن ذكرت في الباب السابق أن الإسلام هو الفطرة، وأن أرجح الأقوال في فهم معنى كلمة «الفطرة» التي جاءت في القرآن والسنّة هو القول بأنها الإسلام، وعلى هذا يفهم حديث النبي ﷺ الذي رواه عنه أبو هريرة: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء». ثم يقول أبو هريرة اقرأوا إن شئتم: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ (الروم: ٣٠) فكلمة الفطرة في آية سورة «الروم» وفي كلام النبيّ ﷺ تعني الإسلام[١].

وقد ناقش ابن تيمية الأقوال المختلفة التي قالها بعض العلماء في تفسير الفطرة تفسيراً يخالف ما ذهب إليه وخصص لذلك مئات الصفحات في كتابه «درء تعارض العقل والنقل»[٢] وفي غيره من الكتب والرسائل.

ويؤكد ابن تيمية رأيه بحديث آخر ثبت في صحيح مسلم وغيره فيما يرويه رسول الله ﷺ عن ربه عز وجل: «.... وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»[٣].

---

(١) أنظر ما سبق، ص ١٨٥.

(٢) أنظر مقدمة التحقيق لهذا الكتاب. القسم الأول من الجزء الأول، من ٢١ ـ ٢٣.

(٣) الحديث في مسلم ٢١٩٧/٤ (ط: محمد فؤاد عبد الباقي)، القاهرة، ١٣٧٥/١٩٥٥ (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار).

ويذكر ابن تيمية أن هذا الحديث صريح في أن الله تعالى خلق عباده مسلمين حنفاء،وأن الشياطين أزالتهم عما كانوا عليه وحولتهم إلى الكفر.

وقول الله تعالى في الآية: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ (الروم: ٣٠) يعني أن الناس لا يخلقون على غير الفطرة، ولا يعني أن فطرتهم لا تتبدل ولا تتغير بعد ولادتهم بل نفس الحديث يبيّن ذلك إذ فيه أن البهيمة تولد جمعاء (سليمة كاملة الأعضاء) وليست جدعاء إذ أن الجدع (وهو قطع بعض أعضائها مثل الأنف أو الأذن) إنما يحدث بعد ولادتها بواسطة الناس[٤].

ولعل أهم ما في كلام ابن تيمية بيانه لأصل هام هو أن الإنسان إذا اتّبع فطرته المستقيمة فلا يمكن أن يقول أو يعتقد أو يعمل إلّا ما هو موافق للحق والخير ولكن اتّباع الأهواء والشياطين هو الذي يحوّل الإنسان إلى الباطل والشر.

ولذلك يذكر ابن تيمية في غير موضع أن الرسل يأتون بالشرائع التي تردّ الناس إلى فطرهم الصحيحة بحيث تقوى هذه الفطر وتبعد عنها ما يفسدها «فالرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها، لا بتغيير الفطرة وتحويلها» والكمال يحصل بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة[٥].

وسوف نبني حديثنا فيما يأتي على هذا الأصل، فنقول إن الإسلام هو الفطرة الصحيحة المستقيمة، ولذلك فإن أحكامه وشرائعه توافق الفطرة ولا تعارضها، وعلى العكس من ذلك فإنه كلما كانت النظم أو القوانين أو العقائد بعيدة عن الإسلام كانت معارضة للفطرة الصحيحة مضادة لها.

ولذلك فإننا نلاحظ هذا التوازن الدقيق في مبادئ الإسلام كلها: في عقيدته وأخلاقه وعباداته ومعاملاته وأحكامه كلها.

إن بعض الديانات والفلسفات الشرقية القديمة دعت إلى محاربة الجسد

---

(٤) ملخص من الجزء الأخير من كتاب درء تعارض العقل والنقل من نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية.

(٥) مجموعة تفسير الإسلام ابن تيمية، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢. ط. بمباي، الهند ١٣٧٤/١٩٥٤. وانظر مجموع فتاوى الرياض ١٠/١٤٦ ـ ١٤٧.

وإماتة الشهوات، وزعمت أن ذلك هو الطريق الوحيد للارتقاء بالنفس وللسمو الروحي، وتبعهم على ذلك كثير من متصوفة المسلمين، وروى لنا ابن الجوزي كثيراً من أخبارهم في كتبه. فبعضهم كان ينهى عن شرب الماء البارد، وبعضهم يقول منذ خمسين سنة أشتهي الشواء وما أكلته، ومنهم من يقول منذ ثمانين سنة ما اضطجعت؛ ويقول آخر: حلفت لا أشرب الماء سنة[٦].

والإسلام يحارب هذا الانحراف والغلو الذي لا يوافق الفطرة السليمة، إذ أن محاربة الغرائز الإنسانية وحرمان البدن من حاجاته الطبيعية لا يؤدي إلاّ إلى العنت، ولا يحقق الصفاء النفسي أو السمو الروحي، بل قد يؤدي إلى الأمراض الجسمية والنفسية، وقد يزيد المرء اشتهاء لما حرم منه نفسه، وصدق الله العظيم الذي وصف رهبان النصارى بقوله: ﴿**. . . ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاّ ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون**﴾ (الحديد: ٢٧) الآية.

وقد كاد بعض صحابة رسول الله ﷺ أن يقعوا في مثل انحراف النصارى، ولكن رسول الله ﷺ نهاهم عن ذلك، وبين لهم أن ذلك خلاف السنة الصحيحة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبيّ ﷺ يسألون عن عبادة النبيّ ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالّوها[٧]. فقالوا: وأين نحن من النبيّ ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ قال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر،

---

(٦) أنظر صيد الخاطر لابن الجوزي، تحقيق محمد الغزالي، طـ. القاهرة، بدون تاريخ. وانظر كثيراً من أمثلة هذا الغلو في كتابه تلبيس إبليس، وقارن ذلك بكتب الصوفية مثل عوارف المعارف والرسالة القشيرية.

(٧) أي عدوها قليلة.

واصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[٨].

وعلى عكس المسيحية التي يلجأ رهبانها إلى اعتزال الناس والتبتل[٩]، فإن الإسلام يدعو الناس إلى حياة طبيعية موافقة للفطرة، فالمسلم مطالب بأن يقيم أسرة تعبد الله، وأن يصل ذوي رحمه، وأن يبرّ جيرانه، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن يدعو إلى الله ويجاهد في سبيله، وهذا كله من العبادة، ولذلك يقول النبي ﷺ فيما يرويه عنه ابن عمر: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذي لا يخالطهم ولا يصبر عن أذاهم»[١٠]. وعن جابر رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف. وخير الناس أنفعهم للناس»[١١].

والله سبحانه وتعالى أباح لعباده التمتع بخيرات الأرض وزينتها ما دام ذلك حلالاً طيباً، ولكنه نهى عن المحرمات والخبائث، قال تعالى: ﴿ **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين. قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون. قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾ (الأعراف: ٣١ ـ ٣٣).

إن الحياة الدنيا قد خلقها الله لنا لنتمتع بخيراتها، وسخر لنا ما في الأرض جميعاً لننتفع به من غير إثم ولا عدوان، وقد بعد أكثر الناس عن

---

(٨) اللؤلؤ والمرجان ٢/١٠٠ والحديث في البخاري في كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح، مسلم في كتاب النكاح: باب استحباب النكاح.

(٩) أي الانقطاع عن الدنيا إلى الله والامتناع عن الزواج.

(١٠) الحديث رواه أحمد في مسنده (ط: المعارف) ٧/١١٦، وابن ماجه في سننه (ط. محمد فؤاد عبد الباقي) ٢/١٣٣٨ ورواه البخاري في الأدب المفرد والترمذي في سننه.

(١١) قال السيوطي في الجامع الصغير ٢/١٨٤. الحلبي، القاهرة ١٩٣٩/١٣٥٨، رواه الدار قطني وهو صحيح.

الاعتدال والقصد في ذلك ، فأسرف أكثرهم وأصبحوا مترفين ووقعوا في المعاصي والآثام، وفرّ بعضهم من الدنيا واعتزلوا الناس، ولذلك أمرنا الله أن نأخذ من الدنيا ونعلم أن الآخرة خير من الأولى.

قال تعالى: **﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾** (القصص: ٧٧) وقال: **﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾** (الكهف: ٤٦)، وقال: **﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾** (الملك: ١٥).

وقال النبي ﷺ لعمرو بن العاص: «ياعمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح» الحديث [١٢]. وعنه ﷺ أنه قال: خيركم من طال عمره وحسن عمله» الحديث [١٣].

إن اليهود خالفوا الفطرة بتحريم ما أحل الله لهم، كما خالفوها بإقبالهم على الدنيا وأكلهم الأموال بالباطل ووقوعهم في الآثام والمعاصي، وإن النصارى خالفوا الفطرة بإقبال رهبانهم على التبتل وجعلهم المثل الأعلى في التشبه بالمسيح في عدم الزواج، وخالفوها في تحريمهم الطلاق وتعدد الزوجات، في حين أنهم تهاونوا في تنفيذ شريعة الله.

ولذلك نجد أن الحضارة الغربية الحديثة جنت ثمار ذلك فلقي أهلها العنت الشديد مما أدى بهم في النهاية إلى أنواع من الإنحلال والإباحية. وتفككت عرى الأسرة وانتشر نتيجة ذلك كله الزنا ومعاشرة الخليلات، واضطرت كثير من الدول المسيحية إلى إباحة الطلاق تحت إلحاح شعوبها [١٤].

---

(١٢) رواه أحمد في مسنده (ط. الحلبي) ٤/١٩٧.

(١٣) رواه الترمذي في كتاب الزهد والدارمي في كتاب الرقاق واحمد في مسنده (ط. الحلبي) ٤/١٨٨، ١٩٠ ح ٥ في عدة مواضع.

(١٤) وآخر هذه الدول إيطاليا. ومن أعجب الأمور أن تحرم بعض الدول الإسلامية الطلاق وتعدد الزوجات جريا وراء الغرب المسيحي وأن تقوي الدعوة لذلك في سائر الدول الإسلامية في نفس الوقت الذي رجع فيه الأوروبيون الغربيون إلى ما يوافق الفطرة.

والإسلام يدعو إلى النشاط والتفاؤل والتوكل على الله وينهي عن التطير والتشاؤم والحزن. ولقد وقعت كثير من الأمم قديماً وحديثاً في الأوهام والخرافات والتطير ودعا كثير من النساك والصوفية إلى «الحزن» في حين أنكر الآخرون قدر الله وجعلوا غايتهم من الحياة «السعادة» التي تتمثل في التمتع بالملذات البدنية المادية، وتحقيق أكبر قدر من البهجة والسرور عن أي طريق ولو أدى ذلك إلى الوقوع في الآثام والمعاصي.

إن الله تعالى يقول: ﴿ **الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن**﴾ (فاطر: ٣٤) ويقول النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال» [١٥].

ويقول النبي ﷺ : «لا طيرة وخيرها الفأل. قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم» [١٦].

إن الإسلام يوافق الفطرة في تحقيق الحرية للمؤمنين وتوفير الكرامة والعزة للأفراد، مع وجوب التقيد بأوامر الشريعة وطاعة أولي الأمر بالمعروف، وأن مخالفة الفطرة أدت ببعض الأمم إلى ألوان من الفوضى الخلقية والإجتماعية والسياسية، في حين أدت بغيرها إلى أنواع من طغيان الحاكمين وتسلطهم واستعبادهم لرقاب الناس. وليس هنا مجال تفصيل هذا، ومحله الكلام عن نظم الإسلام التي ستدرس فيما بعد (وقد عرضنا لشيء من ذلك فيما سبق) [١٧] ولكن نكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الأوهام التي يقع فيها بعض الناس فيما يتعلق بالرق.

إننا يمكن أن نلخص موقف الإسلام من هذه القضية في عبارة موجزة

---

(١٥) الحديث متفق عليه من رواية أنس رضي الله عنه، وضلع الدين ثقله، انظر مشكاة المصابيح للتبريزي (بتحقيق محمد ناصر الدين الالباني) ١/٧٥٤، ط. دمشق ١٣٨٠/١٩٦١.

(١٦) الحديث متفق عليه من رواية أبي هريرة، ولا طيرة الطير الذي يتشاءم به الناس، مشكاة المصابيح ٢/٥٢٠.

(١٧) أنظر ١٩١-١٩٣، ٢٠١-٢٠٢.

وهي أن الإسلام شرع العتق ولم يشرع الرق. لقد جاء الإسلام والأمم كلها تجيز الرق وتقره وتشجعه، حتى فلاسفة اليونان مثل أفلاطون وأرسطو - رأوا أن الرق نظام طبيعي، فشرع الله عتق الرقيق في حالات كثيرة وسمح به في الحرب الشرعية على أساس أن الأصل في معاملة الأسرى هو المن والفداء ويجوز الإسترقاق على قاعدة المعاملة بالمثل، وبعبارة أخرى شرع الإسلام الوسائل العديدة التي تمكن المسلمين من عتق رقاب عبيدهم وإمائهم عن طريق الكفارات وغيرها، وفي نفس الوقت أجاز استرقاق أعداء الإسلام في الحرب الشرعية.

أما المعاملة الواجبة للرقيق كما شرعها الإسلام فهي معاملة يتمناها ملايين الأفراد في القرن العشرين حيث تعيش كثير من الجماعات في المصانع والمزارع والسجون والمعتقلات حياة كلها عسف وظلم وإرهاق وعنت.

ويحدثنا أحمد شفيق باشا في كتابه «الرق في الإسلام» عن القانون «الأسود» - وهذا ما عرف به حينذاك - في بعض الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة وكيف كان ينص على أن المولى «له حق الملك المطلق على عبده» فله بيعه وإجارته ورهنه وخزنه وإجراء الجرد عليه وأن يقامر عليه... وإذا اجتمع في الطريق العام أكثر من سبعة من الأرقاء يعتبرون مخالفين للأوامر، وأول أبيض يصادفهم في الطريق له أن يلقي القبض عليهم ويجلدهم عشرين جلدة... وقد نص القانون على أن العبيد لا نفس لهم ولا روح... وما كانت الحياة تدب إلا في أذرعتهم فقط» (١٨).

وموقف الإسلام في مسائل المال والإقتصاد وسائر القضايا القانونية والسياسية هو الموقف الموافق للفطرة السليمة، فهو يبيح التملك والإرث حتى لا

---

(١٨) الرق في الإسلام لأحمد شفيق باشا ترجمة أحمد زكي باشا، ص ٤٢ - ٤٤، الطبعة الثانية، ط، الإعتماد، القاهرة، بدون تاريخ.
وأنظر أيضاً كتاب الإسلام دين الفطرة لعبد العزيز جاويش، ص ٦٠ - ٦٧ الطبعة الثانية، القاهرة، بدون تاريخ، الدين في موقف الدفاع لفتحي عثمان، ص ١٨٥ - ١٨٧، مكتبة وهبه، القاهرة.

يقتل الحوافز الفردية ويميت الدوافع الشخصية ـ كما هو الحال في الدول اليسارية الماركسية ـ ولكنه لا يسمح بطغيان رأس المال، ولا يجيز الاحتكار والغصب والرشوة وكافة المعاملات الربوية.

والإسلام لا يقر العدوان والظلم، ويشجع على الصفح والعفو، ولكنه لا يقول مثل المسيحية: إذا ضربك إنسان على الخد الأيمن فأدر له الخد الأيسر، بل يشرع رد العدوان بالمثل، ويشرع حق الدفاع عن النفس والجهاد ضد أعداء الدعوة إلى الله، فكما أن الإسلام قد قرر ألاَّ إكراه في الدين، فكذلك لا يجوز منع الناس بالقوة عن الاستماع إلى كلام الله أو إجبارهم على عدم الدخول في الإسلام.

إن الله تعالى يقول: ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله**﴾ (الأنفال: ٦١)، ولكنه قال أيضاً: ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلوكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين**﴾ (التوبة: ٣٦)، وقال: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله**﴾ (التوبة: ٣٩).

الفصل الرابع
الإسلام دين موافق للعقل

لا يوجد دين من الأديان يحفل بالعقل ويعول عليه كما هو الحال في دين الإسلام، فالعقل عند جميع فقهاء الإسلام هو «مناط التكليف»، وكما يذكر الأستاذ عباس العقاد: تشير كتب الأديان الكبرى إلى العقل إشارات عارضة وقد يلمح فيها القارىء أحياناً شيئاً من الزراية أو التحذير «ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة» [1].

ولا تأتي كلمة العقل فقط في كتاب الله بل تأتي كلمات أخرى ترتبط بهذا اللفظ وتكمل معناه كما سنذكر بعد قليل. ولفظ «العقل» في اللغة العربية مصدر عقل يعقل عقلاً إذا ضبط الإنسان وأمسك ما يعلمه. ومنه سمي العقال عقالاً لأنه يمسك البعير ويحجره ويضبطه، وقد شبه النبي ﷺ ضبط القلب للعلم بضبط العقال للبعير فقال في الحديث المتفق عليه: «استذكروا القرآن فلهو أشد تفصيا [2] من صدور الرجال من النعم من عقلها» [3].

---

(١) التفكير فريضة إسلامية لعباس محمود العقاد، ط. دار القلم، الطبعة الأولى، القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) تفصياً: أي تخلصاً وهرباً.

(٣) أنظر السبعينية لابن تيمية في مجموعة الفتاوى الكبرى ٣١/٥، ط. القاهرة، ١٣٢٩ وانظر لسان العرب لابن منظور مادة «عقل».

على أن الضبط في لفظ «العقل» في القرآن الكريم يتضمن الضبط الأخلاقي أو الوازع الخلقي مع الضبط العلمي أو الذهني. ولو راجعنا كتاب الله لوجدنا عشرات الآيات الكريمة التي تذكر لفظ «العقل» ومشتقاته[٤]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون**﴾ (المؤمنون: ٨٠)، وقوله: ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلّا العالمون**﴾ (العنكبوت: ٤٣) وذلك بعدما مثل الله سبحانه لاتخاذ الكفار أولياء من دون الله بالعنكبوت التي اتخذت بيتاً مع أن بيتها أوهن البيوت[٥]. ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿**وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير**﴾ (الملك: ١٠).

على أن في كتاب الله ألفاظاً أخرى تؤدي معنى العقل من حيث الإدراك والفهم والاتعاظ والذكرى مثل لفظ «اللب» فقد تكرر الخطاب إلى «أولى الألباب» في آيات كثيرة، ومثل لفظ «يتفكرون» و«يفقهون» و«ينظرون» و«يتدبرون» و«يبصرون» و«يتذكرون» و«يعلمون»[٦].

ومع أن لفظ «العقل» لم يرد في أحاديث صحيحة[٧] إلّا أن المعاني المستفادة منه ومن الألفاظ المتصلة به كثيرة في الحديث النبوي، ولسنا في مجال إحصائها وحصرها.

وقد بيّنا في فصل «العقيدة أساس البناء» أن أدلة الكتاب والسنّة إنما هي أدلة عقلية مع كونها شرعية[٨]، ورغم ذلك قال بعض المتكلمين بوجوب النظر العقلي على كل مسلم قبل إيمانه، وزعموا أن العقل أساس الدين لأن الله لا يمكن معرفته إلّا بالعقل، ورتبوا على ذلك أن أي تعارض ظاهر بين نصوص

---

(٤) انظر ذلك في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم تأليف محمد فؤاد عبد الباقي.

(٥) أنظر سورة العنكبوت آية ٤١.

(٦) أنظر التفكير فريضة إسلامية، ص ٨ - ٢١.

(٧) أنظر السبعينية لابن تيمية ص، ٥ - ٦، وأنظر كتاب الموضوعات لابن الجوزي ١/١٧١ - ١٧٧، القاهرة ١٣٨٦/ ١٩٦٦.

(٨) أنظر ما سبق، ص ٢٠٣ وانظر القسم الأول ص ١٢١.

الدين وبين العقل يجيز لنا أن نفسر تلك النصوص تفسيراً يوافق العقل (عن طريق التأويل المتعسف).

إن هذه القضايا الكلامية الجدلية قد رد عليها أئمة أهل السنة أعظم رد[9]، ويكفينا هنا أن نقول إن فطرة الإنسان السليمة التي تتضمن الإدراك العقلي الصحيح تكفيه لمعرفة الله والإيمان به بدون الأدلة الجدلية التي يظنها الفلاسفة والمتكلمون عقلية. والكتاب والسنة فيهما - كما ذكرت - ما يرضي العقل ويقنعه فضلاً عن كونها من وحي الله تعالى إلى رسوله الصادق الأمين ﷺ.

ولو أننا جعلنا «العقل» أساس الدين أو الشرع فإننا لن نتفق على عقل واحد إذ أن العقول تختلف وتتفاوت، وما يراه إنسان موافقاً للعقل يراه آخر معارضاً له، ونحن إنما نستعمل عقولنا لنعرف بها صدق الرسول وصدق الوحي الذي جاء به فإذا توصلنا إلى ذلك جعلنا الشرع هو الأصل الذي نرجع إليه، وذلك كما لو أننا وجدنا من يشهد بأن طبيباً من الأطباء ماهر قدير، فإننا نرجع إلى الطبيب عند المرض ولا يجوز أن نرجع إلى الشاهد لكونه الأصل في معرفتنا بالطبيب[10].

والقاعدة التي يجب أن يؤمن بها كل مسلم هي أنه لا مجال للتعارض مطلقاً بين الشرع والعقل، وكلما درس الإنسان أمور دينه أيقن بصحة هذه القاعدة.

إن كثيراً من العلماء والباحثين قد بيّنوا موافقة العلم والعقل للدين، وكم من مسألة دينية تعجل فيها بعض المتسرعين حتى تشككوا في مدى موافقتها للعلم الصحيح أو للعقل، ثم ثبت لهم بعد ذلك أنهم أخطأوا، وأن الحق الكامل في شريعة الله ودينه وصدق الله العظيم: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي**

---

(٩) كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: درء تعارض العقل والنقل، وغيره.

(١٠) أنظر درء تعارض العقل والنقل، ح ١ ص ٨٦ وما بعدها، ط. دار الكتب، القاهرة ١٩٧١.

أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (فصلت: ٥٣).

وقد عرضنا من قبل لما جاء في كتاب الله من ذم للتقليد والمقلدين ورأ
كيف دعا أئمة الإسلام إلى رد الأمور إلى الكتاب والسنة وإلى الإجتهاد
فهمهما[١١].

والإجتهاد أصل أقرّه الإسلام ودعا إليه رسوله ﷺ وهو يشتمل على أ
معروفة في أصول الفقه مثل القياس والاستحسان والمصالح المرسلة[١٢]، و
اجتهد رسول الله ﷺ واجتهد الصحابة رضوان الله عليهم، «وقد سأل رسـ
الله ﷺ معاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن قاضياً: بم تحكم؟ قال: بكتاب الله
قال: فإن لم تجد، قال: فبسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد، قال: أجته
رأيي. فقال رسول الله ﷺ: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يحبه ا
ورسوله»[١٣].

وموافقة الإسلام للعقل لا تتعارض مع علمنا بأن للعقل الإنساني حد
لا يمكن تجاوزها، وأن هناك أموراً غيبية يجب التسليم بها، والإيمان بالغيب
الأمور الأساسية التي يطالب بها المسلم، كما نجد ذلك في أول سورة البقرة
قوله تعالى: ﴿الٓمٓ. ذلك الكتاب لا ريب فيه. هدى للمتقين. الذين يؤمنو
بالغيب..﴾ (البقرة: ١ - ٣) على أن الإيمان بالغيب لا يترتب عليه أن نؤمن
يعارض العقل فليس في الإسلام «أسرار» أو عقائد لا يقبلها العقل ويد
المسلمون باعتقادها، فالهندوس يعبدون البقر، والنصارى يعبدون المسيـ
ويعتقدون العقائد الباطلة، فإذا ناقشت هؤلاء أو أولئك قالوا: إن الدين
علاقة له بالعقل، ولا بد من التسليم بما في الدين من «أسرار» حتى ولو خالف
العقل، لأن الدين فوق العقل. ولذلك يرد على مثل هذا الكلام شيخ الإسلا

---

(١١) أنظر القسم الأول فصل التقليد المذموم.

(١٢) أنظر كتاب الرسالة للشافعي، ص ٤٨٧ - ٥٠٢، ط. الحلبي، القاهرة، ١٣٥٨/١٩٤٠ وانظر التفكير فريضة إسلامية، ص ١٤٢ - ١٥٨.

(١٣) أنظر: الاحكام في أصول الأحكام للآمدي ٤٢/٤، ط. المعارف، القاهرة ١٣٣٢/١٩١٤

ابن تيمية بقوله: إن الأنبياء قد يأتون بما تعجز العقول عن إدراكه (مثل المسائل الغيبية وحقيقة الصفات الإلهية) ولكنهم لا يأتون مطلقاً بما يضاد العقول ويعارضها[١٤].

(١٤) أنظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ٤/١٣٠ ـ ١٣٢، ط. المدني، القاهرة ١٣٨١/١٩٦٢.

الفصل الخامس
الإسلام دين يسر وبساطة

ذكرنا من قبل أن الإسلام دين فطري، وهذا يعني أنه دين يسر لا يقبل التشدد والتزمّت والتنطع، وذكرنا أيضاً أنه دين موافق للعقل وهذا يعني أنه دين بساطة لا يقبل التعقيد ولا التكلف.

وفي كتاب الله تعالى وسنّة نبيه ﷺ النص على ذلك بوضوح وجلاء. يقول الله تعالى: ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وقال: ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾ (البقرة: ١٨٥)، وقال: ﴿**ولو شاء الله لأعنتكم**﴾ (البقرة: ٢٢٠)، وقال سبحانه: ﴿**ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج**﴾ (المائدة: ٦)[١]، وقال: ﴿**هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾ (الحديد: ٢٢)، وقال: ﴿**يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً**﴾ (النساء: ٢٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة**»[٢]. وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**إن الله يحب الرفق في الأمر كله**»[٣].

---

(١) أنظر تفسير هذه الآية في تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٦/٢٦٩ - ٢٧١، ط. القاهرة ١٣٦٧.

(٢) الحديث في صحيح البخاري (كتاب الإيمان، باب الدين يسر) والغدوة فترة الصباح ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس، والروحة الفترة من زوال الشمس إلى الليل، والدلجة آخر الليل.

(٣) الحديث في البخاري والترمذي وموطأ الإمام مالك.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق»(٤)، وقال النبي ﷺ: «أحب الدين - وفي لفظ الأديان - إلى الله الحنيفية السمحة»(٥). وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يسّروا ولا تعسروا، وسكّنوا ولا تنفروا»(٦).

وقد عاب الله على أهل الكتاب غلوهم في دينهم كما في قوله تعالى: **﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾** (النساء: ١٧١)، وقوله: **﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق﴾** (المائدة: ٧٧).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثاً(٧).

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال لي النبي ﷺ: «إنك لتصوم النهار وتقوم الليل؟ قلت: نعم. قال: إذا فعلت ذلك هجمت له العين ونفهت له النفس، لا صام من صام الأبد....» الحديث(٨).

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم فتلك بقاياهم في

---

(٤) قال السيوطي في الجامع الصغير ان هذا الحديث في المسند وصححه، وروى حديثاً آخر عن جابر عن النبي ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» قال السيوطي انه من مسند البزار وضعفه.

(٥) قال الشيخ رشيد رضا في كتاب «يسر الإسلام» ص ١٧ (ط. المنار، ١٣٤٦/١٩٢٨): رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد، وذكره البخاري في ترجمة أبواب الصحيح تعليقاً والطبراني من حديث ابن عباس.

(٦) الحديث متفق عليه وفي البخاري.. ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا. أنظر اللؤلؤ والمرجان، ٢/٢٣٤ والحديث بمعناه عن أبي موسى ومعاذ، أنظر نفس المرجع ونفس الصفحة.

(٧) الحديث في صحيح مسلم ٤/٢٠٥٥ كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، وهو في مسند أحمد ٥/٢٣٩ (ط. المعارف) وذكر السيوطي أنه في سنن أبي داود وصححه. والمتنطعون: المتعمقون المغالون في الفعل والقول.

(٨) جامع الأصول لابن الأثير ١/٢٠٥. وهجمت العين إذا غارت ودخلت في نقرتها من الضعف والمرض. ونفهت إذا تعبت وكلت.

الصوامع والديار رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم. . . » الحديث[٩].

وبساطة الإسلام تقتضي البُعد عن التكلف والتعقيد، وقد نهى الله عن السؤال عما لم يكلف به الناس.

قال تعالى: ﴿**قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين**﴾ (ص: ٨٦). قال القرطبي في تفسير هذه الآية: «وروى مسروق عن عبدالله بن مسعود قال: من سئل عما لم يعلم فليقل لا أعلم ولا يتكلف، فإن قوله لا أعلم علم، وقد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿**قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين**﴾»[١٠].

وقال الله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدَ لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم**﴾ (المائدة: ١٠١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا. فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً. **فقال رسول الله ﷺ: لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم، ثم قال: دعوني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم**»[١١].

وقال ابن حجر: «**أخرج الدارقطني من حديث أبي ثعلبة الخشني رفعه: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها»**. قال ابن حجر: «وله شاهد من

---

(٩) المرجع السابق ٢١٦/١ وقال ابن الأثير: أخرجه أبو داود.

(١٠) تفسير القرطبي ٢٣٠/١٥ ـ ٢٣١ (ط. دار الكتب، القاهرة ١٣٨٤/١٩٦٥).

(١١) الحديث رواه بألفاظ متقاربة وباختصار أو تطويل البخاري ومسلم والنسائي وأحمد وابن حبان والدارقطني. أنظر الوحي المحمدي، ص ٦ ـ ٧. وانظر مسند أحمد (ط. المعارف) ٩٩/١٣.

حديث سلمان أخرجه الترمذي[١٢] وآخر من حديث ابن عباس أخرجه أبو داود».

وتذكر كتب أصول الفقه أن الأمور الحاجية للناس «ترجع إلى ما يرفع الحرج عنهم، ويخفف عنهم أعباء التكليف، وييسر لهم طرق المعاملات والمبادلات»[١٣]. ويضرب الأستاذ عبد الوهاب خلاف رحمه الله الأمثلة على ذلك فيذكر أن الله تعالى شرع في العبادات الرخص بدلاً من العزائم تخفيفاً وتيسيراً فأباح الفطر في رمضان لمن كان مريضاً أو على سفر، وأباح قصر الصلاة للمسافر، والصلاة قاعداً لمن عجز عن القيام، والتيمم لمن لم يجد الماء. وفي المعاملات شرع الله عز وجل كثيراً من أنواع العقود والتصرفات التي تقتضيها حاجات الناس كأنواع البيوع والإجارات والشركات والمضاربات، كما شرع الطلاق للخلاص من الزوجية عند الحاجة، وأحل الصيد وميتة البحر والطيبات من الرزق، وجعل الحاجات مثل الضروريات في إباحة المحظورات. وفي العقوبات جعل الدية على العاقلة تخفيفاً عن القاتل خطأ، ودرأ الحدود بالشبهات[١٤].

وقد وضعت في الشريعة مبادىء خاصة برفع الضرر، ومبادىء خاصة برفع الحرج، وعن كل مبدأ تفرعت عدة فروع واستنبطت جملة أحكام. ومن مبادىء رفع الضرر مثلاً أن الضرر يزال شرعاً ومن فروع ذلك المبدأ: وجوب الوقاية والتداوي من الأمراض وقتل الضار من الحيوانات. ومن مبادئه: يرتكب أخف الضررين لاتقاء أشدهما، ومن فروعه: يحبس الزوج إذا ماطل في القيام بنفقة زوجته، وإذا عجز مريد الصلاة عن التطهر أو ستر العورة أو استقبال القبلة صلى كما قدر لأن ترك هذه الشروط أخف من ترك الصلاة. ومن مبادىء رفع

---

(١٢) زاد الشيخ رشيد رضا رحمه الله في كتابه الوحي المحمدي، ص ٢٥ (وانظر أيضاً ص ١٠): حديث سلمان أخرجه ابن ماجه أيضاً.

(١٣) علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف، ص ٢٣٧. وانظر الموافقات للشاطبي ٢/١٠ ـ ١١، ط. مصطفى محمد، بدون تاريخ.

(١٤) علم أصول الفقه، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

الضرر أيضاً: الضرورات تبيح المحظورات، ومن فروعه: من اضطر في مخمصة إلى ميتة أو دم أو أي محرم فلا إثم عليه في تناوله.

أما المبادىء الخاصة برفع الحرج فمنها أن المشقة تجلب التيسير ومن فروعها جميع الرخص التي أبيحت للمكلف، كما أبيح له في حالة الإكراه التلفظ بكلمة الكفر، وأبيح له في حالة النسيان الأكل والشرب في نهار رمضان(١٥).

إن الأمثلة على اليسر والبساطة في شريعة الإسلام كثيرة يصعب حصرها، ولعل أعظم مظاهر هذا اليسر والبساطة هو ما يوجد في عقيدة الإسلام، وقد اعترف بعض المبشرين والمستشرقين ـ على الرغم منهم غالباً ـ بأن ذلك هو أهم سبب في انتشار الإسلام حتى بين المسيحيين أنفسهم. يقول توماس أرنولد في كتابه «الدعوة إلى الإسلام» إننا إذا نظرنا إلى التسامح الذي لقيه رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي ظهر لنا أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق، ثم يستشهد بكلام ملمان Milman الذي يقول إنه في الوقت الذي فتح فيه المسلمون أقاليم خاضعة للحكم المسيحي كانت الأحزاب الدينية المسيحية متنازعة متفرقة، وكان الجدل المستمر فيما بينهم سبباً في أن الآلاف من الناس وجدوا «ملجأ من هذه المجادلات التي لا تنتهي عند حد ولا تعرف اللين والتسامح في تلك الحقيقة البسيطة الواضحة، حقيقة الوحدانية، مهما طولبوا بالاعتراف ببعثة محمد ونبوته»(١٦).

وأما كيتاني Caetani فيقول إن وجود السفسطة المذهبية بين رجال اللاهوت المسيحي أدى إلى زعزعة أصول العقيدة الدينية، ولما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد من الصحراء «لم تعد المسيحية بعد تلك الأنباء قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جليلة، إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا

(١٥) المرجع السابق، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٧ وانظر ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.
(١٦) الدعوة إلى الإسلام، ص ٨٩.

تقبل الجدل، وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في أحضان نبي بلاد العرب»[١٧].

ويذكر المبشر تايلور Canon Taylor في تقرير قدمه للكنيسة أن أئمة اللاهوت المسيحي استبدلوا بديانة المسيح عقائد فلسفية عويصة وأرادوا أن يحاربوا فساد عصرهم بالدعوة إلى العزوبة والرهبنة، وكان «اعتزال العالم هو الطريق إلى القداسة، والقذارة صفة لطهارة الرهبنة، وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة، كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب، ولم يكن للعبيد أمل في حاضرهم ولا مستقبلهم. فأزال الإسلام ـ بعون من الله ـ هذه المجموعة من الفساد والخرافات. لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء في العقيدة، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى. ولقد بين أصول الدين التي تقول بوحدانية الله وعظمته، كما بيّن أن الله رحيم عادل يدعو الناس إلى الامتثال لأمره... ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الديني والترّهات والنزعات الأخلاقية الضالة وسفسطة المتنازعين في الدين، وأحل الشجاعة محل الرهبنة، ومنح العبد رجاء، والإنسانية إخاء، ووهب للناس إدراكاً للحقائق الأساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية»[١٨].

---

(١٧) نفس المرجع، ص ٨٩ ـ ٩٠.

(١٨) نفس المرجع، ص ٩٠.

الفصل السادس

الإسلام دين كامل حق ثابت

ذكـرت من قبـل[1] أن الإسـلام دين الأنبيـاء جميعـاً - دين واحـد وإن اختلفت الشرائع، وأن الإسلام في صـورته الأخـيرة الكاملة التـامة هـو الـذين الذي أنزل على محمد ﷺ.

وهذا يعني بعبارة أخرى أن الإسلام جـاء ليقر مـا في الأديان السـابقة من أصول مشتركة في العقائد وغيرها، وليقبل ما فيها من حق أنزله الله سبحانه على أنبيـائه، ولكنـه جاء أيضـاً لينفي ما دخـل عليهـا من بـاطـل أدخله النـاس من الأحبار والرهبان، ثم جاء ليكون متمماً ومكملاً للشرائع السابقة ليكـون بذلـك دين البشرية إلى قيام الساعة.

وقـد ذكرت من قبـل أيضاً[2] قـولـه تعـالى: **﴿اليـوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾** (المائدة: ٣).

قال الطبري في تفسيره[3] : « عن ابن عباس قوله : **﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾** وهو الإسلام قال : أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان ، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً ، وقد أتمه الله عز ذكره فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً » .

---

(١) انظر ما سبق ص ١٨٩-١٩٠.

(٢) انظر ما سبق ص ١٩٤.

(٣) جـ ٩ ص ٥١٨ (ط. المعارف).

ثم يذكر الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ أن سائلاً قد يسأل: أو ما كان الله راضياً الإسلام لعباده إلا يوم أنزل هذه الآية؟ ويرد على ذلك بقوله أن الله لم يزل راضياً لخلقه الإسلام ديناً ولكنه أخذ يتدرج بالمسلمين في درجات الإسلام ومراتبه درجة بعد درجة ومرتبة بعد مرتبة حتى أكمل لهم شرائعه ومعالمه وبلغ بهم أقصى درجاته ومراتبه»[٤].

ويتصل بمعنى إكمال الله للدين بالإسلام حديث النبي ﷺ[٥]: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

كما يتصل به حديث آخر رواه ابن عمر وأبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ: «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط. ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط. ثم قال: من يعمل من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا لكم الأجر مرتين. فغضبت اليهود والنصارى، فقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء. قال الله: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً. قالوا: لا. قال: فإنه فضلي أعطيه من شئت»[٦].

وقد اعترض بعض النصارى من قبل وزعموا أن الله أرسل موسى إلى بني

---

(٤) المرجع السابق ٥٢٣/٩ وانظر تفسير ابن كثير للآية.

(٥) سبق ذكره ص ١٩٤.

(٦) هذه رواية البخاري عن ابن عمر ١٧٠/٤ (ط. بولاق) كتاب الانبياء، باب ما ذكر عن بني اسرائيل. وهو في البخاري أيضاً في عدة مواضع أخرى، ورواه الترمذي، وأحمد في مسنده ٢٣٥/٦ ـ ٢٣١ (ط. المعارف) وانظر الجواب الصحيح ٩/١

اسرائيل فوضع شريعة العدل، ولما كان الكمال الذي هو الفضل لا يمكن أن يضعه إلا الله فقد وضع الله وهو المسيح ـ تقدس وتعالى عن قولهم ـ شريعة الفضل وهي النصرانية[٧]. وزعموا أيضاً أن المسيح عليه السلام جاء بعد موسى بغاية الكمال فلا حاجة بعده وبعد شريعته الكاملة إلى شريعة أخرى[٨].

وقد رد عليهم ابن تيمية رحمه الله بقوله: إن الشرائع ثلاثة: شريعة عدل فقط، وشريعة فضل فقط، وشريعة تجمع العدل والفضل فتوجب العدل وتندب إلى الفضل، وهذه أكمل الشرائع الثلاث وهي شريعة القرآن الذي يجمع فيه بين العدل والفضل[٩]. وشريعة محمد ﷺ فيها ما ليس في الشريعتين المتقدمتين[١٠] وحتى ولو كانت شرائع أهل الكتاب كاملة، فإن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لم يعملوا بها بل عملوا بخلافها في كثير من الأمور وحرّفوا كتبهم وبدلوها وارتكبوا المعاصي والآثام[١١].

ويلخص ابن تيمية رسالة النبي ﷺ بعبارة جامعة يقول فيها: «فأرسل الله محمداً ﷺ بشرع أمر فيه بمحاسن ما في الكتابين وعوض عما نسخه بما هو خير منه».

ومما يبين بوضوح معنى كمال الدين قول الله عز وجل: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾ (المائدة: ٤٨). ويذكر ابن كثير أقوال العلماء المختلفة في تفسير قوله تعالى: ﴿ومهيمناً عليه﴾ ثم يقول: «وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أُنزل آخر الكتب وخاتمها ـ أشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره... وتكفل تعالى حفظه بنفسه الكريمة

---

(٧) أنظر الجواب الصحيح ٣/٢٢٨.
(٨) أنظر المرجع السابق ١/٢١.
(٩) أنظر المرجع السابق ٣/٢٢٩.
(١٠) أنظر تفصيل ذلك في الجواب الصحيح ٣/٢٣٥ ـ ٢٣٧.
(١١) أنظر الجواب الصحيح ٣/٢٣٨ ـ ٢٥٥.

فقال: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[١٢].

والإسلام ليس كأديان أهل الكتاب ديناً ناقصاً بل هو دين كامل، وهو كذلك ليس باطلاً أو محرفاً زائفاً مثل أديانهم بل هو دين حق ثابت.

يقول الأستاذ عباس العقاد: «وربما تلخصت المسيحية كلها في كلمة واحدة هي الحب، وربما تلخص الإسلام في كلمة واحدة هي الحق ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ (الحج: ٦) ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا﴾ (البقرة: ١١٩) ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ (طه: ١١٤) ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتَّبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾ (المائدة: ٧٧)[١٣].

إن الله تعالى هو الحق وأن دينه دين الحق ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ (التوبة: ٣٣)، (الفتح: ٢٨) وأن كتابه هو الحق: ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ (الإسراء: ١٠٥).

والقرآن كتاب الإسلام المعجز حق لا شك ولا ريب فيه، يقول تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداء كم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ (البقرة: ٢٣). وقد أسهب الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير هذه الآية وكتب فصلاً عن إعجاز القرآن في معرض تفسيره للآية. ويذكر الشيخ رشيد أن تحدي الكفار بالقرآن ورد في آيات كثيرة أولها نزولاً قوله تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا

---

(١٢) عمدة التفسير عن ابن كثير ٤/١٦٤، ط. المعارف، القاهرة ١٣٧٧/١٩٥٧.

(١٣) الله للعقاد: ص ١٥٩ - ١٦٠. ولعل الأولى أن نقول أن الإسلام يتلخص في كلمة واحدة هي الحق، والحق يتضمن الحب. قال تعالى: ﴿فاتبعوني يحببكم الله﴾ (سورة آل عمران: ٣١) وقال ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ (سورة المائدة: ٥٤)، وقال: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ (سورة البقرة: ١٦٥) والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

.. وقال النبي ﷺ: ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار.

القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ (الإسراء : ٨٨) ثم نزل بعدها قوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ (يونس: ٣٨)، ثم نزل قوله تعالى ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ (هود: ١٣). وقال بعض علماء الكلام إن الله تعالى تحدى الناس أولاً بالقرآن في جملته في آية الإسراء، ثم تحداهم بعشر سور مثله في آية هود، ثم تحداهم بسورة واحدة مثله في آية يونس، وكل ذلك بمكة، ثم بسورة من مثله في آية البقرة بالمدينة(١٤).

وعلى الرغم من تحدي الله سبحانه للناس، وعلى الرغم من أن القرآن نزل بلغة العرب، وكان العرب أهل الفصاحة والبلاغة، وكانوا شديدي الحرص على الرد على هذا التحدي، خاصة وقد سفه القرآن عقولهم وأبطل دينهم وسخر من أوثانهم، إلا أنهم عجزوا عن الإتيان بسورة واحدة بل آية واحدة مثل آياته، وهذا هو الإعجاز(١٥).

وقد كتب عن إعجاز القرآن عدد كبير من أئمة الإسلام وعلمائه، فبينوا وجوه إعجازه اللغوي المختلفة وهي وجوه عديدة.

أولها: إعجازه اللغوي، وقد شهد بذلك أعداء الإسلام من الكفار ـ والفضل ما شهدت به الأعداء ـ فقد وصفه الوليد بن المغيرة لأبي جهل بقوله: «ماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وأنه ليعلو وما يعلى، وأنه ليحطم ما تحته»(١٦).

وقد ألف في إعجاز القرآن من ناحية البلاغة والأسلوب كثير من العلماء

---

(١٤) أنظر تفسير المنار ١/١٩٢ ـ ١٩٣ .ـ(١٥) أنظر علم أصول الفقه لخلاف، ص ٢٣ ـ ٢٥.

(١٦) قال الشيخ محمد رشيد رضا (تفسير المنار ١/١٩٩): أخرجه الحاكم وصححه والبيهقي في «دلائل النبوة» عن ابن عباس.

قديماً مثل الجاحظ والواسطي والرماني والباقلاني[17] وعبد القاهر الجرجاني[18] والزمخشري وغيرهم، كما كتب في ذلك عدد من العلماء المحدثين مثل مصطفى صادق الرافعي[19] ومحمد رشيد رضا[20] والدكتور محمد عبدالله دراز[21] ومالك بن نبي[22] ومحمود محمد شاكر[23].

وقد حاول بعض العرب قديماً معارضته فأتوا بما يضحك وأكدوا إعجاز القرآن ـ فبضدها تتميز الأشياء ـ ومنهم مسيلمة الكذاب الذي قال: «الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب وبيل، وخرطوم طويل» وقال: «يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين»[24].

الثاني: الإعجاز العلمي: من المسلم به أن القرآن لم ينزل على الناس ليقرر نظريات علمية أو يدرس المسائل الرياضية أو الفلكية. ولكن الله سبحانه وتعالى هو منزل هذا الكتاب على عبده وهو العليم الخبير، فكلامه مطابق للحق موافق للعلم الصحيح، وفي كثير من الآيات حقائق علمية نكتشفها يوماً بعد يوم، وقد ألف في هذا الموضوع بعض الباحثين فأصابوا أحياناً وأخطأوا أحياناً[25]، وهو أمر يحتاج إلى علماء يجمعون بين التعمق في العلوم الشرعية

---

(١٧) وكتابه إعجاز القرآن، طبع المعارف ١٣٧٤/١٩٥٤.

(١٨) وكتابه «دلائل الإعجاز» ط. المنار ١٣٣١.

(١٩) وكتابه «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» ط. المقتطف، ١٣٤٦/١٩٢٨.

(٢٠) في تفسير المنار ١/١٩٨ ـ ٢٢٩.

(٢١) وكتابه «النبأ العظيم» ط. دار القلم، الكويت، ١٣٩٠/١٩٧٠.

(٢٢) وكتابه الظاهرة القرآنية، دار العروبة، القاهرة، ١٩٥٨.

(٢٣) مقدمة «الظاهرة القرآنية» نفس المكان والتاريخ.

(٢٤) إعجاز القرآن للرافعي، ص ٢٣١.

(٢٥) من ذلك كتاب الدين والعلم لأحمد عزت باشا، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، ١٣٦٧/١٩٤٨: ورسالة «الدين والعلم» للدكتور محمد أحمد الغمراوي، ضمن سلسلة رسائل الثقافة الإسلامية مقال: دراسة في منشأ المنى «وهو في تفسير قوله تعالى: ﴿خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب﴾ للدكتورين محمد صفوت، فاهم عبد الرحيم، المجلة الطبية المصرية ص ٣١ ـ ٤١ مجلد ٤٩، عام ١٩٦٦.

والتخصص في العلوم التجريبية والعصرية[٢٦].

وقد أشرت من قبل إلى بعض أوجه مطابقة العلم للقرآن في الآيات التي تصف تطور الجنين[٢٧]. وقد نبه الباحثون إلى آيات أخرى مثل قوله تعالى: **﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾** (النحل: ٦٩) ومثل قوله تعالى: **﴿أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾** (الأنبياء: ٣٠)، وقوله: **﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾** (الحجر: ١٥).

وقد أثار الكلام في موافقة العلم للآيات القرآنية مشكلة أحسن الأستاذ عبد الوهاب خلاف رحمه الله عرضها والإجابة عليها حيث قال: «وبعض الباحثين لا يرتضون الإتجاه إلى تفسير آيات القرآن بما يقرره العلم من نظريات ونواميس. وحجتهم أن آيات القرآن لها مدلولات ثابتة مستقرة لا تتبدل، والنظريات العلمية قد تتغير وتتبدل، وقد يكشف البحث الجديد خطأ لنظرية قديمة. ولكني لا أرى هذا الرأي لأن تفسير آية قرآنية بما كشفه العلم من سنن كونية ما هو إلا فهم للآية لا تفهم إلا بهذا الوجه من الوجوه فإذا ظهر خطأ النظرية ظهر خطأ فهم الآية على ذلك الوجه لا خطأ الآية نفسها، كما يفهم حكم من آية ويتبينّ خطأ فهمه بظهور دليل على هذا الخطأ»[٢٨].

والوجه الثالث من وجوه الإعجاز: هو إخباره عن الأمور الغيبية مثل قوله تعالى: **﴿آلم. غلبت الروم في أدنى الأرض. وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين﴾** (الروم: ١ ـ ٤)، فكان أن غلبت الروم فارس كما أخبر الله سبحانه وذلك بعد أن غلبتها فارس في بادىء الأمر. وفي مثل قوله تعالى: **﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون﴾** (الفتح: ٢٧) وقد تم دخول المسجد كذلك في فتح مكة، وقوله تعالى: **﴿إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾** (الحجر: ٩)، وقد صدق خبره

---

(٢٦) أنظر القسم الأول من هذا الكتاب فصل العلاقة بين العلوم التجريبية العصرية وعلوم الدين.

(٢٧) أنظر ما سبق، ص ١٧٠ـ١٧٣.

(٢٨) علم أصول الفقه لخلاف، ص ٢٩ ـ ٣٠.

تعالى فما زال القرآن محفوظاً من التغيير والتبديل إلى يومنا هذا وسيبقى كذلك إلى يوم القيامة.

وقد وعد الله رسوله ﷺ بأن يعصمه من الناس في قوله تعالى: ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾ (المائدة: ٦٧). يذكر الشيخ رشيد رضا رحمه الله أن أهل التفسير المأثور والترمذي وأبو الشيخ والحاكم وأبو نعيم والبيهقي والطبراني رووا عن بضعة رجال من الصحابة أن النبي ﷺ كان يُحرس في مكة قبل نزول هذه الآية فلما نزلت ترك الحرس. ثم يذكر أن أبا طالب والعباس كانا من حراسه، ومما روي في ذلك عن جابر وابن عباس: «أن النبي ﷺ كان يُحرس وكان يرسل معه أبو طالب كل يوم رجالاً من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت الآية فقال: يا عم إن الله قد عصمني، لا حاجة لي إلى من تبعث».

وقد صدق خبرالله وعصم الله نبيه ﷺ من أعدائه المشركين الذين تآمروا عليه بعد موت أبي طالب وقرروا قتله في دار الندوة، وكذلك عصمه من اليهود الذين حاولوا قتله بعد هجرته إلى المدينة[٢٩]. وفي الآية دليل آخر على صدق النبي ﷺ لأنه آمن بكلام الله سبحانه وأمر بتسريح الحرس، ولو كان كذاباً دعياً - وحاشاه ﷺ أن يكون - لما عرض نفسه للموت.

ورابع وجوه إعجاز القرآن إعجازه التشريعي، وهذا الإعجاز يستطيع أن يدركه الناس جميعاً وليس مثل الإعجاز اللغوي الذي يدركه العارفون باللغة العربية فقط. والتشريع القرآني يشمل جوانب الحياة الإنسانية كلها، فهو يعالج أحوال الفرد وأمور الأسرة ومسائل المجتمع والعلاقات الدولية في حالتي السلم والحرب بصورة فذة شهد بعظمتها وسموها رجال القانون من المسلمين وغير المسلمين قديماً وحديثاً مما لا مجال للتفصيل فيه هنا، ولكن اكتفي بتلخيص ما أورده الدكتور محمد وحيد الدين سوار في رسالة «التعبير عن الإرادة في الفقه الإسلامي، فقد ذكر أن اهتمام علماء الغرب بالفقه الإسلامي بدأ منذ أن أعلن الأستاذ لامبير الفقيه الفرنسي المعروف في المؤتمر الدولي للقانون المقارن المنعقد في مدينة لاهاي سنة ١٩٣٢ تقديره وإعجابه الكبيرين بالفقه الإسلامي ثم أيدت

(٢٩) تفسير المنار ٦/ ٧٣.

ذلك قرارات مؤتمر لاهاي للقانون المقارن سنة ١٩٣٧ التي اعترفت بحيوية الفقه الإسلامي واستجابته لتحقيق المصالح المتجددة وتلبية الحاجات الحادثة، مقررة استقلال هذا النظام الفقهي عن غيره من النظم، معلنة صلاحية هذه الشريعة لأن تكون مصدراً من مصادر التشريع عامة. ولقد أكد هذه الحقيقة - مؤتمر المحامين الدولي المنعقد في لاهاي سنة ١٩٤٨. ثم شعبة الحقوق الشرقية التابعة للمجمع الدولي للحقوق المقارنة في الأسبوع الذي نظم للفقه الإسلامي، والذي اعترف بما لمبادىء الفقه الإسلامي من قيمة تشريعية لا يجارى فيها وبما ينطوي عليه اختلاف المذاهب الفقهية في هذا النظام القانوني العظيم من ثروة في المفاهيم القانونية وصناعة هي مناط الإعجاب، يبيحان لهذا التشريع العظيم الاستجابة لمطالب الحياة الحديثة والتلاؤم مع حاجاتها(٣٠).

ولا يخفى أن الفقه الإسلامي يعتمد أساساً على التشريع القرآني العظيم.

والوجه الخامس من وجوه إعجاز القرآن هو إتساقه وموافقة آياته بعضها بعضاً في أحكامها ومعانيها وأساليبها، ويذكر الأستاذ عبد الوهاب خلاف أن العقل الإنساني مهما نضج وكمل لا يمكنه التوصُّل إلى مثل هذا الاتساق حيث نجد ستة آلاف آية نزلت في ثلاث وعشرين سنة لا تختلف آية منها عن أخرى في مستوى بلاغتها، ولا تعارض آية منها آية أخرى فيما اشتملت عليه، وإلى هذا الوجه من وجوه الإعجاز أرشد الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾ (النساء: ٨٢).

وما يظنه بعض ناقصي العلم من تعارض ليس تعارضاً في الواقع، وقد بحث علماء الأمة في كل ما أثاره المتشككون من إشكالات وبينوا الحق فيها كما فعل الإمام أحمد بن حنبل في رده على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله(٣١).

---

(٣٠) ص ٦ من رسالة الدكتوراه المجازة من كلية الحقوق بجامعة القاهرة سنة ١٩٦٨.

(٣١) وهذا عنوان كتابه المشهور الذي طبع طبعات عديدة ومثله كتاب «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ط. عيسى الحلبي، ١٣٧٣/١٩٥٤) وغيره من الكتب والرسائل الكثيرة.
علم أصول الفقه، ص ٢٦ - ٢٧.

وأما سنة النبي ﷺ فهي تلي القرآن لأنها إما أن تقرر وتؤكد ما في القرآن، أو تفصل وتبين ما جاء في القرآن مجملاً أو تقيد ما جاء فيه مطلقاً أو تخصص ما جاء فيه عاماً، وإما أن تكون مثبتة ومنشئة حكماً سكت عنه القرآن، ورسول الله ﷺ في ذلك كله إنما ينفذ أمر الله سبحانه وينطق بوحيه كما قال تعالى: **﴿وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى﴾** (النجم: ٣، ٤). قال القرطبي عن الآية الأخيرة: «وفيها أيضاً دلالة على أن السنّة كالوحي المنزل في العمل»[٣٢] وهذا فيما صدر تشريعاً من أقوال الرسول وأفعاله ولا ينفي هذا أن هناك أموراً أخرى ليست تشريعاً مثل الأمور التي تصدر عنه بمقتضى خبرته وتجاربه الإنسانية في الأمور الدنيوية من تجارة أو زراعة أو غير ذلك. ومثل الأمور التي دل الدليل الشرعي على أنها خاصة به ، كتزوجه بأكثر من أربع زوجات[٣٣].

والإسلام دين ثابت، فكتاب الله نقل إلى المسلمين بالتواتر وهو طريق يفيد العلم والقطع بصحة الرواية[٣٤]، وذلك لأن رسول الله المعصوم ﷺ كان إذا نزلت عليه سورة أو آيات أو آية بلّغها أصحابه وتلاها عليهم فكتبها كتبة وحيه كما كتبها وحفظها كثير من أصحابه وقرأوها في صلاتهم وتعبدوا بتلاوتها في سائر أوقاتهم، وما توفى الرسول إلا وكل آيات القرآن مدونة فضلاً عن أنها كانت محفوظة في صدور كثير من المسلمين. ثم جمع أبو بكر الصديق بواسطة زيد بن ثابت وبعض الصحابة المعروفين بالحفظ والكتابة هذه المدونات ورتبها الترتيب الذي كان الرسول يتلوها به، وحفظت هذه المجموعة أيام أبي بكر وعمر ثم أخذها عثمان في خلافته ونسخ منها بواسطة زيد بن ثابت نفسه وعدد من كبار المهاجرين والأنصار عدة نسخ أرسلت إلى أمصار المسلمين، وتناقل المسلمون القرآن وما اختلف المكتوب منه والمحفوظ ولا اختلف في لفظ منه مسلم مع مسلم آخر[٣٥].

---

(٣٢) تفسير القرطبي ١٧/٨٥ وانظر ١/٣٧ ـ ٣٩.
(٣٣) أنظر علم أصول الفقه لخلاف، ص ٣٦ ـ ٤٦. وانظر الرسالة للشافعي، ص ٧٣ ـ ٩٢ (ط. مصطفى الحلبي) القاهرة ١٣٥٨/١٩٤٠.
(٣٤) علم أصول الفقه، ص ٢٢.
(٣٥) أنظر المرجع السابق، ص ٣٤.

وأمـا السنّـة فهي مـا صـدر عن رسـول الله ﷺ من قـول أو فعـل أو تقرير[٣٦].

وتنقسم السنّـة بـاعتبـار سنـدهـا (أي سلسلة الـرواة الـذين نقلوهـا عن الرسول إلينا) إلى ثلاثة أقسام: سنّة متواترة وسنّة مشهـورة وسنّة آحاد. والسّنة المتواترة لا خـلاف على صحتهـا إذ نقلها عن رسـول الله ﷺ جمع عن جمـع عن جمع، كل جمع منهم ثقة لا يمكن أن يتواطأوا على كذب لكثرتهم وأمانتهم، وأمـا السنة المشهورة فهي صحيحة كذلك وهي مما رواها عن رسول الله ﷺ صحـابي أو إثنان أو جمع لم يبلغ حـد جمع التـواتر، ثم رواهـا عن هذا الـراوي أو الرواة جمع رواها عنه جمع مثله وهكذا حتى تم تدوينها.

وأما سنة الآحاد فهي ما رواهـا عن الرسـول واحد أو إثنـان ورواها عنـه مثله وهكذا حتى وصلت إلينا بسند طبقاته آحاد[٣٧].

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ أذن لبعض أصحابه أن يكتبـوا الحديث عنـه مثل أبي رافع وأبي شاه ولما علم الصحـابة أن عبـدالله بن عمرو يكتب أحـاديث النبي ﷺ قالوا له: «إنك تكتب عن رسول الله كل مـا يقول، ورسـول الله ﷺ بشر يتكلم في الـرضا والغضب، قـال: فأمسكت عن الكتـابة. فـذكرت ذلـك لرسول الله ﷺ فقـال: «أكتب فوالـذي نفسي بيده مـا خرج مني إلا حق»[٣٨]، وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «ما من أحـد من أصحاب النبي أكثر حديثاً مني إلا مـا كان من عبـدالله بن عمرو فـإنه كـان يكتب ولا أكتب» وقـد جمع عبـدالله بن عمرو الأحـاديث التي كتبها في مجمـوعة كـان يسميها «الصحيفـة الصادقـة» وثبت أن علياً وأنس بن مـالك وغـيرهما من

---

(٣٦) المرجع السابق، ص ٣٦.

(٣٧) نفس المرجع، ص ٤١ ـ ٤٣.

(٣٨) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده في عدة مواضع مع اختلاف في الألفاظ: ١٠/٢٠ ـ ٢٢، ١١/٦٣، ١٥٧ ـ ١٥٨، ٢١٤ ـ (ط. المعارف)، ورواه الحاكم في مستدركه وأبو داود في سننه.

الصحابة كانوا يكتبون حديث النبي[٣٩] وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كتب رسائل وكتباً، إلى بعض الملوك والحكام في عصره، كما أمر بكتابة الوثائق والمعاهدات وكتب لبعض عماله كتباً حددت فيها مقادير الزكاة[٤٠].

وقد استمر الصحابة بعد رسول الله ﷺ في كتابة الحديث والتحدث به وحفظه وتداوله والوصية بكتابته واستمر بعدهم على ذلك التابعون وتابعوهم حتى بدأ عمر بن العزيز في تدوين الحديث وأمر الناس بكتابته، وسبق أن ذكرنا كيف كان صحابة رسول الله ﷺ يرحلون في طلب الحديث ويجتهدون في معرفته ودراسته والسؤال عنه، وقد استمر على ذلك من جاء بعدهم من المسلمين وكانوا يحتاطون لدينهم فلا يكتبون شيئاً إلا ما تأكدوا من صحته. ثم ظهر بعض الزنادقة وأهل الأهواء الذين وضعوا بعض الأحاديث على النبي ﷺ، فكان هذا سبباً لتصدي علماء الأمة لهم، وكان ذلك فاتحة خير للمسلمين إذ أكب هؤلاء العلماء على وضع قواعد علوم الحديث المختلفة مثل علم الجرح والتعديل أو علم الرجال وعلم مصطلح الحديث وما يتصل بذلك من علوم السنة المختلفة .

يقول الزهري : «الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال فيه من شاء بما شاء» ويقول ابن المبارك : «بيننا وبين القوم القوائم، يعني الإسناد[٤١]». ولا شك أن من مميزات حضارتنا الإسلامية هذه الدقة العظيمة والأمانة الكاملة في الرواية التي تمثلت في «الإسناد».

وقد استمد المسلمون ذلك من أوامر كتابهم وسنة نبيهم فقد «حض القرآن الكريم والنبي عليه الصلاة والسلام، كما حض أئمة الإسلام وعلماء

---

(٣٩) أنظر: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للدكتور مصطفى السباعي رحمه الله، ص ٧١ - ٧٥، ط. القاهرة ١٣٨٠/١٩٦١، سنة الرسول ﷺ لمحمد حافظ التيجاني، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة ١٣٨٩/١٩٦٩.

(٤٠) السنة ومكانتها، ص ٧٣ - ٧٤.

(٤١) نفس المرجع، ص ١٠٧.

الحديث والأصول على وجوب التثبت في قبول الأنباء والروايات والأحاديث، والإلمام بشيء مما وصل إليه الإسلام، والاستئناس بآراء علماء المسلمين وطرقهم في التثبت من الحقيقة أمر نافع في هذه الناحية من النقد التاريخي الباطني السلبي»(٤٢).

وسيرة رسول الله ﷺ ثابتة مدونة كما لم تثبت سيرة مصلح أو زعيم أو قائد حتى في عصرنا الحديث، فنحن نعلم أدق تفاصيل حياة الرسول الشخصية، ونعرف كل شيء عنه حتى شكله ومظهره الخارجي. وقد دونت كتب السنة نقلاً عن كتب السيرة كل هذه الدقائق.

وهذا الذي ذكرناه عن الإسلام وعن القرآن والحديث والسيرة يقابله في المسيحية ـ وهو الدين الذي يسيطر أصحابه على العالم اليوم ـ غموض وتحريف وزيف. إن عدداً لا يستهان به من الباحثين يتشكك في وجود المسيح عليه الصلاة والسلام وقرر بعضهم أن المسيح ليس إلا أسطورة، وذكر آخرون أنه كان واحداً من المتصوفة اليهود القائلين بالبعث والحساب(٤٣). أما الأناجيل الأربعة التي يعتمدها المسيحيون فإن أقدمها لم يؤلف إلا حوالي سنة ٦٠ ميلادية وهي تختلف فيما بينها اختلافاً بيّناً في كثير من التفاصيل، هذا فضلاً عن بطلان عقائدها وتناقضها(٤٤). . ويذكر الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله أن أناجيل النصارى لم تنزل على عيسى عليه السلام ـ في نظر المسيحيين أنفسهم ـ وليست

---

(٤٢) منهج البحث التاريخي للدكتور حسن عثمان ص ٣٥، ط. المعارف القاهرة: ١٩٦٥ (وانظر إلى ص ١٤٢) ويشير المؤلف إلى كتاب مصطلح التاريخ للدكتور أسد رستم الذي أشاد بجهود المسلمين في هذا المجال. وانظر في هذا الموضوع بالإضافة إلى ما سبق ذكره من مراجع كتابي: علوم الحديث ومصطلحاته للدكتور صبحي الصالح، دمشق ١٣٧٩/١٩٥٩.
قواعد التحديث لجمال الدين القاسمي، دمشق ١٣٥٢/١٩٢٥.

(٤٣) أنظر كتاب الله للعقاد، ص ١٤٩ ـ ١٥٤، مع المسيح في الأناجيل الأربعة لفتحي عثمان، ص ٦٣ ـ ٦٦، مكتبة وهبة، القاهرة، بدون تاريخ.

(٤٤) أنظر الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي، مكتبة نهضة مصر، ١٣٨٤/١٩٦٤ محاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبي زهرة رحمه الله، القاهرة، ١٣٨١/١٩٦١.

منسوبة إليه ولكنها منسوبة إلى بعض تلاميذه ومن ينتمي إليهم وهي تشتمل على أخبار المسيح مما يحمل على الظن بأن هناك إنجيلاً أصيلاً نزل على عيسى لكنه مفقود[٤٥].

(٤٥) محاضرات في النصرانية، ص ٥٤ ـ ٥٦.

الخاتـمة

أردنـا بالقسم الأول من هـذا الكتاب أن نبـيِّن حتمية الثقـافة الإسـلامية اليوم لكل المسلمين لأسباب عديدة.

منها أنها تحقق انتماء المسلمين لأمتهم في الوقت الذي يعيش فيه المسلمون في حالة من الضياع والقلق الفكري والنفسي.

ومنها أنها أهم سلاح يلجأ إليه المسلمون للدفاع عن أنفسهم إزاء هجمات أعدائهم الذين يـتربصون بـالمسلمين الـدوائر لمعـرفتهم بالقـدرات المتاحـة لهم، والثروات التي منحها الله لهم ، واليقظة الجديدة التي أذهبت عنهم الغفلة التي عاشوا فيها مدة طويلة في القرنين الأخيرين .

ومنهـا أنها أول ما يجب أن يلتف حـولـه المسلمـون إذا أرادوا انبعـاثـاً من رقدتهم ونهوضاً من كبوتهم لأنها ثقافـة دينهم الـذي يؤمنـون به، وأهلهم الـذين نشأوا بينهم، وأرضهم التي درجوا عليها.

وقد أكدنا ضرورة هذه الثقـافة وحتميتهـا بأمـرين: الأول سلبي، والثاني إيجابي، أما الأول فيرتبط بأمور عديدة غيَّرت مفهوم الثقافة الإسلاميـة «العربيـة» في أذهان المسلمين، وذلك أن ما أصاب المسلمين قديماً من تفرق واختلاف، وما وقـع فيه بعضهم من بـدع وأهواء وسـوء في الفهم، وما ركن إليـه أكـثرهم من تقليد، ثم مـا أصـابهم حـدبثـاً من غـزو غـربي: فكـري وأخـلاقي واجتـماعي وحضـاري، كل ذلـك جعل الأمـور تختلط عنـدهم وتلتبس عليهم حتى أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً والحق باطلاً والباطل حقاً.

وقـد فصلنا القـول في تلك الأمور وشرحنـا كيف بـدأت وكيف تـطورت

ولعلنا نستطيع من ذلك كله أن نستخلص أشياء يجب العمل على تحقيقها :

★ ضرورة دراسة الغزو الفكري الغربي دراسة مفصّلة حتى يمكننا تتبع أضراره وآثاره لعلاجها وتوقي ما قد يستحدث منها.

★ العناية باللغة العربية تعلماً وتعليماً.

★ إزالة الفجوة القائمة بين التعليم الديني والتعليم اللاديني أو المدني.

★ تطهير وسائل الإعلام والمراكز الثقافية والفكرية والمجالات الإجتماعية من الآثار الضارة للغزو الغربي وتوجيهها توجيهاً إسلامياً رشيداً.

★ دراسة الشريعة الإسلامية دراسة عميقة متطورة ومقارنتها بالقوانين والتشريعات الحديثة بحيث نستطيع إيجاد البدائل من القوانين والتشريعات المستمدة من شريعتنا الإسلامية والتي تقابل حاجات العصر حتى لا يجد بعض الحكام مبرراً للعدول عنها إلى غيرها من القوانين والتشريعات المتسمدة من الغرب.

★ دراسة ما أصاب المسلمين قديماً من أخطاء وانحرافات وقع فيها أصحاب الفرق والأهواء، ومن بدع عملية شاعت بين عامة المسلمين، ودراسة مذهب أهل السنّة والجماعة ونشر هذا المذهب بين المسلمين حتى يتحقق تمسكهم بالكتاب والسنة تمسكاً صحيحاً.

★ تحذير المسلمين من الخوض في الدين بغير علم وعقوبة من يصر على ذلك مع علمه بما يجب عليه.

★ تبيين مرتبة النبي ﷺ من العلم وكيف كان أعلم المسلمين ومرتبة أصحابه الذين كانوا سادة العلماء، والعودة بذلك إلى «السلفية» الصحيحة.

★ بيان أهمية فتح باب الإجتهاد من جديد ، وحض المسلمين على الدراسة الجادة العميقة حتى يوجد بينهم من تتوفر فيهم شروط الاجتهاد ، ورصد المكافآت الأدبية والمادية لهم ، وبذلك يتحقق الثراء والخصب في الفقه الإسلامي .

وأما الأمر الثاني الإيجابي الذي أكدنا به ضرورة الثقافة الإسلامية

وحتميتها فيتصل ببيان فضل هذه الثقافة وعظيم نفعها للمسلمين في دنياهم وآخرتهم وفي جميع مجالات الحياة. ويمكن أن نستخلص من دراستنا له النتائج التالية:

★ إيضاح عظيم ثواب العلم وتأكيد وجوبه على كل مسلم قادر.

★ الربط بين العلم والعمل بزيادة الاهتمام بالجوانب التوجيهية الأخلاقية عند طلبة العلوم الدينية، والجوانب العلمية عند عامة العبّاد ورجال الطرق الصوفية.

★ إشاعة العلوم الدينية في المعاهد العسكرية والجيوش الإسلامية.

★ تأكيد مسئولية المسلمين وعظم التبعة الملقاة عليهم، وفتح باب الأمل عندهم حتى يوقنوا بأن المستقبل للإسلام.

وأما القسم الثاني من الكتاب فقد حاولنا فيه تلخيص أهم مبادىء الإسلام العامة. وقد أبرزت فيه ضرورة فهم الإسلام من حيث هو بناء متكامل مترابط، وأكدت فيه على أهمية العقيدة ودورها الأساسي فيه.

ولا شك أن توجيه المسلمين إلى هذه المعاني وتأكيد العناية بدراسة العقيدة وفهمها سوف يساعد على إرساء أهم أسس النهضة المرتقبة.

وقد حاولت في الباب الثاني الذي عرض لخصائص الإسلام أن ألفت النظر إلى سمو ديننا وعظمته وأن أجعل دراستي الموجزة حافزاً لشبابنا وأبناء أمتنا على الإقبال على دراسة دينهم والتوسع في فهم خصائصه ومميزاته.

وبعد، فإنني أشعر حيال أهمية موضوع هذا الكتاب أن ما قدمته ليس إلا جهداً متواضعاً يحتاج إلى تضافر وتعاون من كل الغيورين على دينهم من الباحثين والدارسين، وأحسب أنني إذا استطعت بهذا الكتاب أن أحرّض غيري من الباحثين على المشاركة في الكتاب والبحث في موضوعه فإنني أكون بذلك قد حققت نجاحاً كبيراً.

والله تعالى المسئول أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن، وأن ينفع به، إنه سميع مجيب.

ثبت بأهم مراجع القسمين

أباطيل وأسمار للأستاذ محمود محمد شاكر، ط. المدني، القاهرة ١٣٩١/١٩٧٢.

الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين، ط. مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٥٤.

الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ط. مصطفى محمد، القاهرة ١٣٧٠/١٩٥١.

أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي في مصر للدكتور جرجس سلامة، ط. الانجلو، القاهرة ١٩٦٦.

الاعتصام للشاطبي، ط. المنار، القاهرة ١٣٣١/١٩١٣.

أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية، ط. المنيرية القاهرة، بدون تاريخ.

اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية، ط. السنة المحمدية، القاهرة ١٣٦٩/١٩٥٠.

الإيمان لابن تيمية، ط. المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٨١/١٩٦١.

تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر للدكتورة نفوسة زكريا سعيد، ط. المعارف، القاهرة ١٩٦٤.

تاريخ القضاء في الإسلام لمحمود عرنوس، القاهرة ١٣٥٢/١٩٣٤.

التبشير والاستعمار في البلاد العربية للدكتور عمر فروخ والدكتور مصطفى الخالدي، ط. بيروت، ١٣٩٠/١٩٧٠.

تفسير ابن كثير، ط. دار الفكر، بيروتد ١٣٨٩/١٩٧٠.

تفسير الطبري، ط. المعارف، بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر القاهرة، ١٣٧٤ ـ ١٣٨٨، ١٩٥٤ ـ ١٩٦٨.

تفسير الطبري، ط. بولاق، القاهرة، ١٣٢٣ ـ ١٣٢٩.

تفسير القرطبي، ط. دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٦٩ ـ ١٣٨٤، ١٩٥٠ ـ ١٩٦٥.

تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، ط. المنار القاهرة ١٣٥٣ ـ ١٣٥٤.ـ

التفكير فريضة إسلامية للأستاذ عباس محمود العقاد، ط. دار القلم القاهرة بدون تاريخ.

تلبيس إبليس لابن الجوزي، ط. المنيرية، القاهرة، ١٩٢٨.

التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب، مؤسسة النور، الرياض ١٣٨٤.

جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، ط. المنيرية، القاهرة ١٣٤٦.

جامع الرسائل لابن تيمية بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، ط. المدني، القاهرة ١٣٨٩/١٩٦٩.

جذور البلاء للاستاذ عبدالله التل، ط. بيروت. ١٣٩٠/١٩٧١.

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية، ط. المدني، القاهرة ١٣٨١/١٩٦٢.

الخطر اليهودي (بروتوكولات حكماء صهيون) ترجمة الأستاذ محمد خليفة التونسي، ط. دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦١.

خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية للأستاذ عبدالله التل. ط. دار القلم، القاهرة ١٣٨٤/١٩٦٤.

درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٩١/١٩٧١.

الدين للدكتور محمد عبدالله دراز، ط. دار القلم، الكويت ١٣٩٠/١٩٧٠.

الرسالة القشيرية للقشيري، ط. القاهرة ١٣٨٥/١٩٦٦.

سنن ابن ماجة بتحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد دالباقي، ط. عيسى الحلبي، القاهرة ١٣٧٣/١٩٥٤.

سنن ابي داود بتحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد دالحميد، ط. التجارية، القاهرة ١٣٦٩/١٩٥٠.

سنن الترمذي نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ط. المدني، القاهرة ١٣٨٤/١٩٦٤.

سنن النسائي بشرح السيوطي، ط. المكتبة التجارية، القاهرة.

شرح حديث ابي الدرداء لابن رجب الحنبلي، ط. السلفية، مكة ١٣٤٧.

صحيح البخاري، ط. مكتبة الجمهورية العربية القاهرة.

صحيح مسلم، بتحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، ط. عيسى الحلبي، القاهرة ١٣٧٥/١٩٥٥.

الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية للأستاذ ابي الحسن الندوي. ط. بيروت ١٣٨٥/١٩٦٥.

الصهيونية العالمية للأستاذ عباس محمود العقاد، ط. القاهرة ١٩٦٨.

علم أصول الفقه للأستاذ عبد الوهاب خلاف، الطبعة الرابعة، القـاهرة ١٩٥٠/١٣٦٩.

عمـدة التفسير عن ابن كثـير، تحقيق واختصار الشيـخ أحمد شـاكر، ط. المعارف، القاهرة ١٩٥٧/١٣٧٧.

عـوارف المعارف للسهـر وردي البغدادي، المكتبـة العـلاميـة، القـاهـرة ١٩٣٩/١٣٥٨.

الغـارة على العـالم الإسلامي تـأليف شاتلييه ترجمة الأستـاذ محب الـدين خطيب والأستاذ مسـاعد اليـافي الطبعـة الثانيـة، الدار السعـودية للنشر، جـدة ١٣٨٧.

الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور محمد البهي، ط. بيروت ١٩٧٠.

فلسفـة التشريـع في الإسـلام لـلأستـاذ صبحي محمصـاني، ط. بـيروت ١٩٥١/١٣٧١.

الله لـلأستاذ عبـاس محمود العقـاد، الطبعـة الرابعـة، المعـارف القـاهـرة ١٩٦٤.

اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان للأستـاذ محمد فؤاد عبـد الباقي، ط. عيسى الحلبي، القاهرة ١٩٤٩/١٣٦٨.

محـاضرات في نشـوء الفكـرة القـوميـة لـلأستـاذ سـاطـع الحصري، ط. القاهرة.

مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ط. الرياض، ١٣٨٢ ـ ١٣٨٦.

مجمـوعـة تفسـير ابن تيميـة، ط. المـطبعـة القيمـة، بـومبـاي، الهنـد ١٩٥٤/١٣٧٤.

المستشرقون والمبشرون في العالم العربي للأستاذ ابراهيم خليل احمد مكتبـة

الوعي، القاهرة ١٩٦٤.

المسند لأحمد بن حنبل بتحقيق الشيخ أحمد شاكر، ط. المعارف، القاهرة ١٣٦٥ - ١٣٧٥، ١٩٤٦ - ١٩٥٦.

المسند لأحمد بن حنبل ط. الحلبي، القاهرة.

مشكاة المصابيح للتبريزي، بتحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، دمشق ١٣٨٠/١٩٦١.

معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبد الكريم عثمان ١٣٩٠/١٩٧١.

مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية، ط. مكتبة الأزهر، القاهرة، ١٣٥٨/١٩٣٩.

مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ط. السلفية، القاهرة ١٣٧٠.

منهاج السنة النبوية لابن تيمية بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، جـ ١، ٢، ط. دار العروبة، القاهرة ١٩٦٢، ١٩٦٤.

الموافقات للشاطبي، ط. مصطفى محمد، القاهرة، بدون تاريخ.

الموضوعات لابن الجوزي، نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ط. القاهرة ١٣٦٨/١٩٦٦.

نشوء الفكرة القومية للدكتور زين نور الدين زين، دار النهار، بيروت ١٩٧٢.

الوحي المحمدي للشيخ محمد رشيد رضا الطبعة الأولى، المنار القاهرة.

تطلب جميع منشوراتنا من :

دار القلم الكويت

شارع السور - عمارة السور - بجوار وزارة الخارجية القديمة

٢٤٥٧٤٠٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقياً : توزيعكو

ص.ب ٢٠١٤٦ الصفا 13062 الكويت

دار القلم دبي

طريق النفق - بناية الشيخ راشد القديمة

ص.ب ١١٨١٧ - ت ٤٣٣٨٨٦